

جمال الغيطاني نطح المدينة

رواية



شطح المدينة

طبعة دار الشروق الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حس - هـ.ف. ٣٩٣١٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بريكا : شروق - فاكس : 83081 SHROK UN

تونس : ص ب : ٨٠٩٤ - هـ.ف. ٣١٥٨٨٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بريكا : دلتا شروق - فاكس : SHROK 20175 LE

جمال الغيطاني

شطح المدينة

رواية

دار الشروق

.. وسن للحيطات قبل توقف القطار مباشرة ، انتبه إلى صرير العجلات وتباطؤ السرعة . تغير إيقاع الحركة وخشيته من المجهول .

خمس ساعات وعشر دقائق ، اندفاع متصل ، سرعة قصوى معدنية الضجيج ، لا تتغير وتيرتها إلا عند عبور المدن ، والدنو من المنحنيات ، واختراق الأنفاق ، ومواضع الحذر التي تحددها العلامات وخبرة القيادة ، آثر ذلك ، اتصال رحلته مباشرة ، بدلا من قضاء ليلة فاصلة في عاصمة يجهلها ، مستوجبة للحذر ، خلو من معارفه ، سمع وقرا عن رواج أمر اللصوص بها ، استهدافهم للغرباء ، خاصة القادمين من الشرق ، ما هو في هذه الديار النائية عن موطنه ، عن أهله ، وصحبه ، إلا أجنبي .. غريب .

من المطار إلى محطة السكك الحديدية المركزية رأسا ، لم يطل انتظاره . المدينة تقع على الطريق الرئيسي المؤدى إلى الغرب . كل نصف ساعة يقصدها قطار ، أنها المدينة الوحيدة بعد العاصمة الاتحادية التي تقف بها كل القطارات العابرة ، حتى الدولية منها المتجهة أو القادمة عبر الحدود .

جاء في كتيبات إدارة تنشيط السياحة التابعة للبلدية أن ذلك لأهمية المدينة بالنسبة للموقع ، ولما تتضمنه من آثار قديمة ، وراث معمارى ذى خصوصية وفريدة ، ولانخفاض نسبة الحوادث .

مصادر الجامعة ترجع السبب الى المركز العلمى ، إلى وجود الكليات العريقة التى درس بها مشاهير الأدب والفن والعلم .

يقوم واقفا ، مستوفزا ، متوقعا ما لم يعد له العدة ، فى غربته يتوقع دائما

المفاجأة الضارة ، يخشى نزول أذى ما من حيث لا يدري ، ما طبيعته ؟ ما كنهه ؟ ما مصدره ؟.

لا يمكنه القطع ، لا يستطيع التعيين أو التحديد ، أنما يلزم الحذر ، ويهيمن عليه التوجس ، ما يوده الآن انتهاء وضعية المسافر ، بلوغ الفندق في أقصر وقت .

حقيقة السفر في يده وتطلعه حوله يعنى أنه لم يستقر بعد ، ان نقوده مكتملة وجواز سفره ، وشئونه بحوزته ، يرغب الوصول إلى مأواه ، إلى مستقرة المؤقت حيث سيمضى أيامه المعدادات هنا .

العنوان موضح ضمن خطاب الدعوة ، الحق أنهم لم يغفلوا التفاصيل ، المواعيد ، الحفلات ، الندوات ، أوقات الفراغ موضحة حتى يمكنه اللقيا بمن يشاء . لكن .. بمن ؟.

ما من أحد هنا ، ما من معارف من قريب أو بعيد ، احتاط لأوقات الفراغ فاصطحب كتابين ليخلو اليهما في الليالي السبع المقدرة له أن يمضيها هنا ، ينزل درجا يؤدي إلى نفق يمتد تحت الأرضة ، يتبع لافتات دالة على المخرج ، إلى مكان عربات الأجرة ، طابور من العربات الصفراء ، حديقة الطرز ، يهبط السائق ، يرتدى سترة جلدية توحى بالملكمة ، بالشروع في منزلة ، يحمل الحقيقية ، يضعها في خزانة السيارة الخلفية ، الركوب إلى جواره غير ممكن ، لا تسمح قوانين البلدية بذلك ، ولم يدر السبب ! . لا يمكنه رؤية العداد من مقعده ، نقوده محدودة ، لكن الأمر ضرورة ، لا مفر في البداية ، يجهل الدروب والطرق ، إضافة إلى أجهاد السفر ، وعبء الحقيقة ، وحذره .

الميدان فسيح ، قديم ، والمباني عتيقة ، بالتأكيد .. تمت كلها إلى ما قبل القرن التاسع عشر ، عجوز يرتدى معطفًا بنى اللون ، يتوكأ على عصا

ويمسك لفافة ، يتابعه بعينه ، يلتفت ، لكن اتجاه العربى يحول بينه وبين الرجل متمهل الخطى ، بادی الرجعة ، لا يعرفه ، لا يدري مقصده ، ربما يعبر الموضوع ذاته فى هذه اللحظة .

يثق أن ملامحه العابرة جدا ستعلق بذهنه ، أول ما سيذكره عند استعادة أيامه هنا ، عندما تولى هذه الأوقات كلها ويتحول المحسوس ، المرئى إلى مجرد صور ، بعضها واضح ، ومعظمها مضرب ، باهت .

لكنه لن ينسى أبدا اللحظات الأولى ، الانطباع الأول ، رسوخ كامن ، وأيام عديدة مدثرة ، قوم متباعدون . ورائحة خفية تمت بشكل ما إلى زهور صفراء ، دقيقة ، رقيقة ، تتوسطها دوائر صغيرة بنفسجية ، هكذا عین ، مع أن اليقين معدوم ، والأسباب منفية .

لماذا العجوز ؟ لماذا التفكير فى هذه الزهور ؟ وأغصان جافة فى ممر حديقة لا وجود لها ، إنما تتشكل عناصرها من أنحاء شتى لا رابط بينها ، أنها البدايات ، يشبه الوصول إلى أرض لم يطأها بولوج العالم الحسى لامرأة ، مبهر اكتشاف دقائق الخصائص الصغرى فى المرة الأولى ، كل منهن عالم ، منظومة بمفردها ، أما طرق التعبير عن ذروة النشوة أو سلوك السبل إليها ، فلا تتشابه أبدا ، تماما كالبلدان والأمصار والأراضى المعمورة ، ترى .. من القائل ؟ أغترب تتجدد . تستعصى عليه الذاكرة المجعدة .

تدور العربى على مهل حول الميدان المبلط بحجارة صغيرة ، أعمدة الأقواس الحجرية ، قمم أشجار تطل من سور مرتفع ، درج رخامى مؤدى ، تمثال شيخ معصوب العينين يمسك قنديلا ، تتجه السيارة صوب الطريق لمبنى المحطة من الطرف الآخر ، يتوقف أمام المبنى الرابع ، يظنها إشارة مرور ، أو سبب ما ، لكنه يفاجأ بالسائق يشير إلى مدخل قديم :

« الفندق الدولى »

هكذا؟.

أقل من دقيقة ، مفاجأ بقصر المسافة ، حقا .. الغربى أعمى ولو كان بصيرا ، لو أطلع على الموقع لعبز الميدان ، لادخر ما دفعه ، مبلغ مرتفع بالقياس ، فيما بعد عرف أن البداية مرتفعة القيمة ، مجرد فتح الباب ، بعد انتهاء مدته ، بعد انقضاء اقامته ، يوم سفره إلى العاصمة ، بعد سبع ليال سيمضى مشيا إلى المحطة .

يتطلع إلى الواجهة ، نوافذ مستطيلة مؤطرة بزخارف جصية ، تتخلل الفراغات تماثيل صغيرة وزهور حجرية ، يجتاز الرصيف ، بلاطه مربع مصقول ، ما بين جدران البيوت والأقواس الحجرية ممر طويل ، يستعيد شارع محمد على ، لكن أقواسه أغلظ ، تهدمت في مسافات عديدة ، لا تتصل ، يبدو كهم تتخلل أسنانه فجوات غير منتظمة ، يستعيد مأذن مسجد محمد على فوق القلعة التى تسد الأفق والروائح المنبعثة من سوق الخضار التى تطغى عليها أحيانا رائحة الاسماك النفاذة ، خاصة في شهور الصيف ، يرى مقهى التجارة القديم بعينى طائر مطلق ، ينزل على مهل حتى يحط فوق منضدة في الركن المعتم ، لسبب لا يدرك كنهه ، لا يرى إلا ملامح رجل تجاوز الخمسين ، نحيل ، يرتدى جلبابا ، يحتضن عودا مغطى بقماش أخضر حائل ، يخلق إلى شيء حيث أيام منسية تتوالى خلالها صور غامضة باهتة ، لا يدرك متى رأى الرجل ، متى قابله ، لكنه بالتأكيد لم يتبادل معه حوارا عندما أنس إلى المقهى زمنا وأمضى أوقاتا طويلة إلى عازف كمان ضرير أنباء عن الحان وضعها لو أتيح لها الظهور لغطت على شهرة محمد عبد الوهاب ولنسيه الناس خلال أسابيع ، لكنه مواجه بعقبات صعبة

في الاذاعة والتلفزيون نتيجة مبالغ ثابتة يدفعها كبار الملحنين إلى المسئولين للحيلولة دون لقاءه الجمهور الواسع ، الجمهور الواسع ، أه .. لو تتاح الفرصة ، لا يذكر من ملامح الضرب إلا حجمه ، كان بدينا ، متهدل الكتفين . يجتاز مدخل الفندق الضيق ، لا يتناسب مع رحابة بهو الاستقبال وحدائته ، مقاعد حادة الحواف ، خطوط مستقيمة ، لا يمت الداخل إلى الخارج ، بعد الليلة الأولى ، في صباح أول أيامه أدرك استمرارية وذيوع التناقض ، الواجهة عتيقة وداخل المبنى حديث جدا ، تعرض الواجهة ثلاثة طوابق ، بينما يتكون البناء من ستة ، الحفاظ على الطابع المتوارث تنظمه قوانين صارمة ، واضحة ، لا تحتمل التفسيرات الخاطئة ، أو التأويلات سيئة القصد ، أو الحزق المتعمد ، المضمون جلي جدا ، احتفظ بالمظهر القديم ، أو أتبعه ، وأفعل في الداخل ماشئت . ولأنها المرة الأولى التي يرى فيها وضعا كهذا ، اهتم بتتبعه ، بتقصيه ، بعد استقراره داخل الغرفة ، وأتمامه طقوسه ، رص أوراقه بجوار السرير ، وعدة حلاقتة فوق الرف الزجاجي في الحمام ، والملابس من الحقيقية إلى الصوان ، أما جواز السفر وحافظة النقود فتحت الوسادة التي سيسند إليها رأسه ، عندما خيره موظف الاستقبال بين ايداعه في المكتب أو حفظه معه ، لم يتردد ، أو ما برأسه شاكرا دسه في جيب جاكته ، لا يمكنه مفارقتة . شيئا لا يتخلى عنهما ، الجواز وبطاقة الطائرة ، يخشى دائما فقدهما ، وما يستتبع ذلك من متاهات شتى . بعد أن رتب حاجاته ليضفى خصوصيته على الغرفة المشاع ، تمدد فوق السرير ، مستمتعا بوحده في حيز غريب ، نائيا عن موطنه . التمدد على الظهر والحملقة إلى السقف ومحاولة فرز الأصوات الشاحبة النائية ، عادة اكتسبها منذ اعتقاله قبل ربع قرن وحبسه انفراديا لمدة أربعة وأربعين يوما

قبل تحويله إلى السجن الجماعى . وتعذيبه لاجباره على الاعتراف بالتهمة الموجهة إليه وإلى صحبه ، قلب نظام الحكم من خلال انشاء تنظيم سرى يعتقد الافكار الهدامة ويدعو إلى الصراع الطبقي وينكر الأديان السماوية جميعا ، وذلك أثناء جلوسهم فى مقهى يحتسون فيه البيرة ، وأكواب الشاى الافرنجى المعبأ فى أكياس من ورق رهيف ، ثم انتقلهم الليل إلى مقهى شعبى قرب مسجد الإمام الحسين ، وتبادلهم الحوار همسا معظم الوقت ، وبصوت مرتفع أحيانا للتمويه على مراقبيهم الأكفاء ، وتدخينهم المعسل أثناء ذلك .

على شفثيه تلوح ابتسامة ، سرعان ما تتوارى ليبدو تعبير أسيان ممزوج بدهشة طفولية بكر ، يقوم واقفا ، يتناول الأوراق التى وجدها فى انتظاره ، مضطرا لقضاء الليلة فى الغرفة ، يجهل المدينة ، كما أنه متعب ، لن يطول سهره .

يتأمل المؤلفين الأنيقين ، الأول من الجامعة التى تستضيفه بمناسبة البرنامج الاحتفالى لمرور تسعة قرون على تأسيسها ، والثانى من البلدية معلومات شتى عن المدينة ، موقعها ، تخطيطها ، خصائصها التاريخية والفنية ، المعمارية . أهم الصناعات والأنشطة والمشاهير الذين قضوا فترات من حياتهم بها ، طالت أو قصرت .

الأمور الحرففة عند إعادة البناء

.. الموضوع خلافى ، غير محسوم ، يتبلور خلال فترات ، يغيب حينا لكن لحضوره وشيش دائم ، جوهرة ذلك السؤال : أيهما أسبق ، المدينة أو الجامعة ؟.

مؤلفات ، ودوريات ، وأبحاث ، ومناقشات ، وتصريحات علنية وأخرى خفية تتناول هذه النقطة ، ليس على المستوى المحلى ، انما فى اطار التاريخ القومى للبلاد الموحدة منذ قرنين لا غير .

تتداخل عناصر عديدة لتصيفه ، أو لتعيد ترتيب أولوياته ومحاوره وتفصيله من فترة إلى أخرى . ومن مرحلة إلى مرحلة . وعند أى تغير يصاحب صعود طبقة ، أو سيطرة فئة ، أو بروز عنصر معين . أو نشوء اتجاه سياسى جديد ، ليس بالضرورة داخل البلاد ، وانما النظر فى مناهجه ، أو بزوغ نجم أستاذ جامعى كبير .

ما تم تدوينه فى العصر الامبراطورى ، مختلف عما تردد فى زمن الولايات ، لا يتفق مع التفاصيل التى ذكرت فى العصر الملكى ، وبعد اعلان الجمهورية تغير هذا كله .

لكن .. هذا الموضوع بالذات لم يتغير جوهرة ، هل شيدت المدينة أولا ، أو

ظهرت الجامعة ، ثم نشأ وضع يلبي احتياجاتها وتطور ليتخذ شكل المدينة ؟
والواجهات من الأمور التي تعكس القضية بوضوح .

أقدم المنشآت هنا مباني الجامعة ، بعضها يرجع إلى السنين الأولى ، أى قبل تسعة قرون ، ومنذ تشكيل أول بلدية قبل بدء مجلس ادارة الجامعة ممارسته لمهامه - كما تؤكد مصادر البلدية - أو بعد ظهور أول كلية قبل نشوء المدينة - تؤكد الدراسات الجامعية - وثمة اتفاق على احتفاظ المدينة بطابعها القديم ، العريق ، هنا يقول رجال البلدية أن ذلك من صميم عملهم ، وأن أسلافهم هم الذين أرسوا التقاليد والأعراف والأصول والقوانين التي تكفل ذلك ، بل تكبدوا مشاقا ومخاطر ، ويضربون المثل بما جرى مع الادارة المركزية للتخطيط العمراني في العاصمة الاتحادية عندما شرع رجل أعمال كبير ، منبسط النفوذ ، في بناء مصنع بأحدى ضواحي المدينة ، اشترى عددا من المباني في المنطقة القديمة لاعدادها كمقار للادارة ، بدأ في الهدم ، عندئذ طلب منه مهندسو البلدية الالتزام ، الحفاظ على الواجهات القديمة ، والبناء كما يشاء خلفها ، غير أنه لم يعبأ ، بل هنا من ذلك في تصريح أدلى به إلى مجلة أسبوعية ، واسعة الانتشار ، راديكالية الاتجاه ، وقيل أنه دفع .
وصف ما طلب منه بأنه عبث ، وقال إن الناس يجب أن تعيش في مكان حقيقى يعكس روح العصر ، وليس في متحف .

رئيس البلدية أنذره بالتوقف فورا ، وسحب معدات الهدم ، وأعلن أنه سيرفع الأمر إلى المحكمة الدستورية الاتحادية ، قبل أن يخرج المادة السابعة من دستور الولاية إلى حيز التنفيذ أعمالا لحقه ، وهذا نذير بحرب أهلية .

ترددت شائعات عن محاولات رجل الاعمال رشوة القضاة وكبار المسؤولين ، بل .. وبعض أعضاء المجلس البلدى . فوقعت الخشية لتعاظم أمر الرشوة في البلاد .

خلال أيام المؤتمر سمع الكثير ، ودون التفاصيل ، أمر مهم عنده ، لتناقضه مع ظاهر ما يبدو له ، منذ وصوله إلى المطار ، ثم ركوبه القطار ، وحتى استقراره في غرفته ، بدا كل شيء صارم الانضباط ، قاسى التقاطيع ، لكن ما اطلع عليه عكس ذلك ، فالرشوة فاشية ، لا يوجد ما يستعصى عليها ، يمكن الحصول على أدق المعلومات وأشدّها حساسية ، بما فيها مؤسسات الأمن العام . وأجهزة مكافحة أنشطة التجسس ، ولجنة إعادة كتابة التاريخ المشكلة عقب انتخاب رئيس الجمهورية الحالى للمرة الثانية .

كل له قدر معلوم ، حتى تكليف ضباط بالخدمة السرية لجمع معلومات دقيقة عن شئون المواطنين الحساسة ، كذلك الظهور في وسائل الإعلام المركزية والمحلية مقابل مبالغ معينة يتم الاتفاق عليها مع مخرجى البرامج ومسؤولى التخطيط المركزى ، أموال أخرى متفاوتة المقادير تدفع إلى المصورين وعمال الاضاءة مقابل تركيز آلات التصوير على شخصية معينة أو زوايا خاصة تبرز جمال ممثلة ، أو ملامح خاصة لرجل سياسة تظهره قاسيا ، صارما ، قادرا على أرهاق خصومه ، ثمة امكانية لتخفيض الأعمار ، بعد تغيير شهادات الميلاد ، طبعا .. المستفيد هن النساء .

في وقت مضى تحدثت المدينة عن طبيب أسنان مشهور ، وصدمته الحادة التى ألزمته الإقامة حتى الآن بقسم الأمراض العصبية والنفسية بالمستشفى الجامعى ، وذلك أنه اكتشف بعد وفاة زوجته أنها تكبره بخمس عشرة سنة ، بعكس الوثائق ، بدءا من شهادة الميلاد ، وحتى بطاقة الإقامة ، وجواز السفر ، وأوراق العضوية فى النادى الاجتماعى ، اتضح له أنها دفعت أموالا لتغيير البيانات حتى تصبح رسميا أصغر منه بسبع سنوات . كان افتضاح الأمر بعد هذه السنوات الطوال ثقل الوطأة ، فلم يحتمل .

كل شيء ممكن إذا ما دفع مقابلا ، مبالغ معينة ، هدايا ، أو تسهيل الحصول على أشياء عينية ، كتمير صفقات ، أو امتلاك أراض عامة ، أو الوصول إلى منصب .

ما توقف عنده ، ضرورة احتفاظه بنقود لدفعها مناصفة بين رجال الجوازات والجمارك ، مع سلامة الإجراءات ، واستيفاء جميع الخطوات ، والالتزام بالمدة المحددة للإقامة ، وانعدام المخالفة كلية ، انما يتم الدفع لتيسير المتعارف عليه ، وإلا وقع التباطؤ ، ربما يطلب منه الانتظار حتى تتم مراجعة بعض البيانات ، يتم تأخير عمدا ، حتى تقلع الطائرة ، يفاجأ بوقت لم يعد له العدة ، قرر اتخاذ الحيطة ، ومما أدهشه أن تلك الأمور معروفة ، متداولة ، حتى بالنسبة للأجانب القادمين لتمضية إجازات ، أو الإقامة فترات أطول .

جهة واحدة تستعصى على الرشوة .

انها الجامعة ، ويضرب المثل دائما بابن أمير الولاية الغربية في العصر الملكي ، عرض والده هدايا ثمينة تتضمن مجوهرات وتحفا ثمينة ، لكن المجلس رفض قبوله بعد رسوبه في الاختبار الشخصي ، وتتردد وقائع أخرى مشابهة ، لكن بعض رجال البلدية يؤكدون أن ثمة أشكالا أخرى ومسارب خفية ، ويضربون مثلا بأستاذ مادة الاعلام الموجه الذي ساعد زوجة رئيس الجمهورية السابق وسهل لها الحصول على شهادة التخرج في كلية العلوم الإنسانية ، مقابل وعده بمنصب كبير ، ولكن رجال الجامعة يردون فوراً ، إذ تقرر إحالة هذا الاستاذ إلى لجنة التأديب السرية . ولكن مصادر البلدية تؤكد أن السبب مختلف ، ذلك أنه ضبط في دورة المياه الخاصة بالسيدات يمارس الجنس واقفا مع طالبة من الصف الأول .

والحديث في هذا يطول .

نعود لذكر ما جرى من رجل الأعمال . اذ يبدو أن جهود البلدية لوقفه لم تنجح ، أو لم تلق صدًى في العاصمة الاتحادية ، عندئذ لوح رئيس المجلس بالمادة السابعة ، وبعد أيام قليلة نفذ مضمونها بدون الاعلان عن العمل بها . استنفر قوات الأمن المحلية واستدعى جميع أفرادها الذين خرجوا من الخدمة طوال السنوات العشر الماضية ، ورفع الراية القرمزية فوق البرج المائل ، وأمر باشعال تسعة وثلاثين شمعة رسمية على أرضحة الفلاسفة ، وإضاءة شمعة كبرى تزن ربع قنطار تحية لروح رئيس الفلاسفة الذى لم تعرف مقبرته حتى الآن ، وما زال البحث جادا عنها ، ومثل هذه الشمعة لم توقد منذ أربعة قرون ، بعد وقوع الوباء الكبير في القرن السادس عشر .

يبدو أن هذه الاجراءات لاقت أصداء طيبة وأيقظت أسبابا طال ركودها ، فالمدينة كانت في الأصل امارة مستقلة حتى القرن السابع عشر ، ثم جرى في القرن التالى توحيد البلاد بالقوة بعد حروب دامت أربعين سنة متصلة ، سالت خلالها دماء ، واستبيحت أعراض ، وثروات ، وتغيرت معالم ، إلا أن المدينة القديمة عامة ، ومبانى الجامعة خاصة لم يلحق بها ما جرى في المدن الأخرى التى محى بعضها تماما ، ترجع مصادر البلدية ذلك إلى حكمة رئيسها ، ودهائه السياسى الذى مكنه تجنب الأطراف المتحاربة ، أما وثائق الجامعة فتؤكد أن السبب الرئيسى يرجع إلى مجلسها الأعلى ، عندما وجه نداء للحفاظ على الجامعة وتراثها الحضارى والإنسانى ، نص النداء المكتوب على رق من جلد الغزال محفوظ في العاصمة ، معروض في مركز الوثائق الاتحادى .

هكذا .. لم تغلق الجامعة أبوابها واستمرت تستقبل الطلاب طوال زمن

الحرب ، بعد انتهاء المعارك ، وضم المدينة إلى الولاية ، وضم الولاية إلى الاتحاد ، لم يفقد الاهالى احساسهم القديم بالتميز ، وحافظوا جاهدين على مظاهر شتى خاصة بهم ، مثل اللباس التقليدى ، وترتيب أصابع المقاتل فى الطبق ، ونوعية النبيذ الذى ظل ينتج طبقا للاساليب القديمة فى براميل من خشب عتيق . رغم تطور وسائل الانتاج ، كذلك الموسيقى التقليدية والطقوس المتبعة فى الأعراس والجنائز . وكعك العيد الكبير .

هنا تشير كتب علم الاجتماع إلى دور الجامعة وحضورها القوى ، وتقاليدها الصارمة فى الحفاظ على الطابع ، ومما اشتهر وذاع أمره وأقبل الناس على رؤيته خاصة فى المناسبات ، أزياء الاساتذة والطلبة ، والحفاظ على الأزياء أصعب من واجهات المباني ، العمارات لا تتغير إلا عبر حقب متباعدة ، أما الملابس فتتبدل من سنة إلى أخرى . بل .. من فصل إلى آخر ، لكن نجحت الادارة الجامعية وحولت بعض العناصر إلى شعار ودلالة .

خلال أيام اقامته الأولى وأثناء جلسات المؤتمر الاحتفالى دون العديد من الملاحظات المتعلقة بالأزياء ، خاصة الأقدم ..

لمحة وجيزة

..بداية ، يجب القول ان ما يبدو اليوم طريفا ، غرائبيا ، عبثا على الراهن ، كان في الماضي المندثر جزءا من سدى الحياة ولحمتها .

عندما أسس أول معهد ، نواة الجامعة ، وخصص لدراسة العلوم الدينية والشئون الفقهية ، والمعاملات الشرعية ، كان من الطبيعي أن يتماثل الزى وقتئذ مع رجال الدين ، إلا أن كبير الاساتذة رغب في التمييز ، أضاف إلى الرداء القاتم الفضفاض حزاما من القماش عرضه مقدار قبضة اليد ، أبيض للاساتذة ، أحمر للطلبة ، كذا غطاء للرأس .

زى ذكورى طبعا ، فلم يحدث أن قبل المعهد أناثا بين صفوفه طوال ثمانية قرون ونصف القرن ، فقط .. جرى التحاق بعض الطالبات منذ خمسين عاما عقب مناقشات حادة ، ومعارك لفظية وإرجاءات متتالية ، ومحاولات شتى للتعطيل ، حتى انتهى الأمر بعد ثلاثين عاما من النقاش بقبول عدد من الطالبات اللواتى اعتبرن في البداية منتسبات ، وخضعن لشروط صعبة ، واختبارات عديدة ، وتفصيل الأمر مطولة ، لو أوردناها لغطت وأملت .

منذ أربعين سنة وقع خلاف محوره الحزام الذى أضيف في الأزمنة البعيدة ، المصادر وكتب الرحالة تؤكد أنه من الحرير ، بعض الباحثين أثبتوا

أنه صنع من الجلد المدبوغ ، يتوسطه قفل من نحاس أصفر محكم ، وفي قول أحدهم ، نحاس أحمر ..

بعد استمرار النقاش أعلن المجلس الأعلى عن وجود زى كامل في قبو المخلفات الجامعية ، تقرر ترميمه وعرضه في المتحف المتاح للجميع والمحتوى على نفائس جمّة ، لكن .. لم يتم ذلك حتى الآن ، وقيل في سبب ذلك أن الجلباب ولوازمه موجود في نقطة عميقة من القبو تختلف فيها الرطوبة ودرجة الحرارة اختلافاً جماً . ولابد من عمليات دقيقة لحفظه عند تعرضه للهواء العادى ، مقال واحد ظهر في جريدة البلدية الاسبوعية شكك ولح إلى احتمال عدم وجود الزى ، ولم يعلق أحد ، لكن المقطوع به ، المفروغ منه ، وجود أشياء نفيسة ، نادرة ، بعضها يعد من الأعاجيب ، داخل القبو .

انه شق طبيعى تحت الأرض يتشعب إلى عدة ممرات أوسعها شبه دائرى، ثم يبدأ منه نفقان يقال أنهما غير مستكشفين إلى النهاية لانعدام الهواء الصالح عند مسافة معينة ، ولارتفاع درجة الحرارة ، يضم كنوز الجامعة المتوارثة ، بدءاً من المخطوطات النادرة . والألواح المنقوشة بلغات منقرضة ، وكراسات قديمة بالقلم الغريب ، والأشكال الهندسية التى تؤول وتفسر ، وأدوات الكتابة المندثرة ، وأول كتب طبعت ، ورسائل ملوك وسلاطين وأباطرة ، وسيدات مشهورات وأدباء كبار ، ورسائل شخصية لاساتذة أو طلبة ، أو بعض أهالى المدينة ، عاشوا في حقب مختلفة ولكن أوراقهم الآن قريبة متجاورة ، كذا دفاتر حوليات ، ويوميات تجار ، وفهارس ، ومخطوطات كتب على ورق البردى القديم ، حتى الهدايا التى تلقتها الادارة عبر تسعة قرون من الحكام والاثرياء والمؤسسات ، والهيئات الدينية .

يؤكد العارفون أنه من المستحيل تماما الاحاطة بما يحويه القبو حتى وأن زعمت الادارة وجود سجلات دقيقة ، متوارثة ، دون فيها كل شىء .

من فترة إلى أخرى ، وفي مناسبات محددة . يجرى عرض نوعى ، مرة للأوسمة التى تلقاها رجال الجامعة البارزين . أو شهادات التقدير من الهيئات العلمية المماثلة ، أو للتحف النادرة ، أو لمخطوطات مشاهير قضاة سنوات هنا كدارسين ، توجد مطبوعات صدرت في نهاية القرن الماضى توضح بعض محتويات القبو ، من ذلك مجلد ثمين يتسابق هواة السجاد والمتخصصون فيه إلى اقتنائه مع ندرة نسخته الآن ، وارتفاع السعر أن وجدت ، وآخر عن المصابيح اليدوية ، سواء المهداة ، أو تلك التى علق على مدى قرون عدة في قاعات الجامعة وحجراتها ، وثالث عن المحابر الفضية ، والنحاسية ، والمصنوعة من عاج الفيلة الهندية ، ومن حجر أسود صلب لا يوجد إلا في جبال الأندين ، ورابع عن المنمنمات الشرقية ، ويضم أقدم صور معروفة لأبطال شاهنامة الفردوسى ، وقصة فيرهاد وشيرين ، والوزير سالم ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذى وزن ، ومجلد خامس رسم لوحاته فنانون مجهولون اصطحبهم سلاطين الأتراك سرا في حملاتهم العسكرية ، وسهراتهم . وخلواتهم ليرسموا ملامحهم ، وليمسكوا بلحظاتهم الفانية .

لم تنتشر هذه اللوحات من قبل خشية غضب بعض رجال الدين الاشداء ، المتعصبين ، وان كان الأمر صار إلى غير ذلك فيما بعد .

هذه المجلدات تطبع بأعداد محدودة جدا ، وكثير منها الآن في ندرة المخطوطات ، منذ عدة سنوات بيع في صالة إحدى المزادات الشهيرة نسخة من مجلد صدر في منتصف القرن الثامن عشر يحوى صورا وسجلا بأنواع السيوف النادرة التى تقلدها رؤساء الجامعة عبر أزمنة مختلفة عند افتتاح

المراحل الدراسية ، بيع بمبلغ تجاوز المليون ، تناقلته الصحف ، لكن .. لم تعرف شخصية المشتري ، قيل أنه ثرى ، وتردد أنها هيئة ما ، وأكد البعض أنه متحف عالمى ، لكن .. لم يثبت شىء .

تغييرات ضئيلة جرت على الأزياء خلال فترات متباعدة ، لا يلحظها إلا الباحث المدقق ، عدا تلك المرتبطة بضجة كبرى أو حوادث استثنائية . مثل الدوائر الثلاث وتلك مرتبطة برداء رئيس الجامعة ، خاصة الذى يظهر به عند حفل التنصيب ، وافتتاح العام الدراسى ، واختتامه ، غطاء رأس مرتفع ، بنى اللون ، مقبب ، تتقدمه ريشة كتابية من النوع العتيق ، فوقه عباءة رمادية تنسدل إلى ما بعد الركبتين مقدار شبر واحد ، تتخللها ثلاثة خطوط حمراء ، يتوسط كل منها عند الخصر ثلاث دوائر مذهبية ، تحمل الحرف الأول من اسم الجامعة ، أنه الأول أيضا من اسم العاصمة المركزية .

مشكلة كبرى حول تلك الدوائر ، لا تزال تفاصيلها تروى ، يقال أن أول رئيس اتحادى كان شخصا مهيبا ، صارما ، قاسيا فى معاملاته ، ضاريا فى عدااته لخصومه حتى أنه صفى الكثيرين خنقا بيديه ، كان كثيف اللحية ، عظيم الشارب ، محبا للنساء ، مكثرا من أكل العصافير المحشوة بالفسق ، ونوع صغير من السمك لا يعيش إلا فى المياه النقية جدا المتوافرة فى برك طبيعية فوق مرتفعات جبلية شاهقة فى أمريكا الجنوبية .

فى المتحف القومى لوحات عدة تسجل ملامحه فى مراحل عمره المختلفة منذ بدء ظهوره فى حياة البلاد السياسية . وضعت عشرات الكتب فى سيرته ، وأعماله ، ومعاركه ، تطرق بعضها إلى أدق شئونه ، حتى ذكر أحدهم أن التحاليل العلمية التى أجريت على ثلاث شعيرات من رأسه فى مختبرات كلية العلوم أثبتت اختلال غدده وضعفه ، أما ما أشيع حول فحولته فالغرض منه

أعضاء الهيئة . أمتعض رجال البلدية ، واعتبروا ذلك محاولة لتشويه التاريخ القومى للبلاد ، همس البعض بوجود صلة بين ما أعلن والدوائر الذهبية . بدأ الأمر عندما أصر على اضافة رموز الدولة إلى المؤسسات الاقليمية حتى لو تمتع بعضها بذيوع الصيت ، وسمعة دولية ، اختار بنفسه هذه الدائرة الذهبية على أن تتوسط العلم ، ويوضع ثلاث منها على عباءة رئيس الجامعة .

رئيس الجامعة كان عالما ، متمكنا ، راسخا ، قوى الحضور ، موفور النظر . تجاوز التسعين بذهن لم يهن ، ومهابة ، أمضى فى منصبه العلمى أربعين سنة متصلة ، لم يفارق خلالها أسوار المنطقة الجامعية ، لكم دعى إلى مؤتمرات ، إلى احتفالات ، ومناسبات ، لكنه لم يستجب قط ، سعى إليه القصاد وأصحاب المسائل من كل فج .

عندما بلغه القرار ، أطرق مقدار ساعة ، ثم قام إلى مقر خلوته واحتجب يومين ، لم يره أحد ، لم يقابل إنسانا ، ثم خرج معلنا دعوة المجلس الأعلى ، المكون من عمداء الكليات والاساتذة المتخصصين وأقدم خريج محلى على قيد الحياة .

قال باختصار دال . أنه لن يسمح أبدا باضافة هذه الدوائر ما دام حيا ، سابقة خطيرة لو مرت ستفقد الجامعة استقلاليتها . ستهدر تقاليد عريقة أفنى خيرة أبناء الجامعة أعمارهم للحفاظ عليها وتأصيلها . والعبور بها من زمن إلى زمن .

جرى الاجتماع فى حال شديد من التأثير ، حتى أن بعض الحاضرين ذرف دمعا ، طبعاً كل ما دار فيه بلغ رئيس الدولة ، تعاظم غضبه ، أرسى العزم وأكد التصميم . قال إن اضافة هذه الدائرة قرار سيادى ، لم يصدره

للمناقشة ، انما للتنفيذ ، وإذا لم تقع الاستجابة سيغلقها إلى الأبد ، .. نعم ،
سيوقف أعمال الجامعة تماما ، ولو هب العالم كله ضده . سيحول مقاراتها
إلى متاجر لببيع الأقمشة ، والأطعمة الطازجة ، بعض ممن يحيطون به
وعرفوا بالقدرة على مناقشته أشاروا عليه بتجنب الصدام والسعى بالحيلة .
أما الاجراءات العنيفة فستضر الدولة الجديدة .. ولا داعى !.

من هنا بدأ الدهاء سعيهم .

كان في المجلس الأعلى أستاذ مشهور في عالم المنطق الأرسطى ، عنده
شهرة ، ولأمرة زيوع ، تجاوز السبعين بعامين ، وعنده تطلع إلى المنصب
الرئاسى ، مضمحل لغيرة قصوى ، وقلق عصبى ، يخشى أن تدركه المنية قبل
أدراج اسمه بين من تولوا أمور الجامعة والذين تصطف اللوحات الزيتية
مبرزة ملامحهم في القاعة الرئيسية ، تلك عادة قديمة مرعية ، من مراسيم
التنصيب رسم لوحة زيتية تعلق في اطار خشبى قائم يخلو من الزخارف .

كان هو المرشح الأول ، صحيح أن ثمة انتخابات تجرى ، لها طقوس
وأصول مرعية ، غير أنها شكلية طبقا للعرف ، دائما هناك شبه اتفاق غير
معلن حول شخص بعينه .

صحيح أن الرئيس معمر ، طاعن في السن ، لكنه يبدو صحيح البنية ، غير
ذى علة ، يتبع نظاما غذائيا غريبا ، إذ يتناول في افطاره ، حبة ثوم ، ونصف
كيلو بصل مشوى ، وفي الغذاء طبق خضار مسلوقا ، وفي العشاء كويا من
عصير التوت البرى ، لا يقرب اللحم ، أو البيض ، أى شىء حى يمت إلى البر
أو البحر ، يغطى رأسه بطاقيّة من صوف الغنم المغزول يدويا ، ويتمدد فوق
لوح خشبى مغطى بملاءة رقيقة ، ثم يروح في سبات عميق لا يوقظه منه
قرع الطبول ، في الصباح الباكر وبعد أطلالة قرص الشمس يرى في الحقائق

الفسيحة المحيطة ماشيا لمدة ساعة ، الدلائل تشير إلى عنفوانه ، وأنه سيتجاوز المائة ، أنه الشقيق الاصغر لسبعة ذكور عاش أقلهم مائة وعشرين سنة .

متى سيعلو أستاذ المنطق الأرسطي كرسى الاستاذية اذن ؟. أنه معتل ، نحيف ، رقيق البنية ، غير قادر على مضاجعة امرأة منذ ثلاثين عاما ، كان في ضيق ، ولم يخف ذلك أحيانا . غير أن البعض يذكرون أسبابا أخرى ربما تبدو موضوعية . ذلك أن رئيس الجامعة كان منتميا إلى أساتذة العلوم العملية . وهؤلاء يشغلون المنصب الرئاسى منذ قرن ، أدى ذلك إلى تدمير خفى بين أساتذة العلوم النظرية . هؤلاء يعتبرون أنفسهم أجدر ، ولهم حجج شتى ، منها أن الجامعة بدأت بالكليات النظرية ، المعهد الدينى ، ثم الفلسفى ، ثم الأدبى وتحولت المعاهد إلى كليات ، أما كلية الفلك فالنقاش حولها لم يحسم ، عملية أو نظرية ؟. أما التاريخ الرسمى فيعتبر الطب أول كلية عملية . من حججهم أيضا أن تخصصاتهم تسمح لهم باتقان فنون الادارة ، لكنهم هم أنفسهم كانوا على خلاف فيما بينهم ، ذلك أن شقاقا قديما بين كليات الفلسفة والآداب والتاريخ من ناحية ، وبين كليات العلوم السياسية والادارية والتجارية . . والأسباب عديدة ، لكنها لم تصل درجة الحدة قط ، حتى الخلاف بين النظريين والعلميين ، ذلك أن الصراع الأعم بين البلدية والجامعة .

المهم .. جرى اتصال ما ، غير معروف حتى الآن . بين أستاذ المنطق الأرسطى وبين رئيس الدولة الاتحادية . تم خفية طبعا ، ولم يعرف أحد ماذا جرى فيه ؟ ثم تفجر الموضوع أثناء الاجتماع الشهرى الموسع . فيه يتناول الاساتذة العشاء معا مع طقوس معينة ، قديمة ، يتم تقديم أنواع معينة من

الطعام مطهية في أوان فخارية قديمة ، مع أصناف من النبيذ المحلى غير الموجودة خارج الجامعة ، عن البدء في تناول كل طبق تتلى فقرات من نصوص أدبية مجهولة المؤلف ، بعد تناولهم العشاء يطرقون في أحاديثهم موضوعات شتى .

أبدى أستاذ المنطق الارسطى وجهة نظر تهون من اضافة الدوائر الذهبية الثلاث إلى العبادة الرثاسية ، التفت الحاضرون ليروا وقع الكلمات غير المنتظرة ، رأوا رئيسهم الصارم مرهوب الجانب يتطلع إلى نقطة غير محددة بعينين زجاجيتين .

استمر أستاذ المنطق مشيرا إلى لا معقولية تعريض وجود الجامعة واستقلالها للخطر مقابل ثلاث دوائر وهمية ، توقف منتظرا رد الفعل ، إلا أن الصمت الغريب ، المريب ، استمر ، عندئذ قال باختصار أنه لا يرى ضررا في اضافتها ، ثم قال ، يجب الافلات من أسر الماضى المندثر .

احتدم النقاش ، طق الخلاف ، علت الأصوات في اجتماع لم تكن تسمع فيه إلا همسا ، العجيب .. أن الرئيس لم يفه حرفا ، أنما بقى قابعا في مقعده عند مقدمة المائدة البيضاوية ، الشهيرة ، والتي ظهرت في العديد من لوحات فنانى المرحلة الكلاسيكية .

يذكر أحد الأساتذة أن صمته بدأ لحظة اثاره الموضوع . لم يسمع صوته فيما تلا ذلك ، أرجعوا ذلك إلى صدمة ماحقة نزلت به ، لم يتوقع أن يسفر الشقاق كما جرى هذه الليلة ، هو من اعتاد تسيير الأمور بإشارات من ملامحه أو نظراته بدون لفظ . قال آخرون أنه أدرك بوضوح ادبار أمره ، وأن ما كان لن يكون ، لذا لم يتحمل فسكت ، ولما طال صمته ونظره إلى نقطة غير محددة ، وشرد بوجوده الحسى ، فلم يعد يره أحد ، اجتمع المجلس الأعلى

وعزله ، تفاصيل ما جرى مبهمة ، ترد في مصادر الجامعة من خلال عبارات عامة ، بشكل ما ، كان الأمر مثيرا للخلج ، فلم تحدث اقالة قسرية إلا مرة واحدة منذ خمسة قرون ، وتفصيل ذلك مثير .

إذ تولى أمور الجامعة عالم كبير بمقاييس عصره ، اشتهر أمره في علم الفلك ، والأرصاد وتحديد الأنواء ، له معرفة بفن الخط وبعض آثاره موجودة الآن في القبو ، وله في هذا المجال تفانين عجيبة ، منها أنه كتب أعمال شكسبير كاملة على حبة أرز ، وخط الكتاب المقدس على بيضة حمامة مفرغة ، كان خبيرا بأنواع السفن ، وطرق بنائها ، هاويا لصناعة نماذج دقيقة تثير الإعجاب ، مع أن المدينة في منطقة شبه جبلية ، والبحر ناء ، بعيد ، لم يفارقه حلم الرحيل يوما ، أتقن حرفا عديدة مارسها في فراغه ، منها نجارة الخراط ، والتطعيم بأنواعه ، الفضة بالذهب ، والنحاس بالفضة ، والخشب بالعاج ، ونقش الفولاذ .

ومن آثاره المعروضة بالمتحف الصغير ، قفل بدون مفتاح ، يغلّق ويفك وفقا لحركات معينة ، وعد هذا من الأعاجيب في وقته ، عرف بقوة ذاكرته ، إذا قرأ كتابا حفظه ، وإذا سمع قصيدة شعر مرة تلاها ولو بعد عشر سنوات ، يذكر الملامح وأن التقى بصاحبها بسرعة . كما اشتهر بقدرته الفائقة على اجراء العمليات الحسابية بما فيها أعقد عمليات الضرب والجمع والقسمة شفويا دون استخدام قلم .

في السادسة عشرة قام بشرح كتاب « الجديد في الحكمة » لابن كمونه في عشر مجلدات ، ترجم إلى عشر لغات منها الأوردية ، ثم وضع شرحا للشرح في خمسة عشر مجلدا لكنه لم يطبع ولم يترجم . ويقال أنه عقد العزم على اعداد شرح لشرح الشرح ، وضع خطته بالفعل . والأصول لا تزال محفوظة ، لكن لم يمتد به الوقت ، بعد أن جرى له ما سنذكره .

من آثاره أيضا قاموس للغة الاكدية القديمة ، لم يستعن بمراجع واحد أثناء اعداده . بوبه وقسمه وصنفه ورتبه من الذاكرة . هذا قاموس لم يظهر قبله ولا بعده ، ومازال مرجعا لا قرين له ، أتقن من اللغات القديمة ستة عشرة منها الاشورية والحميرية والسريانية القديمة ، والمسمارية ، كما برع في علم الطب ، وتوصل إلى معرفة مسار الدورة الدموية في الأذن الوسطى ، كما وضع تبسيطا لكتاب الحسن بن الهيثم « المناظر » والذي قام فيه العالم العربى القديم بتشريح العين الإنسانية . ورسم مكوناتها ، ومسار الدماء داخلها ، تؤكد المصادر أنه كان على وشك التوصل إلى تحليل التركيب الطيفى لألوان قوس قزح خلال الدقائق الخمس الأولى بعد نزول المطر مباشرة ، لكن ما جرى أعاق هذا كله ، ودفع البعض إلى التشكيك فيما تركه من آثار متنوعة، مختلفة، طرقت كل علم . وأحاطت بشتى الفنون .

لا تزال سيرته تدرس حتى الآن لطلاب الصفوف الأولى وتعد مثالا لما يجب أن يحتذى به الساعون كل مراتب العلم المختلفة ، وتركز على مرحلة التكوين خاصة التى يشرح فيها كيف بدأ تحصيله العلم فى سن مبكرة ، واستيعابه العلوم المختلفة ، وشعوره الحاد بضيق الوقت ، وقصر العمر عن المطلوب ، وشح الزمن ، مما دفعه إلى عمل متصل لمدة أربع وعشرين ساعة أحيانا ، ولجوئه إلى صب الماء البارد فى أيام الشتاء عندما يوشك أن يدركه الوبس.

فى فتوته لم تتجاوز ساعات نومه ثلاث ساعات ، بعد العشرين.. أربع ساعات ، وبعد الأربعين.. خمسا ، إلا أنه بعد الستين عرف الأرق ، حتى بلغ به الأمر أنه لشدة تعب أحيانا لا يمكنه النوم !.

يبدو أنه انعدام الوبس مع تقدم العمر وضعف البنية الفاعلة ، وأسباب

شتى ، أوصله هذا كله إلى ظهور أعراض تجاهلتها السيرة الرسمية المقررة ، لكن تشير إليها حوليات البلدية والتي تضم تراجم عديدة لأساتذة الجامعة باعتبارهم من مواطنى المدينة ، وبالطبع مغايرة تماما لما تذكره المصادر الجامعية .

بدأ الأمر بشرود مستمر ، متصل . خلال ساعات الدرس ، ثم ضحكه المفاجئ فى مواقف الصلاة ، ثم تغير مشيته الوقور ، محددة الخطى ، وتنثنيه وتميله عند اجتيازه الفناء الرئيسى ، ثم محاولته التلصص ليلا على بيوت المدينة ، والتسلل إلى حمام النساء الجماعى نهارا ، فى الليل يخصص للرجال ، أعتبر من مفاخر البلدية وانجازاتها الهامة وقتئذ ، أحد أساتذة الجامعة ، بكلية الهندسة قال إنه لولا أسهام الجامعة فى بنائه لما ظهر على خريطة المدينة .

تخفى فى ثياب النساء ، دخل نهارا ، ثم خلع ما يرتديه وراح يجرى وراءهن مثيرا الذعر ، طبعا .. رويت هذه الواقعة بصيغ شتى ، واعتبرت من أسوأ المحن ، حتى أن وفدا من كبار الأساتذة توجه إلى البلدية واجتمع برئيسها لمدة سبع ساعات ، تم الاتفاق على بقاء عدد من التفاصيل سرا على أساس أن شيوعها سوف ينال من سمعة الجامعة ، وربما أدى هذا إلى توقف مجيء الطلاب الأثرياء من الدول الأخرى ، وهؤلاء يحدثون رواجاً فى المدينة ، أن اتفاقا تم التوصل إليه ، لكن .. بقيت تفاصيله غامضة .

المهم .. تم عزل رئيس الجامعة لأول مرة وهو على قيد الحياة ، حبسوه فى بناء قديم مهجور ، لا يعرف أحد من شيدته ، أو أقام به ، ولا تزال آثار من جدرانها باقية ، إذ أقيم مكانه المستشفى الجامعى الذى بدأ نشاطه منذ القرن السابع عشر . ومازال محور خلاف أساسى ، فالبلدية تطالب بالاشراف

عليه لغموض ما يجرى داخله ، وهذا أمر يطول شرحه ، الجامعة تؤكد تبعيته المطلقة لكلية الطب التي لا يتوقف أساتذتها عن إجراء الأبحاث والتجارب .

ان قرونا خمسة مرت على عزل رئيس الجامعة ، رغم طول الحقبة فإن الاستفسار حول مرضه مما يثير ضيق الأساتذة حتى الآن . أنها السابقة الوحيدة قبل عزل الرئيس العجوز الذي لم يحتمل امتداد العمر به حتى يرى بعينه أضافة الدوائر الثلاث إلى العبادة الرئاسية ، اعتزل بغرفته ، ولم يخرج منها إلا محمولا ، هامدا .

حكايته تروى الآن لأفواج السائحين ، أحيانا يبتسم البعض عندما يصغى إلى تفاصيل الأمر ، ولكنه عندما ألم به تساءل ، من قال على مسمع منه ذات يوم بعيد أن الموت قرار داخلي ؟ وأن الإنسان يقرر في لحظة معينة من مسيرته البشرية ، لكن تختلف المدة ، يبدأ الاحتضار عند البعض في الثلاثين ولا يكتمل إلا بعد السبعين أو الثمانين ، البعض يمضى فجأة إذا وقع خلل بعالمه ، لكن المفروغ منه ، المقطوع به ، أن لكل أجل كتاب ، ولكل عمر مقدار مجهول ، لا يزيد أو ينقص عما هو مقدر .

ما جرى لرئيس الجامعة بسبب اضافة الدوائر الثلاث ذكره بصاحب المقهى القديم ، المشهور في مدينته ، وكيف قضى ؟ . تعجب للتشابه بين العناصر مع تباعد الأمكنة واختلاف الأزمنة ، ولا بأس من ذكر الأمر لانشغاله به ، واستعداده له ، وتأمله فيه ، إذ أمضى في زواياه أوقاتا عندما أدركه مكتملا قبل نقصانه ، عندما أقام سنين عدة على مقربة ، لكم حن إلى استعادة ولو إلى لحظات دقائق من توهج مشاعر أو ترقرق صفو ، أو طيب مزاج بصحبة آخرين أحبهم وأحبه ، ثم ولى عنهم وتباعدوا عنه لأسباب .

لكم حن وهفا مع اكتمال ادراكه أن ما فات لن يعود ، وما مضى لن يرجع ، أحيانا اذ يستعيد لحظات حميميته يتعجب ، يتساءل . أحقا كانت ؟ .
أحقا اجتزتها بجسدى هذا ؟ هل يمت حضورى المحسوس الآن إلى ما كان منى ؟ .

تبدو أزمنته المستعادة بالمخيلة كأنها تخص غيره ، لكنها تلح عليه ، تتكأأ على ذاكرته ، وتلغ في الأوردة المؤدية إلى غرارة قلبه خاصة عند اغترابه ، وسعيه إلى ديار بعيدة عن أصل نشأته ، حيث تقل الصحة أو تنعدم الرفقة ، فيسعى ولا يستقر ، يمضى ولا يقيم إلا فيما لم يعد موجودا .

المقهى وصاحبه ...

.. اختلف عامة الناس والمتخصصون في عمره ، قدره البعض بمائتين ، وزاد آخرون قرنا كاملا ، وأثبت أجنب أنه كان قائما زمن الحملة الفرنسية ، ثمة لوحة تصور جانبا منه في كتاب وصف مصر ، الذى أعده علماء الحملة عن البلاد وما تحوى ، وأن بونابرت زاره واحتسى مشروب الحلبة وأبدى إعجابه بنكهته .

فيما بعد اشتهر المقهى بالشاي الأخضر المعطر بالنعناع ، وهذا من عناصر الحنين القوية عند صاحبنا خلال اغترابه ، مهما اختلفت المدة ، طالت أو قصرت ، بمجرد عودته ، يمشى إلى ركنه الذى اعتاد الجلوس فيه ، يبادر إلى احتساء كوب أو اثنين ، ليس مقصودا لذاته ، انما سعيا إلى ما يثيره التوحد من استدعاء للحظات مندثرة ، وأخرى لا تزال في رحم الغيب ، تهدئة لاتقاد الجذوة ، ودرءا لعصف الحنين . كثيرا ما ردد : أنه مأوى وليس مقهى . موقعه في الحى القديم ، القادمون إلى أضرحة الأولياء الصالحين يقصدونه ، خاصة يوم الجمعة ، منهم أهل الريف ، كذا طلبة العلم وشيوخهم ، هذا اليوم بالذات يصعب وجود مقعد خال حتى ما قبل المغيب .

أزمنة شتى تتابع ، كل منها ترك بقايا أو أودع آثارا علقت بالجدران ، أو رصت فوق الأرفف ، أو تدلت من السقف ، فمن ذلك المرايا الضخمة ،

بلجيكية المصدر ذات الأطر المدججة بزخارف أغريقية ، أهداها أمير من العائلة المالكة في نهاية القرن ، اعتاد تدخين النرجيلة في مقصورة خصصت له ، نهاية الممر ، قرب الزهور الصناعية التى أطلعت عليها . وتوقفت أمامها الامبراطورة أوجينى، عندما ثقل جسد الأمير . وقلت حركته ، ذهب المعلم الكبير إلى قصره المطل على النيل لاعدادها له ، يوميا يجيء خادم حبشى يقود عربية ذات جوادين أصيلين ، مرة في الصباح ، ومرة قبل العشاء ، يصحب المعلم الذى يمضى مباشرة إلى الحجرة الخاصة ، حيث يوقد الجمرات ، ويضبط التمباك ، ثم يشعل الدخان بأنفاسه القوية حتى تسلس ولا ترهق الأمير ، كانا في البداية يتبادلان كلمات قليلة ، ثم طالت خلوتهما ، وحدثه الأمير عن أدق شئونه ، وأفضى بأسرار جمّة ، يقال أن المعلم الكبير كان يخشى مجرد التفكير فيها ، فما البال بترديدها أو الافصاح عنها ، حتى بعد دخول الأمير مرض الموت ، ورحيله ، يتعلق الأمر بدقائق ، بعضها يخص أميرات من العائلة ، لم يفرض قط .

في المقهى أوان خزفية من صنع تركيا ، وبلدان أواسط آسيا ، وسيوف أغمدت منذ أزمنة طويلة ، وقوارير عطور نادرة من زجاج ملون . وسجادة صغيرة من حرير ، عليها رسم مشكاة تطل منها زهور ، صنعت في هيرات ، أهداها ملك الأفغان المنفى قبل عودته إلى بلاده منتصرا ، علفت إلى الجدار بحيث تعلو المكان الذى اعتاد صاحب المقهى الجلوس فيه ، ولم يغيره منذ ستين سنة ، وقطع خشب مخروط توقف صنعها لبطلان اليد العاملة التى كانت تبدعها وتسويها ، فمن ذلك دولا ب صغير يعلق إلى الجدار ، تتخلله زوايا صغيرة من العاج ، وأرفف من خشب أشجار ذى رائحة لا تنفذ ، قوية ، تعبق فراغ المقهى كله خاصة في صباح الايام الشتوية المشمسة ، تنبعث

هادثة ، راسخة ، تغطي على سائر الروائح ، حتى التبناك المحترق على مهل
بجمرات الفحم ، تبعث راحة وترسل خدرا ، العجيب أن هذه الرائحة اختفت
تماما من الخشب بعد رحيل ابن المعلم الكبير ، آخر ملاك المقهى ، ولم يفسر
أحد سر ذلك .

احتوى المقهى أيضا على أوان نحاسية منقوشة بالزخرف الدقيق ،
بعضها صنع لاحتواء الماء ، أو لترص فوقه الأكواب والأواني ، ومن ذلك
صينية منقوشة ، زخارفها مورقة ، متفرعة ، متداخلة ، تتغير مع حركة
الناظر ، فيصبح المثلث دائرة ، والخط المجرد مورقا ، والنجمة هلالا ، حدث
الزخارف بخيوط الفضة المسوسة بالذهب ، وعدها البعض من العجائب ،
هذه الصينية آخر ما أنجزه واحد من قدامى الصنااع اشتهر أمره ، لم يكن
يعمل إلا قبل غروب الشمس بساعتين ، وبمجرد غوص قرصها عند الأفق
يتوقف أيا كان الوضع الذى يعمل فيه ، حتى اعتبر بعض معارفه والمحيطين
به توقف يده عن طرق المسطح النحاسى أو المعدنى علامة على تمام
الغروب ، خاصة فى رمضان ، لم يكن يعمل وفقا لتصميمات مسبقة ، إنما
كان ينحنى محملا فى الفراغ ثم يبدأ النقش ، مستخدما أدوات معدنية ،
مدببة بعضها غليظ كالمطارق ، وآخر نحيل كالابر ، من بين أصابعه تتخلق
النقوش ، لا يجور شكل على آخر ، لم تخرج من بين يديه قطعتان
متشابهتان ، قلده بعض صغار الصنااع ونقلوا عنه ، لكنه لم ينسخ ذاته قط ،
مات عن أربع وثمانين سنة . مال رأسه فوق هذه الصينية التى علقت زمنا
طويلا فى صدارة المقصورة الرئيسية بالمقهى ، بعد انتهائه من حفر آخر
نقطة أغلقت الدائرة الوسطى التى تتفرع منها الخطوط والأشكال . ظنه
البعض نائما ، وعندما حددوه وجدوا صعوبة فى فك أصابعه عن المطرقة
الصغيرة والأزميل ، حتى أنه دفن بهما .

احتوى المقهى على ستائر نادرة من الخرز الملون ، صغير الحجم كحبات الذرة ، تتخلله فصوص من مرجان البحر الهندي الأعظم ، تنسدل على فراغات المقصورات المتجاورة على جانبي الممر الرئيسي ، فتحجب وتشى في عين اللحظة ، هذه الستائر أهداها طالب علم من جزر القمر درس في الأزهر سبع سنوات قبل عودته إلى بلاده ، واعتاد القدوم بعد صلاة الفجر مباشرة والجلوس صامتا مقدار ساعة داخل المقاصير ، صفت نراجيل عتيقة ، متنوعة الطرز ، أما التي اعتز بها صاحب المقهى ، وحنا عليها ، وأكثر من عنايته بها ، وترفق بوضعها ، فكانت تخص في الأصل السلطان أحمد العثماني ، خاتمه وطرة توقيعه على زجاجها الأزرق ، الشفاف ، الرقيق ، كيف وجدت طريقها إلى هنا ؟ . هذا ما لا يعرفه أحد .

حدث أقدم العمال — رحمه الله رحمة واسعة ، إذ كان غندورا ، طيب المظهر ، رائق المزاج ، قوى الاهتمام بزيائن المقهى ، قال إن الحاج إذا طرب أو انتشى أو مر بلحظات صفو ، يأمر بأعداد هذه النرجيلة ، يضعها أمامه ، يتأمل صور السلطان المرسومة على الوعاء الزجاجي ، وتوقيعه ، يهز رأسه هزتين قصيرتين موجزتين ، متتابعتين ، يعرف الأقربون أنه يمر بذرا صفوه وخلوته مع ذاته ودنوه الأقصى من لب راحته الإنسانية .

أغرب ما يروى عنه ، ما يتعلق بغرفة الزهور والامبراطورة أوجيني ، في نهاية الممر حجرة جدارها زجاجي . الناظر داخلها يرى ورود الدنيا كلها ، المعروفة في مصر ، وفي أقصى المعمورة . عندما جاءت الامبراطورة أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ، زارت المنطقة القديمة وأثناء تفقدها المآذن العتيقة والجدران الزمنية للمباني القادمة من عصور بعيدة ، توعكت قليلا ، وشحب لونها ، رفعت يدها إلى جبهتها ، لم يكن هناك مكان مناسب إلا

المقهى القريب . طبعاً سبقها رجال القصر لتنظيفه وتهيئته والتأكد من ابتعاد الشحاذين والدجالين والفضوليين ، اقترح أحدهم على الحاج أحضار أطقم الشاي والقهوة من القصر ، كذا الأكواب الزجاجية الملونة التى لا تخرج من الخزائن إلا فى المناسبات الكبرى ، مثل مولد النبى ، وعيد الجلوس ، أو الحفلات التى تقام للملوك . لكنه أبى ، وقال صراحة أن بعض ما عنده لا يوجد فى القصر .

وقف عند رأس الطريق القصير المؤدى من الميدان إلى المقهى ، وبالتحديد أمام المطعم الايرانى الذى أغلق بسرعة وسدت منافذه لدواع أمنية وخوفا من نفور الامبراطورية أو غثيانها إذا استنشقت روائح الثقيلة والمرق ، ربما أزعجها ما لم تعتد عليه ، كان المعلم ، شاباً فى العشرين ، كان طويلاً ، له مهابة ، غليظ الرقبة ، ضخم الشارب ، ورث عن والده حبه وشربه للأكل والزكاح ، فى هذه السن المبكرة كان يلقب بالألفى ، لأنه ضاجع منذ بلوغه الف امرأة ، زاد عليهن فيما بعد ، لكنه ظل يعرف بذلك ، وأمر فحولته معروف ، وله أطوار غريبة تروى أمرها شائع .

لحظة لقائه بها بدا ثابتاً ، راسخاً ، قسماتها هى التى اختلجت مسفرة عن رغبة أنثى ، وعندما مد ذراعه لتتكئ عليها طبقاً لنصيحة باشا كبير سبق الركب وأطلعه على السلوك الواجب اتباعه وحذره مغبة التقصير . برغم ذلك عند وصولهما إلى المدخل انفصل عنها ، فرد يده داعياً للدخول ، ثم تقدمها كما اعتاد رجال الفترة عندما يصحبون زوجاتهم ، لوحظ أنها أفسحت الخطى حتى تلحق به ، وطوال جلوسها بالمقصورة لم ترفع نظرها عنه ، حتى زعم البعض أنها قضت غلمتها بالبصر ، بعد دقائق من الراحة ، وقفت ، مشيت فى الممر متعجبة مما تراه ، آهاتها تخفى نشوة أخرى ، يجمع الكل على

تعجبها مما رآته من أزهار في الغرفة الزجاجية ، فل و نرجس وشقائق نعمان ، ولوتس وياسمين ، وأنواع أخرى لم ترها ، تعجبت وتطلعت ، أخبرها من له دراية ممن كانوا برفقتها أن بعض هذه الأنواع لا ينبت إلا في الصين ، أو في قمم الجبال النائية .

لدقائق استمر المعلم يتطلع إليهم هادئا ، مبتسما ، غير عابئ بجمال السيدة التي استضافها ملك بلاده وشيد من أجلها القصور واليخوت سعيا وتقربا ، حتى قيل أنه أشرف بنفسه على رصف طريق ستمر به عربتهما ، بحيث يميل الارتفاع بمقدار معين فتضطر طبقا لموضع جلوسها المدبر إلى الاتكاء عليه ، هكذا يدنو ويلامس ، لعل وعسى !.

تطلع المرافقون ، أبدوا الدهشة ، كيف تنمو الزهور في هذا الحيز الضيق ، ما الذي يجمع ورود الشتاء مع الصيف ؟ . بعد أن هدا الكل ، تقدم المعلم ، فتح الباب والتفت إلى الامبراطورة وعندما هم كبير حاشيتها منعه من اجتياز العتبة ، أغلق الباب ، رآه الواقفون ، يشير إلى الأزهار ، مومئا ، مفسرا ، شارحا ، لا يدري أحد أى لغة نطق ، قال إن هذا كله مصنوع من خيوط الحرير الدقيقة التي لا يمكن رؤيتها متفرقة ، نسجت وصيغت بمهارة ، أعتى خبراء الزهور لا يمكنه اكتشاف حقيقتها إلا بعد اللمس والفحص ، يبدو بعضها مبلولا بالندى ، وما القطيرات إلا مهارة صانع ، هذا السر لم يبيع به المعلم ولم يفصح عنه إلا للامبراطورة ، لكنه لم ينطق به علنا إلا بعد الغارة العنيفة التي جرت إحدى ليالى الشهر الأول من السنة الثالثة للحرب العظمى ، تسبب انفجار قريب في تدمير الجدار الزجاجى الأمامى الذى توقف عنده خلق من شتى الاجناس والملل ، تعجبوا وتأملوا ، سرعان ما تلاشت الزهور والألوان ، بدأ شحوب ثم ذبول ، ثم تحللت ، عندما اكتشف العمال

ذلك فرزعوإليه ، طالعهم بعينين صامتتين تفيضان أسى لم يفارقه حتى يومه الأخير الذى أوفى به عامه الرابع والعشرين بعد المائة وثلاثة شهور وستة أيام ، هكذا يؤكد العارفون ، خاصة رجلا أكبر منه بعشر سنوات ، قصير القامة ، نحيلها ، عنده دكان خياطة بلدى ، ومازال قادرا على تمرير الخيط الحريرى من سم الابرة ، أكد أنه حضر مولده ، وخاصة يوم السبوع ، أقام والده ليلة ظلت المنطقة تذكرها لسنوات تالية ، كل فقراء الناحية أكلوا طبيخا ولحما وحلوى طيبة وأخذوا كفايتهم لمدة أربعة أو خمسة أيام آخر ، وزع الجنيهاات الذهبية على كل من حضر ، وغنى المطربون ، وأنشد المنشدون ، لا عجب .. أنه الولد الأول بعد ست بنات جئن متعاقبات ، حتى فكر المعلم الكبير فى تصفية المقهى عند شعوره بوهن الكبر ، لم يقدر على تخيل شخص غريب يقعد فى نفس الموضع عند المدخل ، وينفث دخان النرجيلة ، ويدير شئون المكان، لكن ربنا أكرمه ورزقه بغلام ، قدر له أن ينمو ويصبح ذائع السيرة ، مشهور بحسن الخلق ، ورجولة فياضة ، ألم تفتتن به الامبراطورة أو جينى إحدى حسناوات عصرها ؟. اعجابها لهج به رجال القصر وأعضاء السلك الديبلوماسى وقتئذ ، وذكره قنصل إيطاليا فى مذكراته التى نشرت قبل تولي موسوليني السلطة .

بعد انصرافها أبدت رغبتها فى استدعاء المعلم إلى قصر ضيافتها لاعداد الشائى الأخضر المحلى بالسكر النبات ، والمعطر بالنعناع ، وبالفعل .. ركب عربته الخاصة التى يجرها جواد أسود فاحم ذو غرة بيضاء ، أعد لها الشائى وسقاها بيديه ، لكن .. هل خلا بها ؟.

لا يمكن لأحد الجزم بالنفى أو الاثبات . أمر صعب ، طبعا رويت عشرات التفاصيل ، خاض أبناء الحى القديم فى الأمر ، طبعا اختلط الواقعى بالمتخيل،

بعد سبعين سنة جاء ممثل الاذاعة البريطانية ، عرض في البداية عليه شيكا مصرفيا بالعملة الانجليزية ، مقبول الدفع ، على بياض ، مقابل الاجابة على سؤال واحد : عندما مضى إلى القصر ليعد الشاي وخلا بها ، هل نال المعلم ما لم يتمكن منه الخديوى ؟. تطلع المعلم إليه ، أشار بنصف أصبعه أن يقدم ، أن يقترب منه ، فرح الانجليزى ، ظن أنه سيستمع إلى الإجابة ، أشرع جهاز التسجيل ، وعندما دنا متأهبا للجلوس على مقربة ، فوجئ بالمعلم يمسكه من ياقته ، يهزه ثلاث مرات ، ثم يرفعه في الهواء ويبقيه معلقا بينما الرجل يفرفط برجليه ، لعنه ولعن الاذاعة البريطانية والفضول الذى لا يرحم الحى أو الميت ، ثم قال بصوت سمعه الجميع أنه لو رأى الانجليزى مرة أخرى فسيجعل وجهه مطرح قفاه !.

هرب الخواجه ، ويؤكد الحاضرون أنه بال على نفسه . وامتلا رعبا ، غير أن السؤال ظل يتردد ، والإجابات عنه تتنوع ، لزم الصمت فلم يفصح ولم يشف غليلا حتى بعد أن طعن في السن وتداخلت عليه الرؤى ، تهدلت أطرافه . وتثاقلت نظراته ، وصار تحديقه إلى مالا يرى أكثر من نظره إلى المحسوسات ، إلا أنه في أقصى حالات ضعفه كان يوحى ببنيان قوى قام يوما ، لم يعد يفارق موضعه فوق الدكة الخشبية التى حفر عليها تاريخ صنعها قبل قرنين من الزمان ، حتى الايام الاخيرة حافظ على ذهابه إلى الحمام التركى مرة كل أسبوع ، ولم يمنعه الوهن عن قضاء حاجته بدورة المياه الملحقة بالمقهى والتى جددتها وسواها .

في شبابه هابه الجميع ، وخشيه القريب والبعيد ، بمن فيهم ضباط الشرطة الذين تعاقبوا ، أتقن فنون المصارعة ، واللعب بعصاتين في وقت واحد ، واستخدماهما بمهارة عند نشوب قتال ، ذاع أمره في الشقاوة ، وقدرته

على الجماع ، لم تحتمله إلا امرأة حلبية أقامت في بيت منعزل بضاحية عين شمس ، لكنه لم يتزوجها ، رغم اقترانه بعدد غير معروف من النساء ، لكنه لم ينجب منهن ، بعد وفاة والده فجأة وبدون مقدمات تفرغ تماما للمقهى ، اعتنى به وبذل المجهود الأتم ، بعد الطواف والتنقل والجرى هنا وهناك لم يعد يفارق المدخل ، لا صيفا ولا شتاء . من فوق الدكة يدير الأمور بنظراته ، لزم النرجيلة ولزمته ، يقابل الجميع بمودة متحفظة ، مقتضبة وتعبيرات لا تتغير إلا عند قدوم عزيز ، ليس بالضرورة من ذوى الجاه أو الشهرة ، كان يخدم بنفسه الملوك ورؤساء الدول ، وكبار العاملين بالمنظمات الدولية والممثلين ، والمطربين ، والشعراء الكبار والكتاب ، ولا تزال صورته وهو يقدم القهوة ضاحكا إلى الفريق عزيز المصرى معلقة ، لكن صورة جمال عبد الناصر جالسا بصحبة اثنين مجهولين اختفت بعد عام من وفاته ، كان يقوم محبيا من يقدره هو لا غيره ، لم يتحرك عند رؤيته وزراء . وضباط شرطة كبار ، لكنه انتفض مرارا مجرد رؤيته رجلا عجوزا ملتحيا كان يصل في نفس مواعده كل عام ، يجوب الوادى من بلاد النوبة وحتى ساحل البحرين ، الابيض والاحمر ، يزور أضرحة المشايخ ، كبيرهم وصغيرهم ، يقرأ لهم الفاتحة ، ويوقد عند كل منهم شمعة ، ثم يمضى ، كان المعلم يتبرك به ، ويعد له الهدايا قبل قدومه بشهر ، وينتظر موعد ظهوره بلهفة لا تخفى ، وعند انصرافه ينحنى مقبلا يده ويطلب منه البركة ، كان يبدو مسرورا عند الزيارة ، مؤكدا لمن حوله أن والده أوصاه بالرجل الصالح قبل وفاته ، يبدو راضيا ، مرتاحا راحة لا تعرفها قسماته إلا لحظة مناجاته جواده العربى القديم ، امتطى صهوته زمن الشباب ، يقال أنهما ولدا في يوم واحد ، كان يسرجه ، وينظف جسده ، ويطببه ، ويطعمه ، ويسقيه بيده ماء الورد .

وعندما لزم الدكة ، بان عليه التعب ، وقف جواده الأكل ذو الغرة إلى جواره ، لم يربطه ، كان طليقا من كل قيد ، لكنه لا يبتعد ولا يجمع أبدا ، وفي أيام الصيف الحارة يذب عن وجه صاحبه الذباب ، وينحنى ليتشمسه أو ليطمئن عليه ، لا أحد يدري ، يقسم أقدم العمال أنهما يتبادلان الحوار ، كل منهما يفهم الآخر ، أحيانا يومئ ، فيمد الجواد رأسه ، عندئذ يهمس له ، والجواد يهز رأسه أو يهمهم ، أو يطرق حزينا ، أو يرفع قائميه الامامين في حركة زهو ويصهل بصوت مرتفع متدفق حتى ليسمع من بعيد .

احتفظ أيضا بثلاثة أقفاص بها أربع وعشرون فرخ حمام ، عجيب أنه لم يغلق أبوابها قط ، يطير الحمام ويرجع أى وقت ، في الليل يتململ ويسمع هديره وغطيطه ، يحط بجواره ليلقط حبا أو ليرشف قطرات ، عدد الحمام لم ينقص ، ولم يزد طوال أربعين عاما ، إذا طقت بيضة وأطل زغب أخضر ، كان ذلك يعنى قرب أجل حمامة كبيرة ، لا يتأخر الأمر أكثر من يومين ، وربما وقع العكس ، فيسبق الموت الميلاد ، هكذا مضى الأمر ، لم يهتز ولم يختل حتى جرى ما جرى .

ذلك أن رئيس بلدية العاصمة كان جهولا ، غيتا ، نائيا ، قرر إعادة تخطيط الحى القديم وبناء فندق يصلح للسائحين ، اقتضى الأمر إزالة المقهى ، الحق أن الأمر لم يتم بهدوء ، شرع كتاب لهم شأن فى الاشادة بالمقهى ، نبهوا إلى أهميته التاريخية وسرد بعضهم الاحداث التى جرت فيه ، والشخصيات التى عبرت فضاءاته ، بدءا من شيوخ الأزهر الكبار ، وحتى نابليون بونابرت ، والزعماء السان سيمونيين ، ولاظوغلى باشا ، والامبراطورة أوجيني ، وجمال الدين الافغانى ، وطبعا .. الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وغيرهم ، قام بعض محبى المقهى بجمع مئات التوقيعات ،

نجوم فن ، ورياضة ، ورجال قضاء ، وأساتذة أجلاء ، وندامى أنسوا إلى أركان المكان وزواياه وأمضوا مقادير من أوقاتهم . غير أن هذا كله لم يزد رئيس البلدية الا اصرارا وعنادا ، تحدد يوم معين للإخلاء ، وبدء الهدم .

المعلم تابع ما يجرى صامتا من فوق الدكة ، يجيئه المريدون فيهنونون ، ويذكرون احتمال صدور أمر عال بوقف هذا العبث كله ، كان يصغى ولا يهز رأسه ، لا يومئ ، لا يجيب بإشارة ولو واهنة ، وعندما امتنع الجواد الأكل عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام قبل الموعد ، وعندما كمن الحمام في الاقفاس ، كف عن التحليق أو تناول الحب ، وتوارى كل صوت . بدأ ذبول واضح حول عينيهِ ، كان يردد الطرف بين الجواد وأقفاس الحمام ، وترتجف شفثاه بما لم يفهمه أحد ، ولم يدركه الأقربون .

صبيحة اليوم المحدد لرفع أول معول هدم ، ناداه أقدم عمال المقهى فلم يجب ، كان يسند رأسه إلى يده ، متمسدا على جنبه الأيمن ، مشيرا بسبابته ، علامة التوحيد ، فوق الأرض انفرط الجواد ، إذا بانث ضلوعه ، هزل قوامه ، لم ير من قبل إلا واقفا ، متخايلا ، إذا تلمس راحة رفع إحدى قوائمه لحيزات . سقطت حمامتان من القفص الثانى ، أما ما تبقى فاضطروا إلى الصعود على سلم متحرك لاخلائه ، تجمع القوم ، عظم التأسف ، صاح شيخ ضريع ، ضخم البنية ، اعتاد تدخين النرجيلة صباح كل يوم ، أمر الواقفين بستر جثمان الراحل فلموت حرمة ، عندئذ أقدم الكل ، بكى العمال كثيرا ، خاصة عندما عثروا تحت رأسه على لفافة تحوى قماش كفته . وسائر ما يحتاج إليه في رحلته الأخيرة ، توسده مدة طويلة لا يدرى أحد مقدارها ، لم يستطع العيش حتى يتنفس هواء يوم يرتفع فيه معول الهدم .

هكذا وجدوا رئيس الجامعة في غرفته الخاصة ، مرتديا ملابس الرسمية

التي لم يظهر بها إلا عند مناقشة الرسائل العلمية المتقدمة ، والعشاء الطقوسي ، كان ملتحقا بالعبادة الخالية من الدوائر الثلاث ، لم يقدر على الاستمرار حتى يضعها ويراها مرغماً ، دفن بها ، كانت آخر عبادة من الرسم القديم ، كانت معدودة من أجل الشارات . لكن .. لحقها ما يطال كل شيء ..

مسود إلى الأزياء

.. تؤكد وثائق الجامعة أن تصميم الأزياء وتطورها ليس مصادفة، كل جزئية ذات دلالة ومعنى، ترتبط بمرحلة أو حدث معين، الالمام بتاريخها جزء هام جداً يمتحن فيه المتقدمون لشغل مناصب الاستاذية. تماماً كما يجب الالمام بطقوس العشاء الأسبوعي وحفل قبول الطلبة الجدد. والحفل الختامي، وتوديع الخريجين الذين أتموا المدة.

خلال القرنين الأخيرين لم يطرأ أى تغيير يذكر عدا تلك الدوائر التي ظهرت بعد تأسيس الدولة الاتحادية، الألوان ثابتة صيفا، وشتاء. مادة القماش متغيرة، في الصيف من كتان، وفي الشتاء من صوف. الحذاء يغطى الساق، يصنع من الجلد البلغارى. في المدينة بيت اختص بعمل الملابس وتوفير خاماتها، يتوارث الحرفة أبا عن جد أسرة قديمة الأصول، عمل كل أفرادها في الحياكة. احتفظوا بسجلات قديمة فيها مقاسات الاساتذة، والتغيرات التي طرأت على أجسامهم، خاصة عند الانتقال من الشباب إلى الشيخوخة وما يستتبع ذلك من نقص أو بدانة. لكن يبدو أن تفصيل أزياء الجامعة لم يعد يفى بالحاجة، كما أن لوازم القماش أصبحت مرتفعة السعر مما جعل الأزياء خارج المتناول بالنسبة للكثيرين، ثم لحقت الضربة المؤثرة بعد الحرب العالمية، عندما أنشأ أحد رجال البلدية أثر تقاعدة مباشرة

مصنعا لتفصيل الملابس ، بدأ بالطلبة ، ثم تدرج إلى الاساتذة . وبرغم التقاليد الراسخة ، والحدود الفاصلة ، فإن احتياجات الواقع أقوى ، وهذا معروف مجرب في غير عصر . قل الطلب على ما تنتجه الاسرة ، انصرف أفرادها ونسوا المهنة عدا أب عجوز وزوجته وشقيقته الصغرى التى تجاوزت الآن السابعة والسبعين ولم تتزوج ، يقال أنها أحببت في صباها طالبا جامعيًا قدم من الشرق ، ثم استدعى إلى وطنه فجأة واختفى خبره فذهلت عما حولها، حتى أنها تحتفظ الآن بزيه الذى لم يتسلمه في مخدعها ، ويتفق أنه سيرجع يوما ، وأنه لن يخل بوعده لها ، أمرها معروف ، ذائع ، تماما كالصينيين الذين يقيمون منذ عشرات السنين قرب البرج في انتظار طلة أميرهم الشاب ، وسيأتى تفصيل ذلك في موضعه ، المهم .. أنها لا تسترد وعيها إلا عندما تمسك الابرة والخيط ، تصمم حواسها عن كل ما ليس له صلة بعملها ، أصابعها طويلة ، نحيلة ، أن الثلاثة آخر من تبقى للعمل في تفصيل الأزياء ، الإبناء تفرقوا ، الأكبر التحق بالاسطول وأصبح ضابطا يعمل على غواصة . الثالث سافر للعمل حفارا بتروليا في الصحراء الليبية ، أما الابنة وهى الوسطى فتعمل في المستشفى الجامعى ممرضة ، منذ سنوات تعيش بمفردها في الجانب الآخر ولا تزور والديها إلا على مسافات متباعدة .

حرص مجلس الجامعة على تفصيل العباءات الرئاسية عند الاسرة حتى يتوافر ضمان لاستمرارها . ومن الثابت أنه رفض عرضا تقدم به مصمم أزياء باريسى شهير أبدى استعداداه لتصميم زى جديد للطلبة ، وأزياء للأساتذة تساهل التطور . في بداية الخمسينيات وقع تطور هام ، إذ سمح للطلبة بارتداء الأزياء العادية ، لم يعد ممكنا أن يمضى كل شئ كما كان في الماضى ، لكن لم يحدث تعديل بالنسبة لهيئة التدريس ، وحافظ موكب

الافتتاح على خصوصيته ، كذلك احتفال يوم التخرج ، ويوم تقليد أحد الباحثين الشهادة العليا عندما يطلق النفير الجامعي إيذانا بارتداء العباءة العليا . وعندما استخدمت البلدية صور المواكب التقليدية في ملصقاتها السياحية والكتيبات الدعائية ، توقع الكثيرون احتجاجا جامعا قويا ، لكن لم يحدث شيء! المباني لم تتغير .

عندما جال في المدينة ، ومشى متمهلا في شوارعها رأى الواجهات عتيقة ، لكنها مجلوة ، نظيفة ، الزمن القديم يرقد في المداخل الفسيحة ، والزوايا المظلمة ، ولكن كل شيء ذو رونق كأن الفراغ منه تم بالأمس .

وثائق الجامعة تؤكد أن الحفاظ على الطابع يرجع الفضل فيه إلى مهندسى الجامعة ، بينما تفقد البلدية ذلك ، وتؤكد أن الخطط والمشاريع مجرد حبر على ورق بدون بلدية صارمة ، واعية ، يتمتع رجالها بحس تاريخي وثقافي ، وحب عميق للمدينة ، وتشير المصادر دائما إلى الوقفة الحازمة في مواجهة رجل الأعمال القوى ، وإجباره على سحب معداته ، ومن ثم اجهاض مشروعاته ، لو نجح وأقام المباني التى خطط لها لبدأ التشويه في الفراغ السحيق ، أما العمارات التى يدب إليها خلل ، وتوشك على الانهيار ، فيتم الاحتفاظ بواجهاتها أما التصميم الداخلى فمن شأن المالك .

من هنا كانت واجهة الفندق مقسمة إلى ثلاثة طوابق فقط ، أما الداخل فيتكون من ستة ، أمضى وقتا يحاول التوفيق تدريجه الحيرة عندما يتطلع من النافذة إلى الطريق ، عند أى مستوى من الواجهة تقع غرفته ؟ . كيف تبدو الغرفة من الداخل حديثة ؟ النافذة مؤطرة بالمعدن ، من الخارج لا أثر لها .

كثير من الأمور بدا له غامضا ، مستغلقا ، تفاصيل عديدة تكشفت وانجلت عبر حوار أو قراءة أو ادراك كنه العلاقة بين أمر وأمر ، لا يمكنه

أرجاع كل ما وصله إلى أسباب بعينها ، هنا لابد من ذكر ملاحظة ، أنه ما من تفصيلة مهما دقت وردت في هذا التدوين إلا أحاط بها ، وما لم يطلع عليه لم نذكره لأنه خارج الساحة .

أن أموراً لا حصر لها أشارت دهشته منذ وصوله ، لكنه لن ينسى أبداً عجبه عندما اتصل به موظف الاستقبال أثناء تهيئه للرقاد ، أخبره بوصول رسالة عاجلة .

مظروف يحمل اسمه ، حروف عربية منسقة ، مشكولة ، يطلب كاتبها الاتصال به في الرقم الموضح لأمر هامة .. صاحبك المغربي .

لقاء

.. من ؟.

من هو ؟ . لم يلتق به قط ، وسيتناول العشاء عنده بعد قليل ، بالأمس .. أثناء ترتيب أوراقه في مدينته النائية الآن ، لم يفكر في مجرد احتمال تناوله العشاء في بيت يقع هنا ، في شارع لم يطأه . تساءل فقط عن شكل الفندق ، عمن سيلتقى بهم في الرحلة ، من سيصغون إلى بحثه ، إلى ما سيقوله من آراء ؟. عند الشروع في السفر يتوثب للقاء المجهول ، للنظر فيما لم يقف عليه . لكن .. أن تصله رسالة بعد دقائق من وصوله ، في مدينة لا يعرف فيها أحد ، فهذا ما لم يطرأ بذهنه .

كان مرهقا ، لكن عنده تحفز ورغبة ، رؤية ما لم يشهده وما لن تقع عيناه عليه مرة أخرى ، احتمال مجيئه مرة أخرى صاحب ، نادر ، « بعد عشر دقائق ستصل إليك سيارة .. » .

لم يقدر على التعليق بملامح محددة ، الطرقات ضيقة ، اتجاه واحد ، مبلطة بالحجارة ، منحنيات مفاجئة ، أضواء قليلة تشع واهنة من خلف الستائر ، ساحة متسعة نسبيا ، يتفرع منها طريق مرتفع ، تختفى الأقواس الحجرية ، وتسفر المداخل المؤدية ، فوهات غير منتظمة . مؤدية إلى عوالم يجهلها .

عندما توقفت العربية أمام البيت الصغير ، يحده سور خارجى ، يبدو المكان أشبه بضاحية ، يتقدم مضيغه ، صعب تحديد عمره ، لكنه لا يقل عن الثلاثين ، ولا يزيد على الخمسين ، ابتسامة لا تخلو من تكلف .

منفذة بيضاوية من الرخام الملون ، الأخضر غالب ، تتخلله خيوط حمراء ، أول ما وقعت عيناه على زجاجة نبيذ ياقوتية ، بجوارها فتاحة معدنية ذات العمود ملولبة ، محاطة بأطباق من الجبن ، شرائح طماطم ، قواقع بحر ، زيتون أسود .

تجدد عنده طاقة ، ويصدر عنه اقبال . اعتاد شرب النبيذ عند سفره ، زجاجة كبيرة كاملة مع الغذاء ، أخرى مع العشاء ، لكنه بمجرد العودة إلى مستقره يكف فكأنه لم يذقه قط ، يرتبط عنده بالرحيل ، مما رغبه جمع الزجاجات الفارغة للأنواع المختلفة ، لكنه لم يشرع ، شأن أمور أخرى لم تخرج عن دائرة الخواطر ، يضيق بتناوله منفردا ، إلا عند امعانه فى الوحدة ، واىغاله فى شفق كابى ، الوحدة أمر مكروه عند الشراب . بغضه القدماء ، قالوا ، لا يضطر إليه إلا من فقد نديما مساعدا أو خليلا موافقا ، ورأى أن لزوم الانفراد ضرورى للحاجة الإنسانية .

مما ألم به أن المدينة بها نوعان من النبيذ ، الأول جامعى ، ينتج فى المزارع التابعة لكلية الزراعة عند بداية الطريق المؤدى إلى الجنوب ، أوقفها أمير الناحية منذ ستة قرون ، بها شجيرات كروم نادرة تم جلبها فى أزمنة غابرة من بلدان نائية كان الوصول إليها لا يتم إلا بشق الأنفس . يخصص المحصول كله لانتاج النبيذ الذى اشتهر أمره ، يقتصر بيعه على المدينة ، كمية المنتج محدودة ، ثمة أنواع خاصة جدا لا توجد خارج الجامعة ، ما يتناوله الاساتذة فى العشاء الأسبوعى ، هذا أحمر ؛ ثم نبيذ الحفلات الرسمية التى

تقام تكريماً للطلبة الذين أنهوا مراحلهم الدراسية . وهذا أبيض . تشرف كلية الزراعة على مزرعتين ، الأولى تلك الخاصة بالكروم ، والأخرى تجريبية لاختيار محاصيل جديدة ، أو عملية تطعيم نوع بنوع آخر ، ولهم في ذلك أمور عجيبة .

الصنف الثانى تنتجه البلدية ، يؤكد الذواقة أنه أقل جودة ، أشهره الوردى، أما الأبيض فأقل جودة ، يعد ويعبأ فى مصنع حديث ، المسئول عنه من كبار الموظفين ، يتم تسويقه من خلال ادارة المحاصيل ، يتم الاعلان عنه عبر وسائل الاعلام الحديثة ، ويقدم فى الفنادق الكبرى بالمدن الأخرى لكنه لا يرقى إلى مستوى النبيذ الجامعى ، خاصة الأحمر المعقّى فى براميل خشبية قديمة ، لا يمكن العثور عليه إلا فى ثلاثة مطاعم خارج البلاد ، الأول فى باريس . والثانى فى نيويورك ، والثالث فى طوكيو ، مكلف جداً . حتى قيل أن القدوم إلى المدينة لاحتسائه أقل تكلفة من قيمة وجبة فى أحد هذه المطاعم !.

إليه تمت هذه الزجاجة الماثلة ، القائمة . أنه ناعم المذاق ، لطيف الحضور ، بطيء التأثير ، خافت السريان ، باعث على الميل . قال المغربى إنه خشى امتناعه عن الشرب ، يبدو مسروراً بعد صب السائل الياقوتى ، اتحاد الزجاج باللون ، رفع كأسه . تتلامس الحافتان ، أقبل مبتهجا .. لكنه لم يطلعه على خصيصته ، ارتباط شرب النبيذ عنده بالسفر ، بالاغتراب .

بيت ينبئ بيسر أحوال ومقدرة . لم تطل حيرته أو تساؤله عن أسباب الدعوة غير المرتقبة . قال المغربى إنه اطلع على أسماء المدعوين إلى الاحتفال فى الجريدة الناطقة باسم الحزب الراديكالى المساند للجامعة ، اتصل بعدد من المسئولين ، عرف موعد وصوله ، ومكان اقامته ، حرص على مقابلته فى اللحظات الأولى ، لم يتمكن من انتظاره فى محطة القطار ، كما أنه خشى رد

فعل لا يمكنه التنبؤ به لانعدام العلاقة ، اضافة إلى اعتبارات أخرى سيوضحها فيما بعد ، تحدث عن اقامته منذ عشرين عاما . جاء إلى هنا مجردا ، تقلب في أعمال شتى . مر بأطوار عديدة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، يدير مؤسسة تمتلك عدة شركات تعمل كلها خارج البلاد ، أحب المدينة لأسباب شتى ، أهمها تفردا وخصوصيتها .

« أنت ضيف على الجامعة ، وستمضى هنا أسبوعا .. » .

يومي .

« طوال اقامتك بيتي بيتك ، أننى أعيش هنا .

بمفردي ، ابنتى تدرس في الجنوب وامراتى مقيمة في الشمال .. »

ما يقوله تمهيد لشيء آخر يتأهب لذكره . يميل حتى يوشك أن يلامسه :

« هذه المدينة تعيش صراعا قديما ، يخبو ويظهر .

لكنه الآن يمر بمرحلة حساسة ، لذا وجب الانتباه »

قال إن الخلاف بين الجامعة والبلدية أمره قديم ، غائر الجذور ، ربما لا

يشعر به الغريب ، العابر ، لكن يمكن أن يقع فيه رغم ارادته ، خلاف موجود

في تفاصيل الحياة اليومية ، يعيشه الجامعيون ، وسكان المدينة أيضا .

« أنت الآن طرف ، ألم تحضر للمشاركة في احتفال بمناسبة مرور تسعة

قرون على تأسيس الجامعة ؟ »

وصل تأثير الشراب الياقوتى إلى الأطراف الحدودية ، توشك حواسه

ادراك أطراف غير مرئية منبعثة من الحشائش القصيرة ، والشجيرات

المتوارية في الليل ، والزهور المنطوية ، يكاد أن يتلاءم مع الموجودات ، لكن

شيئا ما في حضور المغربى ، ومسا خفيا في لهجته ينمى عنده قلقا .

« جوهر الصدع ، أيهما الأسبق ، الجامعة أو المدينة ؟ .

والاحتفال الذى تشارك فيه يؤكد أنها الجامعة .. »

فيما بعد ،استعاد وجه الرجل وملامحه ، القسمات الرخوة ، اللهجة المحملة بالندى ، مشيئته المتمهلة عندما دعاه لرؤية البيت من الداخل ، متحف صغير ، ذوق رفيع ، منمنمات فارسية من القرن السادس عشر ، أطال تأمل احداها ، صغيرة ، مستطيلة ، يتوسطها شيخ آسيوى الملامح يمسك وردة ، فى قعدته غرابة وفى تطلعه غموض ، أما الوردة فلها حضور إنسانى عجيب ، تحسس الملمس الحريرى لسجادة تركية المنشأ ، قال إنه اشتراها بمبلغ كبير ، صانعها بكى دمعا عندما سلمها إليه ..

« لم يشأ مفارقتها .. »

ترى كم أمضى فى صناعتها ، صعب عليه مفارقة ما أبدعته يداه ، رأى مشغولات فضية يمنية ، وأوان خزفية فارسية ، وصناديق خشبية مطعمة بالفضة والفيروز ، مغربية ؛ لوحات أصلية ، وحليا من جهات شتى ، ما أطلع عليه كثير ، يعكس دقة انتقاء ، بقدر ما ينم عن ثراء ، لماذا لم يسأله ، إلى أى جانب يميل هو ؟. صباح اليوم التالى ، أفاق وعنده فضول ، رغبة فى لقاء المغربى مرة أخرى ، قلب أوراقا تحوى مقالات ومعلومات حول الصراع ، نوده بها ، شدد عليه أن يخفيها ، الحق أن المغربى أضاء له جوانب شتى ، وسهل عليه ادراك ظواهر كان ممكنا إلا يلحظها ، أو تبدو له مبهمة ، مستغلفة .

أيهما الأصل؟؟

قضية لم تحسم ، ومشكل لم يحل ، حتى الآن مثار أخذ ورد ، بدأ منذ زمن بعيد لا يمكن تعيينه الآن ، واتخذ وجهات عديدة ، لكنه ظل مستمرا ، أحيانا يخبو . ومرات يشدد ، البعض فقد حياته أو حريته ، الأمر جد ، لكن .. أى أسباب كامنة ؟ أى عوامل فاعلة ؟ لا يوحى الظاهر بشيء ، تبدو المدينة هادئة ، راسخة الفاعلية والقبول . تقفز طرقاتها بعد الغروب ، حتى السهر نسبي ، المقاهى والمطاعم تغلق عند العاشرة ، قرار قديم أصدرته البلدية في منتصف القرن الماضى لأسباب مجهولة الآن ، مازال ساريا ، مكان واحد مفتوح طوال الليل والنهار ، انه مقهى محطة القطار ، لكن .. لا يقصده إلا المسافرون ، وظهور غيرهم يثير الريبة .

اعتاد عند نزوله بلدا غريبا أن يتعسس أحوالها الأمنية ، هل يوجد خطر ؟ هل يتزايد ليلا ؟ هل يمكن التجوال بمفرده؟ أى مناطق يجب أن يحذوها ، إلى أى ساعة يمكن السهر؟ ، طبقا لما يقف عليه يضع الخطة .

مما ألم به هنا ، وجود عصابات دولية تتعقب الأغراب ، لسرقة جوازات سفرهم وأوراقهم ، نشاطها سافر في العاصمة الاتحادية ، لكنه ليس منعما هنا ، فقدان جوازه هاجس يحتاط له ، يخشى مجرد وروده عليه ، ما الحال إذا وقع ؟ . لا ينام إلا بعد الاطمئنان عليه ، يضعه تحت وسادته ، في الليل يتحسسه ، وإذا يخرج لا يتركه في خزانة الفندق .

بشكل عام المدينة آمنة نسبياً والسبب وجود الجامعة ومحدودية سكانها، كما أن قصادها محدودون ، ممن لهم اهتمامات معينة ، أو ممن يريد المشى فى المراضع التى عبرها مشاهير المفكرين ، والكتاب ، والموسيقيين ، والرسامين الذين تعلموا أو عرضوا فى القاعات الشهيرة ، والمعماريين والمخططين ، والعلماء الباحثين الذين درسوا الطبيعيات ، والعلوم الهندسية والذين أحدثت اختراعاتهم طفرات هائلة فى مسيرة البشرية .

برغم الهدوء البادى فإن أحداثاً صغيرة - أو هكذا تبدو - تقع فجأة فتثير الروع . منذ عشر سنوات اختفى طفلان ، الأول فى السادسة ، والثانى فى الثامنة ، سرعان ما تردد أن أشخاصا اختطفوهما لحساب الجامعة ، حيث ستجرى عليهما تجارب ، ويتم استئصال بعض أعضائهما فى المستشفى التابع لكلية الطب العليا ، لا يخضع لاشراف البلدية ، كاد الأمر يؤدى إلى كارثة عندما خرجت مظاهرة - وهذا نادر هنا - اتجهت إلى الساحة الامامية ، خرج إليهم عميد الكلية ، وهو من أشهر جراحى القلب فى العالم ، خطب فيهم مهدثاً ، ومتهما عناصر معينة فى البلدية تهدف إلى السيطرة على المستشفى لأغراض خفية ، لكن يعلمها المسئولون فى العاصمة الاتحادية ، صاح معلنا بصوت حشرجه الانفعال ، أن المستشفى جزء لا يتجزأ من كلية الطب ، العاملون به أقسموا على الاستشهاد عند عتباته دفاعاً عنه ، وكلهم من أهالى المدينة ، ما من غريب واحد بينهم .

انصرف القوم بعد وقت غير قصير ، لكن بعد مضى عام سرت شائعة لا يدرى أحد مصدرها ، أشارت الذعر فى البيوت كلها ، مؤداها أن فرقاً من المستشفى تطوف على مدارس الصغار بحجة تطعيمهم ، لكن غرضهم الحقيقى سحب كميات من الدم لتخزينها وبيعها بالعمله الصعبة ، فزع

الأهل مفارقين بيوتهم ، ودوائر أعمالهم ، واصطدمت العربات ببعضها ، وتماست المناكب عند الهرولة ، سعيا لسحب أولادهم ، ولم يهدأ الأمر إلا بعد جهد جهيد بذله رجال الجامعة أجمعون . ثمة نقاط أخرى يبدو فيها الخلاف ، وأن بدا كامنا ، مستترا ، من ذلك العيد القومي ، معروف عيد الجامعة الكبير ، الذى يقام كل مائة سنة ، أنه المئوى ، ولكن فى كل سنة تحتفل الكليات كلها بيوم نزول الفلاسفة الأربعين أراضى الناحية ، وهناك عيد انتهاء الدراسة ، وأيضا عيد بدئها ، لكل طقوسه ، ومفردات مشاهدته . فى المقابل لم يكن للبلدية مناسبات خاصة ، كل ما يتم الاحتفال به ، أعياد عامة تحتفل بها كل الولايات ، مركزها العاصمة الاتحادية ، عدا بعض الطقوس العامة الخاصة بفئة أو طائفة أو أتباع دين أو مذهب ، مثلا .. احتفال الصينيين المقيمين بذكرى غياب أميرهم واختفائه المباغت ، أو خروج الأمير العربى بصحبة حاشيته فى العربات ذات النوافذ المعتمة مرتين فى العام للاحتفال بمناسبتهم الخاصة ، ثم رجوعهم إلى الفندق الذى كان يعرف قديما بمربط الفرس ، وان توقف الأمير عن ذلك خلال السنوات العشر الأخيرة .

قرر العمدة الذى تولى شئون البلدية فى نهاية القرن الماضى ، تحديد يوم معين لاتخاذ عيد قوميا ، طبعا روعيت اعتبارات اقتصادية سياحية ، مثل حلول اليوم صيفا ، لترتيب طقوس معينة ، منها الرقصات الشعبية ، ومد اسمطة المأكولات الشعبية ، لجذب السياح الاجانب ، وترويج الأحوال ، وتاريخية أهمها الا يكون للجامعة أى صلة من قريب أو بعيد بذلك اليوم . هكذا .. وقع الاختيار على يوم معين من شهر أغسطس ، يقال أن معركة كبرى نشبت فيه بين أهالى المدينة وكتيبة من جنود الجيش الشمالى ،

المعادي، الذي اجتاحت البلاد وقتئذ ، استشهد في القتال سبعون مواطنا ، أقيم لهم نصب تذكاري كبير في الساحة الواقعة أمام مبنى البلدية ، في الصباح المحدد يتوجه عمدة البلدية لوضع أكلیل من الزهور ، بصحبه كبار المسؤولين، ثم يفتتح الاجتماع الاستثنائي للمجلس ، بعده يخرجون إلى ساحة الاحتفالات حيث يجرى العرض الاحتفالي ، وتمر فيه عربات الشرطة المحلية ، وقوات المطافئ ، وحدات الاسعاف ، تلاميذ المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وعمال النظافة ، والنقل العام . وانارة المصابيح الغازية ، وتقدم الفتيات رقصات خاصة بالمدينة في الهواء الطلق ، ثم يفتتح السوق الكبير السنوي الذي تشارك فيه الجمعيات الخيرية ، والمنظمات الاجتماعية التابعة للحزب الحاكم ، وهيئة رعاية المسنين .

عبر السنوات المتتالية أضيفت تفاصيل عديدة إلى الاجراءات الطقوسية ، والحق أنه أصبح يوما مشهودا ، ومقصدا للزائرين ، وأهالي المدن القريبة .

غير أن حكايات عديدة سرت همسا بين أهالي المدينة ، وجهرا بين طلبة الجامعة ، مؤداها أن البلدية بالغت كثيرا في اختيار اليوم ، واضفاء القداسة عليه . وحقيقة الامر - كما تثبت بعض وثائق الجامعة السرية - أن رجلا شاردا ، لا يعرف أصله أو فصله ، تسلل ليلا إلى معسكر الكتيبة المعادية - وفي قول آخر مجرد فصيلة - ليسرق فطيرة بعد أن فاحت رائحة الخبز من الفرن الميداني وقت العصر ، وعندما شعر الحراس به أطلقوا النفر ظنا بوقوع هجوم معاد ، لم يكتفوا بقتله ، أنما قرروا صباح اليوم التالي تجريد حملة تأديبية ضد المدينة ، حتى لا يتكرر مثل ذلك ، نزلوا شوارعها ، اقتحموا البرج ، ودخلوا البيوت ، وفتكوا بكثيرين ، وافتضوا إبكارا ، وكادوا يشعلون النيران في مباني الجامعة ، لولا تراجعهم في آخر لحظة ، لم تقع مقاومة عامة ،

أو منظمة ، أنما بضع حالات فردية قمعت على الفور ، أذن .. أساس العيد القومي الذى اختارته البلدية واقعة سرقة .

نمى ما تردد إلى المسئولين ، وبالطبع اتهموا الجامعة ، وعناصر معينة فيها بالترويج لمثل هذه الشائعات الكاذبة ، التى تنال من التاريخ الوطنى ، كادت تقع أزمة ، ولكن لم تخرج تفاصيل هذا الصراع إلى العلن ، فالخلاف مهما عمق له حدود يحرص كل طرف ألا يتعدها ، ويظل هذا كله مجرد أعراض - تختفى حيناً ، وتتجدد مرات أخرى - للخلاف الاكبر ، الاساسى ، ومحوره .. أيهما أسبق ؟ الجامعة أو المدينة ؟ .

بالطبع ، لكل طرف حججه ، وأيضا وثائقه ، ومصادره ، وطرقه فى إثبات هذه النقطة أو تلك . واجتذاب هذا الطرف أو ذاك إلى صفه ، لا يقتصر الأمر على الوثائق ، هناك الحكايات المتداولة ، شفاهة ، بعضها دخل فى عناصر العقائد المستقرة ، والعادات القديمة الأصلية أو المكتسبة ، بل منها ما أصبح جزءا من حضور المدينة ذاتها ، ومن أشهرها حكاية الفلاسفة الاربعة ، أطلع عليها فى كتيب صغير يصف أشهر آثار المدينة ، ومبانيها العتيقة ، وجده فى الحقيبة الصغيرة التى تضم أوراق المؤتمر ، ثم قرأها مرة ثانية فيما بعد ، عندما انفلت الترتيب ، وخرج عن طوعه .

الفلاسفة الأربعون

.. يقال إنه في الزمن القديم الذي لا تسفر ملامحه الآن ولا تبين ، قبل تكون المجتمعات وظهور الامارات ، قبل مجيء القومية الرئيسية في البلاد التي جاءت عبر هجرة جماعية كبرى من وراء الجبال القصية في الشرق واستقرت هنا ، يقال إنه قامت مملكة قوية في جزر البحر المحيط النائية ، تعاقب عليها حكام عديدون ينتمون إلى أسرة واحدة . حتى اعتلى أحدهم العرش وكان صغيرا ، طاشا ، ضيق الخلق ، في عصره رجع الفلاسفة الذين رحلوا إلى الشرق بأمر والده للإطلاع على الأمور وأخبره بها ، عادوا بمعارف جمة ، وأخبار عجيبة ، وأسرار كثيرة ، تحدثوا بهذا كله ، وأصغى الناس ، ضاق الملك الشاب بهم . رأى فيما يرددونه عوامل جالبة للفتن والقلاقل ، أمر بالحوطة عليهم خاصة بعد أن تكلم أحدهم عن طرق ممهدة ، ومصابيح تضيء ليلا ، وآلات تنبعث منها أنغام مرقصات ، مطربات ، وبيوت مبنية من حجارة ، قرر نفيهم ، أمر بترتيب قافلة تمشى أربعة شهور كاملة لا تنقص يوما ، شهران في البحر ، وشهران في البر ، آخر يوم تضع أحمالها ، تتركهم في الموضع الذي تصل إليه ، جرى تنفيذ ذلك بدقة كاملة .

تركوا بمفردهم بعد فك قيودهم ، بدون زاد ، أو أية حوائج عندئذ بدأوا العمل ، لم يضيعوا لحظة ، كان عددهم أربعين ، وكبيرهم في الخمسين ، في المدينة أربعون مقبرة ، تسع وثلاثون ظاهرة ، مطروقة ، أما المقبرة الأربعون

فمجهولة ، موضعها خفى ، منذئذ ، الجامعة تبحث عنها ، والبلدية أيضا ، المقابر عند النواصى الظاهرة ، وفي الطرقات الضيقة ، واحدة في الحديقة الدائرية ، على كل منها كتابة بالقلم الغريب الذى لا يفهمه إلا ذوى الاختصاص ، أهالى المدينة والنواحي المجاورة يتبركون بها ، يوقدون الشموع فى مواقيت محددة ويضعون النقود الفضية المستديرة فى أطباق صغيرة مكشوفة ، لا يقربها أحد ، غير معروفة الجهة التى تجمع النقود ، يقال أنها إدارة الجامعة التى تحولها إلى ميزانية قسم الآثار القديمة بكلية العلوم الإنسانية ، الذى يتولى أعمال الترميم والصيانة الدورية ، المعترف بها ، وهذا غير مؤكد ، إذ يقول البعض إن البلدية تجمع النقود وتضيفها إلى ميزانية المنشآت المدنية ، ويهمس آخرون أن ثمة اتفاقا قديما غير معلن ، غير موقع ، يقضى بتوزيع المبالغ مناصفة بين الجهتين ، على أى حال لا يمكن القطع أو التحديد مع أن الأمر ميسور !.

المهم .. بدأ الفلاسفة العمل . رتبوا أمورهم ، فكانوا أول من حدد مصادر الرياح ، وحاول كبيرهم التوصل إلى عمل يحد من خطرها ، وقيل حبسها وأطلقها عندما يهوى ، لكنه لم يصل .

إنهم أول من حفر لاقامة أساسات البناء ، ومدوا الأسقف الواقية من المطر والشمس الصهدة والثلج ، وأول من قسموا المبانى إلى غرف منفصلة ، وأقاموا الحظائر للحيوان ، وكشفوا عن مصادر المياه فى الناحية ، وتحكموا فيها ، أقاموا ثلاثمائة وخمسة وستين صهريجاً ملؤها بمياه الأمطار . خصص لكل صهريج يوم واحد ، فإذا نفذ لا يملأ إلا فى موسم الأمطار التالى ، وإذا بقى فيه مقدار لا يستخدم أنما يترك ليتبخر ، ولم يعرف سبب ذلك . تحتفظ المدينة بعدد من بقايا الصهاريج ، كشفت عنها التنقيبات التى

تمت في خمسينيات القرن الماضي . وقامت بها الجامعة . تضم المدينة مسارات بعض القنوات التي شكلت جزءا من شبكة تموين المدينة خلال العصور الوسطى ، تنظيم دقيق ، عجيب ، وصفها الرحالة والتجار الذين دونوا ملاحظاتهم لكن أشمل وصف كتبه جاسوس ينتمى إلى مجموعة الامارات الشمالية التى هددت المنطقة عامة والمدينة خاصة ، وصف نظام تموين المدينة بالمياه ، حيث اعتبر النهر الصغير مصدرا رئيسيا ، هذا النهر ظهر بعد زمن الفلاسفة الاربعين ، أثر الزلازل المتواصلة في القرن السابع ، تذكر بعض المصادر زلزلة الأرض لمدة سبعة وخمسين يوما مما أدى إلى تشقق الجبال ، من شرخ صخرى عميق نبع الماء وتدفق ، مجراه ضيق مفروش بالحصى ، يمكن رؤيته عند أعماق أجزائه ، منه تؤخذ المياه إلى الصهاريج القديمة ، ثم تضخ بوسيلة لم تعرف بعد ، عبر قنوات صناعية تتفرع إلى أخرى أصغر ، تمضى تحت الحداثق والميادين ، يسمع خريرها وان لم تقع العين عليها ، أحيانا تتدفق من فتحات صغيرة في الجدران ، يقال أن المياه كانت تمضى في حركة دائرية بحيث لا تمضى إلى مصب ، أو إلى منتهى معين ، أنما تعود لتتدفق في المسارات ذاتها ، قال الرحالة العربى بن فضالان إن المدينة تبدو وكأنها تمشى على الماء وبالماء ، هذه الحركة الدائمة أضفت عليها حيوية ، لا مثيل لهذه المدينة في العالم ، إلفاس في المغرب الأقصى ، أساتذة الجامعة يقولون إن تصميم شبكة المياه الفريدة تلك موجود في خزائن البلدية ، مرسوم على جلود غزلان ، لكن البلدية لا تفرج عنه ، ولا تسمح للباحثين بالاطلاع عليه ، وهذا ضار بالعلم ، عمدة البلدية صرح منذ عشرين عاما أن التصميم يعد من أدق الأسرار وأنه يتصل اتصالا مباشرا بالخطط الدفاعية . لذلك يجب إبقاؤه سرا حذرا وتحوطا ، ربما يقع أى حادث أو عارض في المستقبل .

نرجع إلى الفلاسفة الأربعة ، أنهم أول من جز صوف الغنم ، وغزلوه ، ونسجوه ، وأول من دبغوا الجلود وصنعوا منها أحذية ، وأول من سلق اللحم والخضروات ، أضافوا الملح إلى الطعام ، وصنعوا الأوانى لشرب السوائل ، واستخلصوا اللوف لهرش الجلد وحكه ، وهذبوا السواك لغسيل الأسنان ، كما أنهم أول من حدد الجهات الأربع الأصلية .

أمور عديدة تجل عن الحصر تنسب إليهم . ولكن ثمة أشياء محددة ارتبطت بكبيرهم الذى لم يصل أحد إلى مقبرته حتى الآن ، فهو أول من حدد مواقيت الشروق والغروب ، وميل الظل ، ودخول العصر ، وفرق بين الفجر الكاذب والحقيقى ، ولحظات اكتمال الندى ، وتحول الطل ، وتبخر المياه ، وأسس علم امتزاج الألوان ، كما عين الحد الفاصل بين اليقظة والنوم ، كما وصف الأحلام وفسرها ، توصل إلى النتائج التى حددها ابن سيرين ومن بعده سيجموند فرويد ، وشرع فى عمل يحفظ ما يراه النائم بحيث يمكن استعادته ، لكنه لم يتمه ولم يتوصل ، أنه أول من أشاد إلى مستثيرات الذكرى وصنفها ، وفرق بين الأصل والظل ، والصنوت والصدى ، اكتشف مركز الدائرة ، ورسم مواقع النجوم الثابتة ، ولاحظ حركتها مع تقدم الليل ، وفرق بين الشكل المستدير والبيضاوى ، والمستطيل والدائرة ، والمثلث ، وهذا ليس بالهين فى أوانه .

غير أن انشغاله الأعظم كان بالوقت ، وهو أول من نطق « صباح الخير » . وسبب ذلك حالة وجد صعب نزلت به لسبب ما ، يقال أنه بدأ ارتداء أعصاب ، وعدم قدرته على الجماع ، وفى رواية أخرى انشغاله بالنهايات مع طعنه فى السن ، وإدراكه استحالة الإبطاء من سريانه ، أو التأثير فى ديمومته ، ذات يوم خريفى كابى أطال النظر إلى قرص الشمس قبل اكتمال غروبه ، بدا

هلعا وكأنه يرى ذهابه أول مرة ، صاح راجيا من صاحبه مساعدته في
الامساك بالقرص الاحمر القانى ، أن غيابه يعنى غيابهم ، وذهابه يعنى
ذهاب قدر منهم لن يعود أبدا ، الشمس لا تمضى ، انما هم من يرحلون ،
وعند كل مغيب ينقص رصيدهم من الدنيا .

ضرب الأرض بقبضتيه ، يجب التأثير في الدورة الحتمية ، الأبدية ، حار
صاحبه فيما يجب عمله ، مع أن ثلاثة منهم كانوا على دراية بأحوال النفوس
وتقلباتها ، وما يلحقها في أطوار العمر ، لكن .. مابدا منه ذلك اليوم استعصى
عليهم ، خاصة عندما اندفع لاهثا ، مزبدا ، محاولا ادراك قرص الشمس
بأطراف أنامله .

يقال أنه أمضى ليلا ليلا ، يرتعد كفرخ الحمام المبلول ، يحيطه صاحبه ،
حتى إذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ودنا الانبلاج ، تطلع إلى
حمرة الافق الشرقى ، وطفأ من أغوار عينيه تعبير كابى ، بعد لحظات تحول
إلى صاحبه ناطقا :

« صباح الخير » .

صارت العبارة عرفا ، ثم عادة ، ثم جملة لازمة ، جرى اعتقاد فيما تلا
ذلك أن الإنسان إذا لم يفه بها لمن حوله ، فإن الشمس ستمضى ولا ترجع ،
ثم توارى المعنى الكامن من الافئدة ، ولكن الجملة انتقلت إلى سائر اللغات
المنطوقة .

عندما حانت ساعة احتضار الفيلسوف ، ولى وجهه تجاه الشمس ، قال
معاتبا :

« لو اتبعتمونى » .

أدركوا أن الأمر قد شغله ، وأنه كتم ولم يسفر .

كيف تناسل الفلاسفة ، وتكاثروا في هذه البقعة التي كانت خرابا عند وصولهم بدون صحبة امرأة واحدة ؟ هنا تتعدد الروايات ، لكننا نورد أشهرها ذيوعا .

يقال ان ذلك جرى زمن نفى الفلاسفة ، في بلد يقع إلى المغرب الأقصى ، وقيل إلى الجنوب ، وفي رواية أخرى ، ما وراء النهرين ، إذ حطت عند الفجر قافلة من أربعين امرأة ذوات جمال وفتنة ، متقاربات الأعمار ، عندهن أنوثة زائدة ، وخصائص تفردن بها ، منها بسوق القامة ، وتميز الأطراف والقود وتبلور الاردا ف ، وصفاء المقل ، وتأودهن عند الخطو بايقاع لا مثيل له ، حتى قيل إن الرجل الذي لا يستنفر عند رؤية تمايلهن لا أمل يرجى منه ، نزلن البلد وأقمن فيه ، وقيل أنهن جئن من مدن نائية تقع خلف المحيط الأعظم ، فارقنها لأسباب غامضة ، بعد وصولهن ظهر تبدل في سلوك النساء وتصرفاتهن ، إذ تجرأن على رجالهن وعظم اشتداد الرغبة عندهن ، بعضهن خرجن في طلب الغرباء السالكين طريق الحرير العظيم ، قيل إن الأربعين قمن بتلقي نساء تخطين الأربعين ، قيل أنها إذا ضاجعت رجلا فإنها تأتي من خفى الحركات ما لا يقدر على الصمود أمامه أعتى الرجال وأشدهم صبرا ومراسا . لحظة بلوغها الأوج وذروة المتعة تطلق صرخة ، نافرة ، غريبة ، خليطا من حشجة وجعير ، من ضحك وبكاء تسمع في أطراف البلد ، ولهولها تنفر الجياد والابل ، ما لم يشد وثاقه منها يفلت ويصعب رده .

زاد الأمر عن حده ، وأضطربت الأحوال ، وشكا الأزواج من تغير زوجاتهم ، وأرجع الحكماء الطاعنون في السن ما جرى إلى إقامة الغريبات عن الديار ، قرروا نفيهن إلى موضع بباب لا يمكنهن منه العودة ، وضعن قسرا في قافلة صدر الأمر برحيلها لمدة ثلاثة أشهر كاملة لا تنقص يوما ،

وعند النقطة التى يتم فيها الوصول يفارقنها ، وتشاء المصادفة أن ينزلن أرضاً قريبة من موضع المدينة الحالى ، لا يدري أحد من اكتشف الآخر ؟ الفلاسفة أو النساء ؟ . على أى حال وقع اللقاء ، ويحفل الادب القديم بحكايات عديدة محورها الشبق الوعر الذى تفجر بين الرجال المنقطعين عن العالم ، والنساء المنفيات بسبب اشتداد رغباتهن ، ويرجع البعض تعثر أعمال الفلاسفة اليهن ، ومن هذا اللقاء وقع التناسل ، ويؤكد الرحالة القدامى ومنهم ابن فضلان ، وابن بطوطة - فى رحلته الثانية - على جمال نساء المدينة ، وشدة ميلهن إلى الرجال ، خاصة الغرباء ، واتقانهن لفنون الاثارة ، واطهارهن من الحركات والقدرات مالا يوجد فى نساء الأمم الأخرى ، وما زال حالهن وتفردهن قائماً ، ملحوظاً ، لكن رغبتهن أصابها فتور بعد أن قام أحد أحفاد الفلاسفة بساعات تركيبة خاصة من أعشاب غير معروفة وضعها خفية فى مصادر المياه التى تمت المدينة ، ومنذ هذا الوقت ضعفت الشهوة عندهن ، لكنهن لم يفقدن ما توارثته من فنون وحركات ، حتى قيل أن من لم يضاجع أحداهن يموت جاهلاً بالمرأة.

تفاصيل لقاء الفلاسفة بالنساء عديدة ، مثيرة منهم أنحدر أبناء المدينة ، مصادر البلدية تقول إنهم كفوا عن انجاز العلوم وتحقيق الفوائد بعد اجتماعهم بالنساء ، لكن مصادر الجامعة تؤكد أنهم أبدعوا أفضل ما قدموه بعد وصولهن ، والدليل ، تلك المسائل السبع التى صيغت والموجهة إلى الابناء الصغار الذين ولدوا ، وتتضمن الاشارات والرموز ، ولا تزال معانيها متضمنة فى أسئلة الاختبار التى توجه إلى الملتحقين الجدد ، تغيرت صياغة الاسئلة ، لكن المضمون لم يتبدل إلا قليلاً .

المسائل السبع ..

أولها : ما الاشجار الاثنا عشر ، ذات الفروع الثلاثين ، الظاهرة في العالم كله ، ومع ذلك لا ترى ؟.

ثانيها : ما الطائران المحومان دائماً ، لا مستقر لهما ولا محط ، ولا نقطة اقلاع أو وصول ، لا مأوى ولا فرع ، إلى الابد يحوم كل منهما في اثر الآخر فلا يدركه ، أحدهما أبيض ، والآخر أسود ، ولا يدري أحد أيهما أسبق ؟.

ثالثها : من الفرسان الثلاثين ، هم في عرض دائم ، فإذا عبروا نقصوا واحداً وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد .

رابعها : ما الشجرتان اللتان يقف عليهما طائران ، كل منهما يصيح على الآخر . إذا طار من هذه تساقطت أوراقها ، وإذا وقع على الأخرى ازدهرت وأورقت ، فتكون ناضرة ، والثانية ذابلة مدى الايام ؟.

خامسها : ما البلدة الآمنة التي هجرها ناسها وأقاموا في غيرها ، حتى إذا انتبهوا وأدركوا ، تطلّعوا إلى الرجعى .. لكن .. هيهات ؟.

سادسها : لماذا تنتصب قامة الإنسان دون سائر المخلوقات ؟.

سابعها : لماذا توجد في الوجه سبع فتحات ؟ وفي سائر الجسد فتحتان ، ولماذا تتكون فقرات العنق من سبع ؟ ولماذا يتكون الأسبوع من سبعة أيام ؟.

لا يزال جوهر هذه المسائل ساريا ، تحرص التقاليد على بقاءه كإحدى
العلامات المتبقية من زمن الفلاسفة الأربعين ، إلى جانب ملامح أخرى . منها
أن عدد المجلس الأعلى أربعون عضوا .

عدد المسموح لهم من الأساتذة بحضور العشاء الأسبوعي أربعون .
إجازة نصف العام الدراسي أربعون يوما .

راحة ما بين المحاضرات أربعون دقيقة ، والوقت يحدد داخل الجامعة
بالمزولة الحجرية العتيقة ، ولا يعتد بالساعات الحديثة المهداة والموزعة على
مباني الجامعة .

عدد القاعات الرئيسية أربعون ، من هنا تؤكد الجامعة أن الفلاسفة هم
نواة أساسها المتين .

لكن .. في المدينة علامات أخرى لا صلة لها بالجامعة . فمن ذلك عدد
الشوارع الرئيسية ، أنها أربعون ، والمباني الرسمية أربعون ، لهذا تصر
البلدية على انتماء الفلاسفة إليها ، هم الذين وضعوا لبناتها الأولى ، ما قاموا
به متصل مباشرة بأساس تكوين المدينة ، بنشأتها ، بتخطيطها ، لذلك أقاموا
أمام المبنى الرئيسى للبلدية في القرن الماضي تمثال الأربعين ، كتلة صخرية
هائلة تبدو من خلال خطوطها وتضاريسها ملامح أربعين وجها ، وإلى أعلى
ترتفع أربعون يدا في اتجاه شمس تحملها الأنامل ، تبت أربعين شعاعا ،
تطال كل الجهات .

البرج ..

.. تفحص الخريطة ، متخذاً موقع الفندق نقطة انطلاق ، المقر الرئيسى للجامعة ليس نائياً ، على مسيرة خمس أو سبع دقائق ، لن يحتاج إلى عربة أجرة ، تكفى مرة واحدة ، كان يجهل المسافة من محطة القطار ، من يهوى المشى مثله يمكنه أن يلف المدينة كلها فى أقل من ساعة .
هكذا شرع .

صباح هادئ ، وثير ، ضوء رخيم وطرقات مبلولة ونواص تثير الحنين ، سماء دانية توحى ببحر قريب من أنه بعيد ، أربع ساعات بالقطار السريع ، أرصفة عريضة تحدها أقواس حجرية ، متتالية ، متاجر متجاوزة ، مداخل بنايات قديمة مغلفة بالظلال ، تنبعث منها عتاقة رطبة ، وأصداء مندثرة ، وبقايا لقاءات خلسة ، رخام بارد ، وسلالم لا تفسح عن كل درجاتها ، وشىء ما يبعث على التذكر .

عبر ثلاثة مفارق ، ميدان مبلط بالحجارة ، فى المواجهة يقوم البرج الكبير ، شاهق ، غامض ، ميله ملحوظ ، أصبح علامة عليه وسبباً لذبوعه ، اختلف الناس فى سبب بنائه ، فمن قائل أنه لغرض حربى يمكن رصد أى عدو مقرب ، وثمة من يقول إنه بنى كرمز للجامعة ، ولإجراء تجارب تتعلق بالجو والمناخ ، لكن التعليل الثانى لا يلقى قبولا ، ما معنى تشييد هذا المعمار

المعقد ، الغامض الذى لم يكشف عن أسرارها كلها بعد ، فى زمن كانت وسائل البناء فيه بدائية لمجرد أن يكون رمزا ؟. ما معنى ذلك ؟ هذا سخف ، على أية حال ، أنه شعار المدينة الآن ، مرسوم على مفتاحها الذى تهديه البلدية إلى كبارضيوفها الرسميين ، أو عند إعلان التآخى مع مدينة أخرى نائية . مطبوع على البطاقات المصورة ، تباع نماذج من جص ، ومن نحاس ، وحديد ، ونيكل ، وفضة ، مختلفة الاحجام .

بعض الجامعيين يضمرون ضيقا قديما متوارثا ، فلولا مهندسو الجامعة لما انفردت المدينة بهذه الاعجوبة الهندسية ، لكن الأهم .. أن البرج لم يكن رمزا للمدينة حتى منتصف القرن الثامن عشر . فالمدينة جامعية ، وأهم ما تضمه .. الكليات والمعاهد العلمية ، كان شعار المدينة نفس ما يراه الناس فى الدائرة الذهبية التى تتوسط غطاء رأس أقدم أساتذة الجامعة ، أنيبق زجاجى ينطلق منه شعاع دخانى ، يتشكل منه وجه فتاة حسناء ترفع يديها إلى أعلى رمزا للمعرفة . بدأ الخلاف حوله فى ذلك الزمن البعيد ، وأوقف العمل به ، حتى حسم الأمر مع توحيد الدولة ، والاتفاق حول العاصمة المركزية ، نجح رئيس البلدية وقتئذ ، وكان رجلا جادا . شديد الكلف بالمظاهر ، فى استصدار مرسوم مركزى بتغيير شعار المدينة ، ثم ضم البرج إلى المنشآت التى ترعاها البلدية ، ودبر حملة دعائية بحيث أصبح من معالم البلاد ، ومقصد الأجانب ، وزاده غرابة ما يروى عنه من أحداث جرت فيه أو حوله ، أو معتقدات قديمة تتخذة محورا . كذلك ميله ، ولون الحجارة التى شيد منها ، أحمر ياقوتى ، فى المكتبات عدد لا يحصى من المؤلفات حوله ، بعضها علمى معمارى ، أو تاريخى وصفى ، أو معلومات عامة للزائرين .

فمما أرتبط به من معتقدات ، شاعت واستقرت ، أن العاقر اذا خطت

عتبته سبع مرات قبل شروق الشمس فانها تنجب ، ومن الباب الرئيسى ، ومن يشكو ألما فى الدماغ يلف خيطا أحمر ، ومن يشعر بآلام المعدة يعقد خيطا أبيض حول أحد المسامير البارزة ومن جفا حبيبه يتناول ذرات من التراب العالق بالدرج ويضعه فى مثلث ورقى بعد كتابة اسم المحبوب الجانى بمداد أحمر ، فانه يرق ويلين ويأتى طواعية باذن الله ، وإذا غمضت المراجع ، واستبهمت الدروس على الطالب النجيب ، فانه يكتب اسمه على ورقة صغيرة ويلقى بها عبر إحدى النوافذ المستديرة العليا ، عندئذ ينفك المعقود ، وتتضح المسائل المستغلفة ، هذا كله وغيره ، شائع منتشر بين القوم .

عرف البرج أيضا كمكان شهير للانتحار ، آخر حادثة وقعت منذ سبع سنوات ، كان غزيبيا ، أفريقيا ، طويل القامة جدا ، نزل المدينة ذات صباح باكرا ، لفت الأنظار ، وتطلع إليه كل من رآه ، مشى فى الشوارع ، عبر الميادين . لم يتوقف عند مكان معين ، لم يتطلع إلى نافذة أو لافتة ، حتى وصل إلى البرج ، طاف حول بنائه المربع سبعا ، ثم دفع مقابل بطاقة دخول ، كان أول الصاعدين ، صعد السلالم الثمانمائة بدون توقف ، حتى الشرفة المربعة ، نظر إلى كل الجهات بعينين مزورتين ، وشفتين منفرجتين ، لحقه زائر ثان ، اعتاد المجيء هذه الساعة المبكرة لدراسة ضوء الشمس من خلال منشور زجاجى ملون .

بهذه خلع الأفريقى قميصه ، ثم بقية ثيابه ، ورتبها قطعة ، قطعة ، حتى أصبح عاريا كما ولدته أمه ، وفيما بعد قال الطالب إنه هلع وظنه ينوى أمرا ، لكنه بدا غير منتبه إلى وجوده أو وقوفه على مقربة ، توقع قيامه بأداء طقوس معينة يجهلها ، تمت إلى بلدته أو إلى جماعته ، خاصة عندما عقد يديه أمام صدره العارى ، لكنه هوجئ بوثة مفاجئة ، خاطفة ، يجتان بعدها السور إلى

الفراخ ، وعندما تجمعوا حول جثمانه الذى تمدد أمام المدخل تماما ، كان لا يزال محتفظا بوضع يديه أمام صدره .

لم تعرف هويته ، أو الجهة التى ينتمى إليها ، لم يعثر على أى أوراق ، ولم يبلغ أحد عن غياب مفقود ، راح الأفريقى على حاله ، ودفن فى مكان مجهول ، وتردد أن جثمانه انتهى إلى إحدى قاعات المستشفى الجامعى لاجراء تجارب ، انقطع أثره ونسى أمره فى الخضم اليومى ، لكن بعد مرور أربعين يوما تناقل حراس البرج ما رآه أحدهم ، ثم تأكد فى الليالى التالية ما ظنوه وهما ، الأفريقى يظهر أعلى البرج ، ويطوف حول السور عاقدا يديه أمام صدره ، ويخطو فى الفراغ منحنيا إلى حد ما . أكد آخرون أنهم شاهدوه من مسافة نائية ، وقدم طيار هيلوكبتر تقريراً إلى قيادته المتمركزة خارج المدينة حول ما رآه أثناء تحليقه فى مهمة تتعلق بأمن الدولة الاتحادية ، بعد وقوع هذا الحادث ، وظهور تلك الشواهد ، صارت الزيارة ليلا غير مرغوبة ، حتى بعد اضاءة البرج ، ولم يقدم عليها إلا الغرباء الذين يجهلون ، لكن ليست هذه أشهر الحكايات .

فى الأربعينيات وصلت إلى البلاد أميرة تنتمى إلى العائلة الملكية فى بلاد الانجليز ، جميلة ، أمرها معروف ، دارسة للآثار ، وقيل أنها تنوى البحث عن مقبرة كبير الفلاسفة الأربعين ، والتى لا تزال غير معروفة ، ومما يتردد فى كتب الاقدمين أنها تضم أوراقا من البردى تحوى العلوم والمعارف كلها . طبعاً نشأ نزاع ، من يستقبلها ؟ عمدة البلدية أو رئيس الجامعة ؟ اضطرت السلطة الاتحادية إلى التدخل اتقاء لفضيحة خارجية ، مع أن مبادراتها فى هذا الشأن نادرة . تقرر أن يستقبلها عمدة البلدية فى محطة القطار . وأن ينتظرها رئيس الجامعة أمام كلية العلوم الإنسانية ، على أن

صحابها نائبه من الباب الخارجى ، وهذا ما تم بالفعل ، إلا أنها سببت رتباكاً عندما طلبت زيارة البرج قبل غروب أول أيامها فى المدينة ، رغبت فى رؤية قرص الشمس الأقل من العلو الشاهق ، المائل .

مشكلة ١.

الاميرة شخصية هامة ، ويجب اتخاذ الحوطة ، وترتيب اجراءات حراسة خاصة ، المبنى غامض ، كثير من فراغاته مجهول حتى الآن ، ثم زاد الامر تعقيدا عندما أبدت رغبتها فى الصعود بمفردها قصد التأمل الهادئ.

هى ميساء ، ذات رفعة أنوثية ، بريقها داخل صميم ، يتوهج فى لحظات لمودة والقربى ، ويخفت فى الأحوال العادية ، لكنه يشع كدفع خفى المصدر ، معجبوها كثر ، منهم سليلو أسر نبيلة ، وأثرياء ، وأمراء من أقصى آسيا ، نجوم سينما ، وأبطال رياضة .

لكن الغريب العجيب أنها لم تعجب ولم تعشق إلا رجلا من صعيد مصر .
بالتحديد من قرية القرنة .

عندما زارت مصر استقبلها الملك ، نزلت فى فندق مينا هاوس لتطل على الأهرامات صباحا ومساء . ثم سافرت باليخت الملكى « قاصد خير » إلى بر الأقصر ، وخلال أيامها النهرية كتبت رسائلها الشهيرة ، فى الأقصر احتفى بها القوم ، رتبوا جولات متأنية ، دققت وأمعنت الفرجة ، أبدت إعجابا بما رأت ، والمما بالتاريخ الفرعونى القديم ، عند تأهبها لدخول مقبرة الأميرة نفرتارى ظهر رجل مقعد الوجه ، بارز عظام الترقوتين ، باسق القامة ، قدمها إليها مفتش آثار الناحية باعتباره الوحيد الذى يحفظ الرسوم والنقوش ، بل ويتقن اللسان الفرعونى القديم ، اضافة إلى سبع لغات أجنبية منها البولندية.

كان مهيبا ، طويلا كجذع نخلة ، راسخ النظرة ، متأنى الخطوة ، متين الملامح ، بعد نزولها المقبرة أبدت رغبتها الشديدة في قضاء ليلة بوادى الملوك ، أحدثت ارتباكاً ، اضطر مدير الناحية إلى ارسال عدة برقيات ، لم يأت رد واضح ، لا من القصر ، ولا من وزارتي الداخلية أو الخارجية .

أزاء إصرارها . وإعلانها تحمل المسؤولية خضع الجميع . لم تصطحب إلا حارسها الخاص ، كان عارفا ، عليما بأحوالها ، أشتهر بصمته ، بعد وفاتها أعلن فجأة أنه سينشر مذكراته ، لكنها لم تظهر قط ، نتيجة تدخل القصر .

المهم .. نصبت خيمة للأميرة في الصحراء ، تحت سفح تل مرتفع مشرفا على وادى الملوك ، مع ارتفاع القمر شبه المكتمل ظهر رسول ، اقترب راسخا ، واثقا غامضا كطيف يسعى ، جثت ، صبت الماء المعطر من إبريق نحاسي ، غسلت قدميه ، في هذه الليلة تردد صوتها في الوادى العتيق حتى تعجب حارسها الخاص من قدرتها على الاحتمال ، قيل إن رسول ضاجعها ست عشرة مرة ، وعندما سألته ، أهذه عادة أهل البلاد ؟ هز رأسه نفيا ، مشيرا إلى صدره . لا يدرى أحد ما جرى بالضبط ؟ . كيف اقنعتة بالرحيل معها ؟ سحبها إلى بلادها . قيل كتبرير أنه ماض لتعليمها اللغة الفرعونية التي يتقنها . اشترت قصرا قديما مهجورا ، أقام فيه منذ مائة وعشرين سنة أحد أفراد أسرة البوربون ، لجأ إلى المقاطعة بعد نشوب الثورة الفرنسية . كثر ترددها عليه ، صارت تقضى بصحبة رسول يومين أو ثلاثا كل أسبوع . لوحظ تغير جسدها . إذ عظمت عجيزتها واتسع حوضها ، وتغيرت مشيتها ، صارت أبطأ .

لم يدم الأمر طويلا ، بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر بدأ شرود في عينيه ، ازدادت اطرافاته ورسمه خطوطا متقاطعة ، متعامدة فوق الأرض ، فشل

كبير الأطباء الملكيين الذى جاء إليه سرا فى فض سره . قال للأميرة أنه على ما يبدو يعانى حالة اكتئاب شديدة لافتقاده المنشأ والوطن ، لابد من ذهابه إلى بلده ، غير أنها أبت ، أكثرت من تردها عليه ، وقضائها أوقاتا طوال إلى جواره ، وأبدت فيضا من مشاعر ، لكنه لم يستجب ولم يزد إلا حزنا وكمونا ، صباح أحد الأيام ظهر عدد من الرجال بينهم شاب أنيق يمسك لوحات عديدة ، علقها إلى حامل خشبي وصار يقلبها ، ويخط في دفتر أبيض ، فرش العمال الأرض غير المستوية بالرمال ، رمال صفراء غامقة تتخللها شجيرات قصيرة مما ينبت فى جنوب مصر ، ثم غرست سبع نخلات ليلا ، وصارت مقصدا ومزارا فيما بعد ، كثيرون من أهالى البلاد لم يسبق لهم رؤية النخل إلا فى لوحات الرحالة الذين قصدوا بلدان الشرق . عندما اكتمل الأمر وصلت الأميرة ، بدت مبتهجة ، راضية عن العمل الذى تم ، كان جزءا متكاملا من الصعيد النائى انتقل إلى الريف الانجليزى ، لم يبد رسول مجاوبة ، كأن الأمر لا يعنيه ، لا يمت إليه ، صار ذاهل النظرة محمقا إلى بعيد ، فى كل يوم يتناقص وزنه . حتى حط تماما .

وجدت عليه الأميرة وجدا شديدا ، بعده مالت إلى انطواء وتعددت أسفارها ، حتى عدت فى هياج دائم ، لا يستقر بها مقام ، لم ولن يدرى أحد ما جال بخاطرها ، أو أى صور تواردت عليها عندما طلعت البرج الشهير ، أما ملامح وجهها فلم تسفر ولم تنبئ بشيء ، صار انتحارها المفاجئ ، امرا باعثا على الحيرة ، ومبعثا لتخمينات شتى ، لفترة خاضت الصحف فى الأمر ، بل صدرت كتب ، وأشير إلى رسول طبعها ، لكن لم يتأكد ارتباط انتحارها بحزنها عليه . لو صح لأودى بها عقب وفاته ، لكن ثمة فترة فاصلة مقدارها ثلاثة أعوام ، أما علاقتها به . فقيل أنها مجرد نزوة امرأة غريبة تجاه رجل بدائى !

وبالرغم من الألم الذى عبر عنه عمدة البلدية فى خطاب العزاء الرسمى ، وقيامه بمرافقة الجثمان حتى المطار المحلى ، وأداء المراسم الخاصة بما فيها التحية العسكرية ، وتنكيس الاعلام لمدة سبعة أيام ، بما فيها العلم الاتحادى ، والاعلام الجامعية ، وبالرغم من مظاهر الاسى ، فإن البلدية بدأت على الفور التخطيط لاستخدام انتحارها كعنصر دعائى ، وضعت حلقة معدنية عند النقطة المفترض أن الأميرة تجاوزتها إلى العدم ، ليتوقف عندها الأدلة والشراح . كما تضمنها الكتاب التذكارى المئوى .

غير أن حكاية ابن امبراطور الصين أغرب وأعجب .

ذلك أنه جاء إلى الجامعة متفقدا وزائرا ، قرر والده ايفاده للاطلاع على ما يجرى فى الأقسام العلمية ، عند وصوله تم حل المشكلة التى نشأت ، من سيستضيفه ؟ الجامعة التى سيدرس بها ، أو البلدية باعتباره ضيف المدينة البارز ؟ ، اتفق على أن يقيم أسبوعا كضيف على الجامعة ، وأسبوع للبلد . وعندما جاء .. أبدى رغبته فى الإقامة بالفندق الكبير . أقدم الفنادق وأفخمها ، نزل فى الجناح الملكى ، وعلقت صورته فى الممر المؤدى بجوار الذين حلوا من قبل . استقر ، وعلق علم البلدية فوق المدخل ، فى نهاية الأسبوع الأول رفع شعار الجامعة ، هكذا بالتبادل ، اعلانا عن الجهة المضييفة ، ربما لم يلحظ الأمير ذلك .

فى نهاية الأسبوع الرابع وجهت إليه الدعوة لزيارة البرج ، أبدى الأمير اعجابه بالبناء السامق ، المائل ، قال إنه يوجد فى الصين برج آخر لكنه ليس متأكدا ، أيهما أعلى ، وأيهما أكثر ميلا ، قال إن البرج الصينى يرتبط بملك عاش فى التاريخ البعيد ، فى عهد الممالك المتحاربة ، وأنه أراد الوصول إلى السماء وملامسة النجوم ، أمر باستمرار صعود البناء ، وخيل إليه أنه عند

حد معين سيجتاز الحد ، بذل المهندسون جهدا حتى ارتفعوا به فوق الغيوم ،
تردد ذكره في البلاد النائية ، وقف ابن بطوطة على بقاياها ، وصفه أثناء
ترحاله في بلاد الصين ، لا تكشف النصوص القديمة عن أسباب انهياره ، أو
توقف البناء ، وقيل أن الملك أصيب بمرض غامض أودى به كعقاب رادع من
السماء ولا تزال البقايا منتصبه ، قاس الأمير ارتفاع البرج بمساعدة ثلاثة
من مرافقيه ، من خلال حركة الظل وانتقاله عبر أوقات النهار المختلفة ،
اتبعوا أساليب قديمة ، معقدة ، وآلات حسابية غير معروفة في الجامعة ، أنهم
أول من حدد الارتفاع بدقة ، ودرجة الميل ، ومقدار زيادته كل سنة شمسية ،
لكنهم لم يبلغوا أحدا بنتائج القياس المقارن ، أيهما أعلى ؟ برج المدينة ، أو
البرج الصينى ؟

توجه الأمير ثلاثين مرة ، في العشرة الاوائل لم يصعد ، اكتفى بالطواف
حوله ، ومعاينة أحجاره ، والتطلع من زوايا مختلفة ، وفي المرات العشر التالية
أتم القياسات ، ثم بدا صعوده ، أبدى إعجابه بالقدرة على استغلال الفراغات
الداخلية المحدودة ، وفي المرة الثلاثين أبدى رغبته في دخول الحجرات السبع
الموزعة على الارتفاع الشاهق ، دخل الأولى والثانية والثالثة والرابعة
والخامسة والسادسة مبديا همة عالية ، مستنفرا كل طاقته ، مشرعا أدق
حواسه ، كان يدخل بمفرده ، بينما يقف مرافقوه فوق السلم الحجري
الدائرى ، اثنان صينيان ، وثالث من رجال البلدية ، بدا تعبهم ، وسمع
لهائهم. قرب نهاية السلم الدائرى ولج الغرفة السابعة ، وعندما طال تفقده ،
شعر مرافقوه في البداية أنهم منحوا عدة دقائق للراحة ، لكن الوقت مر ،
والدقائق توالى ، ولاحت نذر ، عندئذ تقدم أكبر المرافقين سنا ، نادى بصوت
خافت ، ثم بصوت مرتفع ، التفت إلى زميله ، بحسم ولج الغرفة ، الضيقة ،

المعتمة ، التى لا مخرج آخر لها ، وعندما أطل بدا مختلط التعابير ، لم يجد أثرا للأمير . وحتى الآن . يقف الأدلة ، قائلين باختصار .

« هنا اختفى أمير الصين .. »

لغز لم يحل ، وأحجية لم تفسر ، وبالرغم من تغير نظام الحكم فى الصين ، وقيام الجمهورية ، ثم اعلان النظام الشيوعى ، فإن طلب البحث عن الأمير يتجدد كل سنة ، بل إن ماوتسى تونج بعث برسالتين إلى الرئيس الاتحادى ، أحدهما أثناء الثورة الثقافية ، وكلف سفيره بمقابلة عمدة المدينة ، ثم تكرر الأمر فى كل سنة مرة ، يتم خلالها الإشارة إلى الاثر السلبى لاستمرار الغياب على العلاقة بين البلدين .

تعددت التفسيرات فى ذكر أسباب الالاح الصينى رغم تبدل النظم والعادات ، فمن قائل أنها العادات الموغلة فى القدم ، وثمة من يؤكد أن الأمير يعرف مواضع أخفيت فيها كنوز الأسر المتعاقبة . لكن الاغرب بدء ظهور بعض ذوى الملامح الصينية فى المدينة ، جاءوا فرادى على مسافات زمنية متباعدة ، حتى أن وجودهم لم يلحظ إلا بعد الاحصاء الجامعى للسكان والذى يتم مرة كل عشر سنوات ، وجدوا شارعا بأكمله يقطنه الصينيون الذين حصلوا على تصاريح اقامة دائمة ، وأتقنوا لغة البلاد ، ولهجة المدينة كأنهم ولدوا فيها ، لكنهم لم يبدلوا أزياءهم ولا عاداتهم ، ولقنوا أطفالهم فى البيوت لغة الاباء والأجداد ، ثم تزايد عددهم ، حتى عرفت المنطقة الغربية المحاذية للبرج بالصين الشعبية ، وذلك لازدحام شوارعها وأزقتها ، ومعالم الحياة البادية من لافتات كتبت بالحروف الصينية ، وكرات حمراء معلقة أمام البيوت ، ومداخل المطاعم ذات الخشب الملون ، هرمية الشكل .

يوم اختفاء الأمير ، فى كل عام ، يتوجهون إلى البرج ، يصعدون السلم

الدائرى فى هدوء وترتيب ، يؤدون صلاة خافتة ، يبدون حزنا وأسفا ، ثم ينصرفون بهدوء ، أمن البلدية أبدى انزعاجه فى البداية ، لكن العمدة قال إن التقاليد تحرم التصدى لهم ، ماداموا لم يلحقوا ضرراً بالآخرين ، ولكن المسؤولين عن الأمن لزموا الحذر ، وصدر قرار خفى بتخصيص فرع لشئون الصينيين وأحوالهم ، وخاصة بعد معلومات تؤكد أن اختفاء الأمير ، ومجىء هؤلاء له علامة ما بمقبرة كبير الفلاسفة الأربعين .

بعض الجامعيين لحوا إلى دفعهم مبالغ كبيرة إلى مسئولين فى البلدية للمساعدة على توطيئهم ، وأن ثمة هدايا ثمينة تصل فى وقت معلوم من تجار أثرياء يقيمون فى أوروبا وأمريكا وبلدان الخليج العربى ، كما أنهم يدعمون تلك الجالية الصغيرة بوسائل شتى ، حتى تستمر أقامتهم إلى لحظة موعودة يظهر فيها الأمير المختفى ، والمحتجب لأسباب ربما يكتهما كبارهم .

هذا أغرب ما سمعه من حوادث حول البرج ، لكن ثمة واقعة أخرى علقت بذاكرته ، وأستعادها فيما بعد مبتسما ، ذلك أنه تولى البلدية عمدة قصير القامة ، بقدمه اليمنى عرج خفيف ، جرى ذلك عقب افتتاح قناة السويس مباشرة ، واتصال البحرين الأبيض والأحمر ، كان رجلا حسن السمعة ، طبيب الإقامة ، نظيف اليد ، صارما ، دقيقا ، وخلال ولايته القصيرة حقق مكاسب جمة للبلدية على حساب الجامعة ، ضمن ذلك مسئولية البلدية عن جميع شوارع المدينة . بما فيها المحيطة بالمباني الأثرية ، وصهاريج المياه ، وأضرحة الفلاسفة التسعة والثلاثين . والى تفصل مباني الجامعة أو تؤدى إليها .

شق ذلك على الأساتذة حتى أقدم أحدهم على اشعال النيران فى نفسه ، ولم يستطع أحد انقاذه ، لكن تمت معالجة جمجمته وأضافتها إلى الغرفة

الخاصة بالمستشفى الجامعى والتي توجد فيها جميع جماجم الأساتذة الكبار ، أو الذين نبغوا وقدموا أعمالاً استثنائية منذ تأسيس الجامعة .

أدى انتحاره إلى أمرين ، الأول ، إيقاف الاجراءات الخاصة بمد سلطة التفقيش المعمارى إلى المباني الجامعية ، والثانى وضع علامات مميزة في الشوارع والطرق التي تتبع ممتلكات الجامعة ، اتفق على تمييزها بصف براميل حمراء ، وأخرى بيضاء في كل طرقات المدينة التابعة لاشراف البلدية ، على أن تخصص لجمع القمامة ، وهذا فارق دقيق لا يلحظه الزائر العابري ، كما أنه يثير دهشة البعض ، لكن بقاء البراميل مثبتة إلى قواعدها من عوامل الاستقرار في المدينة ، ومنذ سنوات جرت محاولة استبدال القديمة الخشبية بأخرى من البلاستيك المقوى ، محل الصنع ، لكن مجلس الجامعة الرئاسى عارض بحجة عدم المساس بالتراث ، فاتفق على ارجاء الموضوع إلى وقت آخر ، ومرت سنوات بدون أن يتم ذلك

المهم .. كان عمدة البلدية الأعرج ، مراعيًا للتقاليد ، محباً للتفقد ، في زمنه تم تجديد الزى الخاص بحراس المدينة ، وقوات الأمن ، ومن أقواله الماثورة التي كتبت على لافتات ، وطبعت مرارا ، ما ذكره في حفل استعراض قوات المطافئ بعد تغيير أزيائها ، إذ قال انه ليس معقولا دخول القرن العشرين بملابس تمت إلى السادس عشر ، عرف في الوثائق بالأعرج ، وبين الناس بالنفقذ ، إذ كان يمر يوميا على مباني البلدية ، يتأكد من نظافة المكاتب ، وسلامة الأبواب ، والمنافذ ، والمداخل ، ودورات المياه ، وانضباط الأمور ، وحضور الموظفين في المواعيد المقررة ، يفتش حرس البلدية مرتين ، الأولى صباحا ، والثانية مساء ، كان الحرس يصطف في كامل الهيئة في الساحة المبلطة برخام وردي ، وعندما يرفعون بنادقهم ، ويشهر القائد علم المدينة ، يبدو مشهد مشيه المتمهل ، البطيء ، لم يقم بمرور شكلي ، إنما حقيقى ، متمهل ،

مرتديا المونوكل فوق عينه اليمنى ، يتوقف أمام ثنية القميص ، أو عند بقعة باهتة لا تلاحظ إلا بصعوبة ، ومما شاع أنه زار يوما مدينة البندقية، أعد عمدتها استقبالا رسميا جرت مراسمه في ساحة البلدية ، في صفين متوازيين وقف الحرس الايطالى المنضبط ، الذى تم اختياره بعناية من جنود متشابهى الملامح ، والاطوال ، يرتدون الزى الرومانى الأصلى ، فوجئى القوم بتوقف الاعرج قبل وصوله إلى محاذاة العلم وقيامه باداء التحية ، أبدى التأفف ، أشار إلى حشرة في حجم البرغوت ، ميتة ، عالقة بياقة الفرو البيضاء ، تسال من مشمئزاً . ما هذا ؟ ونشبت أزمة خفية احتاجت وقتا لمعالجتها .

أسبوعيا يتفقد قوات المطافئ ، خاصة يوم الأحد ، يستعرض العربات ، وأدوات الاطفاء ، يطمئن إلى سلامة المضخات ، وخرطوم المياه ، أيضا .. انضباط الجند .

في الأيام الأولى من كل شهر ، يقوم بتفقد مفاجئ لمحطة السكك الحديدية، ومحطة تنقية مياه رى الحدائق ، والكهرباء ، ومبنى البريد ، ومركز السيطرة على مصابيح الشوارع ، ودورات المياه العامة ، وسوق الخضار والفاكهة الرئيسى ، والسلخ اليدوى ، كثيرا ما توقف أمام صناديق البريد العمومية ، ليتأكد من جمع الخطابات في المواعيد المحددة .

قبل بدء العام الدراسى يتفقد فصول المدارس الابتدائية ، والكتب ، والكراسات ، ومن المؤكد أنه تحرق شوقا لتفقد منشآت الجامعة ، لكنه لم يشرع بسبب نصيحة أكبر الأعضاء سنا في مجلس البلدية الذى نصحه بارجاء ذلك ، لأن الظرف غير موات .

اكتفى بزيارة المجاملة التقليدية ، والتي يتابعها أمالى المدينة والطلاب بسخرية ، كان حلمه - كما يؤكد المقربون - أن يتفقد منشآت الجامعة ، لكن لم يحدث ذلك قط ، إذ جرى له ما لم يتوقعه أحد .

صباح اثنين مشمس ، دافئ ، اتجه لتفقد البرج ، أمام المبنى تمت الاجراءات المعتادة حيث استقبله كبير مهندسى البلدية ، ورئيس قسم آثار العصور الوسطى بالجامعة ، وهو من الشخصيات المعروفة لارتباط اسمه بالحفاظ على المباني العتيقة ، وتديره الخطط لصيانتها ، والعناية بها ، وبراؤها في أحسن صورة للناظرين ، تشرف البلدية على البرج ، لكن الترميم والحفاظ على الطابع ، فمن اختصاص الجامعة . طلع الدرج يتقدمه كبير مهندسى البلدية المعتمدين ، في الضوء الخافت لمح شقا في الجدار لم يره من قبل ، توقف ، اتخذ الوضع الصارم للمتفقد . اتجه ببصره إلى الأستاذ الجامعى ممهدا لالقاء المسئولية . مد يده صوب الشق ، انتفض بغته ، صرخة وعرة بددت جموده ، تورمت أصبعه بسرعة ، الحل الوحيد - كما قيل فيما بعد - بترها في نفس اللحظة ، لكن .. أين المعدات ، أين من يمكنه القيام بذلك ؟ حية صغيرة ، دقيقة ، محنطة الآن في متحف الأحياء الطبيعية بالجامعة ، تنتمى إلى فصيلة نادرة جدا لا توجد إلا في الصحارى الجنوبية ، كيف وصلت هنا ؟

قيل تفسيراً . في الزمن القديم استخدم المحاربون قنابل تقذف بالمنجنيق . لم تحو حجارة أو بارودا ، انما ثعابين فتاكه تم جمعها من بقاع شتى لقصف القلاع محدودة المساحة عند الحصار ، أو المراكب البحرية عند التلاحم ، ويبدو أن البرج تعرض لحصار ما غير معروف الآن . وأن منجنيقا محشوا بالحبات انفجر داخله وعشش بعضها في الزوايا الخبيثة وتناسل حتى جرى ما جرى .

المهم .. راح العمدة الأعرج بسبب عضه ، ومع مرور الزمن بهت خبره ، عدا السخرية الهادئة التى تلوح عند استعادة حبه للتفقد .

البوابات السبع ..

.. يمثل البرج إلى غير مدى ، الاحساس بحضوره قائم حتى وإن أولاه ظهره ، أو حالت دونه جدران ، لانتصابه الغار بعد انساني غامض ، فكأنه يرقب كل ما يجرى بوسيلة ما ، ربما لهذا السبب تضمن المعتقد القديم عنصرا يجعل أهالي المدينة يتجهون إليه بوجوههم عند نومهم ، أو يتطلعون إليه قبل رحيلهم ، والعجائز يلمسون أحجاره ويخاطبون بواباته الصغيرة ، بعبارات متوارثة ، أجرى قسم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية بحثا حولها ، وأفرد له التليفزيون الاتحادي حلقة خاصة في برنامج « أمسية ثقافية » .

يتطلع إليه بعد تجاوزه ، حجارة صغيرة غامقة الحمرة ، تماثيل دقيقة حول الافريز الرخامي أعلى المدخل ، فتحات دائرية متعاقبة على امتداد الارتفاع ، ثلاثمائة وست وستون ، عند شروق الشمس تنفذ أشعتها من فتحة معينة ، ولا يتكرر الأمر إلا بعد سنة ، وهذا عجيب !

طبقا للخريطة يلزم الجانب الأيسر ، منحدر قليلا ، الأقواس تحد جانبيه ، أعمدة مرمرية ، لوتسية التيجان ، يتغير لون البراميل الموزعة على الجانبين ، حمراء الآن ، هواء بارد ، منعش ، تغد إليه رائحة ما ، مبهمة ، مستعصية على الشرح أو التفسير ، تستنفر لحظات نائية من ثنايا ذكاراته ، وقت خروجه الصباحى الباكر في سنوات عمله الأولى ، يقف على محطة الحافلات ، يبدأ توافد طالبات المدرسة الثانوية ، كن نافرات النهود ، خفرهن باد وإن بدت

عيونهن هجومية ، هكذا يراهن الآن بعد مضي أكثر من ربع قرن ، يلمح
اقبالهن على الدنيا ، يقفن متقاربات ، هامسات أو ضاحكات ، متطلعات
خلسة هنا أو هناك ، عند لحظة معينة تقبل ، نضرة ، فواحة ، تقف مختالة في
سكونها ، فواحة في حركتها ، حتى إذا هزت رأسها لتلملم شمل شعرها ،
لظهورها زلزلة ، عند ركوبها المتمهل ترمقه خلسة ، فضولية ، مستفسرة ،
تتصل العيون لثوان مارات ، غير أن الأمر لم يتعد حدود النظر ، لم يفض
الصمت قط ، خجل أول العمر ، نما عنده وتبدد مع تقلبه في البلاد والسنين ،
أثر يبدو منه في لحظات التقارب الأولى مع كل امرأة يشرع لاجتياز عالمها ،
لكم دنا ، لكم اتحد ، بعض من انصهر جسده داخلهن نسي ملامحهن ، عبثا
يحاول التذكر ، ولكن إذا هفت عليه تلك اللحظات النائية ، وأطل الوجه الذي
لم يعرف إلا النظر إليه من بعيد ، فإن قلبه ليدفق ، كأنها ماثلة ، شاختة
إليه ، لحظات نهائية ، لا تواتيه عند مروره بالمكان القديم ، أنما تنتفض حية
إذا هب مثل هذا الهواء الهين ، أنوثى الملمس والسرمان ، يذكر قامتها ،
سموقها ، اهتزاز ثوبها المسدل على أردافها وبطنها الأخصص بدءا من
خصرها النحيل ، تدب عنده رغبة ، فكأنه يتمنى مضاجعة الهباء ، عناق
العدم ، ربما فارقت العالم كله ، ولو ظهرت أمامه الآن ، هل ستعرفه ؟ .
يستعيد وقفته في مواجهتها أو بالقرب منها فيرى نفسه مكتملا ، كأنه يتطلع
إلى ذاته من خارجها ، فلا يرى إلا غريبا عنه ، أحقا يمت إلى نفسه ؟ ، تلك
الملامح ، هذا التردد ، الأحاسيس البكر الغضة ، النزوع إلى انطواء ، الشروع
في الحنين الوعر ما قبل الغيب ، ثقل الوحدة ، السعى إلى الصحب .

فترة نائية ، منقطعة ، منبثة ، عمر مكتمل ، معلق ، لا يمكن فضه ، أو
التعلق بوشائجه ، تتمهل خطاه عند المنحنى ، يستعيد اللحظات المندثرة في

أرض يطأها لأول مرة ، لم يتخيل أنه بالغها في هذا الصباح المزهرية البعيدة .
حتى لو أنها تسعى الآن في مكان ما ، فهي ليست موجودة بالنسبة له ،
يتعلق بالامرئى ، وينتشى بالخواء ! يتوقف ..

انه في مواجهة بوابة حجرية ضخمة تتوسط الطريق ، تقسمه نصفين ،
أشبه بقوس نصر ، لكنها ليست كذلك ، لا تؤدي إلى شىء ، من فراغ إلى فراغ ،
كل الأبواب تؤدي إلى حيز محدود ، عدا تلك ، فمن أين الدخول ، وإلى أين
الخروج ؟ حجارتها بادية ، مستطيلة ، صفراء ، لون مختلف عن الوردى
الغامق الذى يوحد مبانى المدينة ، عددها سبع ، أسهم صغيرة تشير إلى
مواقعها في الخرائط والنشرات السياحية ، الغرض من بنائها مجهول ،
خاصة أنه لا توجد لوحات تذكارية ، أو أى اشارة تحدد تاريخا أو زمنا
بعينه ، لا نقوش أو حروف أو نحت ، بوابات صارمة ، العارضة العلوية شبه
مثلثة ، أطلق عليها السكان أسماء من خلال المعاشية والموقع ، تلك التى مر
بها اسمها « الجامعة » ، أما البلدية فترقمها وتعتبرها من الآثار العتيقة التى
يمنع المساس بها أو البناء بجوارها ، ويقال أن ثمة خطة للتقريب عن
أسرارها ، لكنها لم تتم بعد .

للمدينة أربع بوابات رئيسية تتخلل السور القديم ، لا تزال بعض أجزائه
قائمة ، كل منها تواجه إحدى الجهات الأصلية ، منها تمتد الطرق المؤدية ،
وضع أساسها الفلاسفة ، أما البوابات الداخلية السبع فمجهولة المنشأ .

يمضى متمهلا ، مسرورا لفرصة المشى المتاحة الآن ، في موطنه لا يمكنه
ذلك ، الانشغال دائم ، والارهاق واقع ، أحيانا يمضى اليوم بدون خلوة إلى
ذاته ، واذ يستعيد أيامه المتتالية لا يلمح حدثاً بارزاً ، أو أمراً ذا خلاصة ،
فيضيق بالرتابة ، وذهاب الأويقات سدى ، يتسع الطريق .. فيستعيد ساحة

فندق قديم اعتاد أن يمضى إليه طفلاً بصحبة والده ، ليلتقيا بالقادمين من البلدة النائية ، وبعض الرواد الذين ارتبطت بهم الوشائج وأصول الصحبة ، لماذا تذكر هذه اللحظات النائية الآن ؟ ماذا استثارها ، وما الذى استدعاها ؟ .
يعجب لقانون الذكرى ، لماذا تفد لحظة دون أخرى ؟ ، ترد عليه شوارع في مدن عديدة نزلها ، أنه يمضى متمهلاً ، مستكشفاً مدينة جديدة ، ربما لن يبلغها مرة أخرى ، ولكنه يطلع في الوقت عينه على مدينة أخرى تمتد داخله ، من شظايا أماكن أقام بها مدداً متفاوتة ، مدينة تواتيه ، تفاجئه في أى لحظة فتطلعه على شيء من مكنونها ، ثم سرعان ما تحتجب ، الأماكن الحقيقية تلك التى يقدر على استعادتها ، أو تسترجعه هى ، حتى وأن نأى عنها وابتعد ، ما يمر به الآن ، يراه من موقع لحظة آتية ، قد يبلغها ، فما الذى سيبقى . وماذا سيمثل ؟

هذا سور حجرى ، ينتهى بقضبان حديدية ، متعانقة ، تتخلله أبراج حجرية تنتهى بقباب صغيرة تتوجها نجوم خماسية مشرعة ، تمتد حديقة من حشائش خضراء ، زاهية ، درجة صافية من اللون الأخضر ، كأنها غسلت للتو بالطل ، بعد صفين من أشجار نحيل ، مورقة ، يبدو المبنى الرئيسى لإدارة الجامعة ، قديم ، صلب الحضور ، له وطأة ورصانة ، لا يمكن الاقتراب منه إلا على مهل ، بتأن ، وثمة رهبة حذرة .

لا يؤدى المدخل الرئيسى مباشرة إلى الدرج الرخامى ، إنما إلى ساحة فسيحة مربعة ، تطل عليها نوافذ مكرورة ، متشابهة ، لوحات عديدة للإعلانات ، أوراق شتى ، أبيض ، أصفر ، بطاقات ملونة من ورق مقوى .

محاضرة بالمدرج الثانى حول طرق تدوين التاريخ الوسيط .
دعوة لحضور جماعة مناهضة التفرقة العنصرية يوم الثلاثاء .

أمسية شعرية ينظمها الطلبة الواقدون من الغرب .
اعلان عن فقد حافظة نقود بداخلها أوراق هامة .

دعوة أساتذة الدراسات الدراسات العليا لبحث التطورات المقرر اتخاذها
من جانب البلدية بخصوص الحد الغربى لكلية الدراسات العلمية .
اضراب يوم السبت لمدة ساعتين احتجاجا على تركيب سقف كهربائى
متحرك لمسرح المدينة الصغير بدلا من السقف التقليدى .
دعوة للتبرع بالدم فى المستشفى الجامعى .
بيان من الجماعة المؤيدة للثورة الفلسطينية .

على اللوحة المجاورة لافتة وحيدة مكتوبة بلغة تقليدية حول المؤتمر الذى
جاء مدعوا إليه، الأول فى سلسلة تنظم على مدار السنة بمناسبة مرور تسعة
قرون على تأسيس الجامعة .

قائمة المدعين ، يقرأ الاسماء التى تسبقه والتى تليه ، أمامه وقت .
حوالى ساعة ويبدأ الاجتماع الافتتاحى ، نصحه المغربى بالتزام الحذر ، فى
لهجته ، نظرته عند مصافحته ، شىء ما غير مريح ، كيف لم يلاحظه فى
أنيته؟ ، ربما غشاوة النبذ الجيد ، يخفى المغربى أكثر مما يظهر ، يومئ ولا
يكسر . يرجئ جولته بالحديقة وفرجته المتأنية على المبنى ، لابد من تسجيل
اسمه ، حتى الآن كأنه لم يصل بعد .

فى المدخل أبدى الظلال ، المثلث بانبعاثات أعمدة الرخام الخفية توقف .
منضدة مستطيلة . مغطاة بملاءة بيضاء . تدون أوراق وتفتح ملفات
وتراجع بيانات ، كتب مصفوفة ، وكوب من خزف تطل منه أقلام ، عندما
انحنى بدا رفاها ممثلثان رغم نحول قامتها ، حافة سروالها الداخلى ،
اعتدلت فتلقت ، تداركت أمرا يجهله فأومأت مشيرة بأصبعها ، عيناها

فسيحتان ، تطلعت إليه مبتسمة ، تستمعله حتى تفرغ ، يتخيل ملامحها في لحظات الخصوصية ، عند العناق ، بعد اجتياز بوابة عالمها الحسى ، لم تلتفت نظره أنثى إلا رآها بعينى عقله عند انطلاق أسارها ، وانفلات عقالها ، كل منهن كون صغير مختلف ، الاصوات لا تتشابه ، كذا الغنج والرهز ، وفى ذورة الاندماج ، يتبدل الوجه الفتى أمامه إلى ما سيكون عليه بعد الطعن فى السن ، والامعان فى الشيخوخة ، بل يكاد يتلمس الهيكل العظمى الذى سيتفكك ، ويتذرى ، طاويا كل ما ضج حوله يوما من أشواق ، وآلام وملذات لا تبقى .

تقبل عليه ، تبدى ودا وظيفيا ، إلا أن ثمة مسافة غير منظورة تفصلهما ، تتأمل جواز سفره ، تقلب صفحاته ، تنقل بياناته المكتوبة باللغة الافرنجية . تقدم إليه وريقات أربع لابد أن يخطها بنفسه ، عديد من الاستفسارات ، تاريخ الميلاد ، الجهة ، جامعة التخرج ، سنته ، البلاد التى زارها ، الدرجات العلمية ، الحالة الاجتماعية ، هل زار المدينة من قبل ؟ هل يشكو أمراضا معينة ، إذا سبق له المجيء ، فأى جهة كانت الداعية ، الجامعة أم البلدية ؟

عندما تقدم إلى سفارة الدولة للحصول على تأشيرة الدخول ، ملأ استمارة مشابهة تماما ، اجراء مكرر ، فيما بعد علم أن السفارة لا ترسل البيانات إلى الجامعة ، انما إلى البلدية ، لأن الضيف سينزل المدينة وقيم بها ، الأمن يتبع البلدية ، به قسم خاص بشئون الأجانب الوافدين سواء لفترات قصيرة أو طويلة ، متصل مباشرة بإدارة الهجرة الاتحادية التابعة لوزارة الأمن ، وتعتبر من أقوى الوزارات نفوذا ، ويتولاها عادة أحد عتاة الحزب الليبرالى الحاكم .

عندما مدت البطاقة المغلفة لم ينتبه ، كان يستعيد البوابة الحجرية ،

قيامها الغامض في الطريق ، ظهورها المفاجئ ، سيحاول رؤية البوابات الست ، ينزل المقابر الفرعونية ، الأبواب الوهمية ، أحقا كانت لمجرد تضليل للصوص ؟ ، والأم تؤدي ، أو ترمز ؟ ، هذا محير ، دائما تؤدي إلى شيء ، لكن.. هذه ، ما الغرض منها ؟ يتأمل البطاقة . مدون عليها اسمه ، درجته العلمية ، وتخصصه ، توقيع مدير الادارة ، وقائد الحرس الجامعى ، لاحظ نقاطا سوداء بارزة غير متساوية ، تتصل مباشرة بمركز الحاسب الآلى في البلدية ، إذا اعترض طريقه أى حارس أمنى ، فلا بد من ابرازها . عندئذ يضعها في جهاز صغير به شاشة ، يضغط رموزا معينة ، عندئذ تظهر كل المعلومات المطلوبة ، لكن الاطلاع عليها لا يعنى عدم طلب جواز السفر ، خاصة بالنسبة للأجانب ، وهو هنا أجنبى .

البطاقات حديثة ، تعميمها لم يتم إلا بعد جدل علنى عنيف ، اعتبرتها الجامعة مساسا بحرية الإنسان ، فالمعلومات الجديدة ليست تقليدية ، انما تشمل الحالة الصحية ، والأحوال النفسية ، والمزاج الجنسى ، والقدرة على الجماع . هكذا يمكن لأى جندى الاطلاع في لحظات على أدق الشئون الإنسانية . صحيح .. هناك قسم خاص بإدارة الأمن يهتم بالشئون الداخلية . لكن أفرادها غير معروفين ، والمعلومات فيه غير متاحة إلا لأهل الاختصاص ، صحيح أيضا ما تردد عن امكان الوقوف على بعض الأسرار مقابل رشوة مرتفعة ، لكن لم يتم هذا إلا في أطر محددة ، ومقابل مبالغ باهظة يعجز عن دفعها سائر الخلق ، أما البطاقات فتجعل صفحة كل إنسان مكشوفة ، مباحة ، وهذا صعب ، يتنافى مع الدستور القائم ، وحقوق الإنسان التى أقرتها الأمم المتحدة .

قاد رئيس الجامعة الحملة ، ونظمت اضرابات عديدة ، ورفعت اللافتات

الاحتجاجية فوق مباني الكليات والمعاهد . وعقدت مؤتمرات صحفية ، ونظمت مسيرات ، لكن رئيس البلدية تصدى بحزم صارم ، أعلن أن الاحتجاج موجه في جوهره ضد السلطة الاتحادية ، وهذا مخالف للمادة السادسة من الدستور ، وأكد أنه سوف يتصدى لأي مسيرة تتجاوز الأسوار الجامعية ، وقال إنه تم تزويد الحرس ببنادق آلية تطلق رصاصات مطاطية تصيب الإنسان بجروح غير قاتلة لكن من الصعب مداواتها ، واتبع تصريحاته بحضور تدريب لاطلاق هذه الرصاصات جرى فوق تل الفلاسفة المشرف على الحد الغربي ، ويقال أن الاربعين نزلوا عنده .

جرى تنظيم حملة مضادة ، أوضح خلالها ضرورة استخدام تلك البطاقات ، خاصة مع تزايد أخطار الجماعات الإرهابية ، ونمو قوى المعارضة السرية . عمت البطاقات . ولم يستثن الغرباء ، وكل من تزيد مدة أقامته على ثلاثة أيام ، تقول الفتاة أنها لا تغنى عن ضرورة الاحتفاظ بجواز السفر ، هذا متبع مع سائر الأجانب وما هو الآن الاعابر ، هل رmqته الفتاة بنظرة ود خاصة ، مصادفة ، أو قصد؟ ، لم يدر ، إنما جابوب التحية بأحسن منها ، يمضى صوب السلم العريض ، مستنفرا بهجة غامضة ، متأبطا الحقيبة الصغيرة التى تسلمها ، أوراق المؤتمر وبيانات ومعلومات ارشادية ، ولسبب قديم غامض كنهه ، تساءل ، أين سيكون فى مثل تلك اللحظة ، العام القادم؟

.. خلاصات اجرائية ..

.. حميمية البدايات ، مجاملة ، حذر ورغبة في سبر كنه الآخرين ، ما يترتب على دنو أطراف تلتقى أول مرة . كل جاء من مكان قصى ، لأيام متتالية ستتكرر اللقاءات صباحا ومساء ، اعتادها ، يتبادل العناوين وأرقام الهاتف ، يمضى متأثرا بلحظات الافتراق ، بعد الأوبة يختفى هذا ويعدده ذاك ، تفقد الملامح ، تتبدد الخصائص ، تتداخل القسمات ، ما يتبقى شظايا ، أثر عودة أحدهم إلى بلده في أقصى أمريكا الجنوبية ، أرسل إليه بطاقة يتمنى فيها عاما جديدا ، سعيدا ، وسطرا علق بذهنه يقول فيه إن المسافات قصية ، ولكن اللقاء ليس مستحيلا ، كان أسمر البشرة ، ودودا دائم الابتسام ، والحديث عن طفله الوحيد ابن العامين ، أنجبه بعد عسر طويل ، كان شرقي الحضور والمودة ، يتوافد أعضاء المؤتمر ، يبدى بعضهم الرغبة في القربى ، يعرف أسماء بعض المشاركين فهم من أهل الاختصاص ، رجل طويل ذو لحية طويلة مدببة ، يميل منحنيا ليقرا الاسم المكتوب على البطاقة المعلقة الآن على صدره ، يعتدل واقفا ، يهز رأسه مرات ، يقف البعض قرب المدخل ، عشرون دقيقة مضت على موعد الافتتاح ، لم تبدأ الجلسة بعد ، علق أستاذ أكاديمي قصير القامة ، دائم الحركة ، قال إنها علامة غير جيدة ، أشار إلى أهمية انضباط المواعيد ، وعندما فتح الباب الشاهق . المؤدى إلى فراغ مؤطر

رخيم ، فيما بعد تكشف سبب التأخير ، إذ وقع خلاف ، سببه ترتيب الجلوس فوق المنصة ، من .. إلى يمين وإلى يسار رئيس الجامعة ؟ ، التقاليد غامضة ، المناسبة تحل كل قرن زمانى ، الرجوع إلى آخر احتفال غير مجد ، كان الواقع مغايراً ، لم يمض على اعلان الدولة الاتحادية زمن طويل ، كان نفوذ المؤسسة الدينية راسخاً قويا ، هذا ضعف خلال السنوات الخمسين الاخيرة التى تم فيها فصل الدين عن الدولة ، لهذا لم يكن أى احتمال لدعوة أحد رجال الدين للجلوس فوق المنصة ، حدد مكانه فى الصف الاول بين المقاعد المخصصة لعمداء الكليات النظرية .

بدأت المناقشات ليلية أمس ، وبلغت درجة الحدة فى بعض الأحيان ، حتى حسم الأمر بقرار شبه جماعى ، أن يخصص المقعد الأيمن لممثل السلطة المركزية ، أما اليسار فللضيوف ، إذن .. من ؟ . المحليون أو الأجانب ، انتق على الوافدين من الخارج ، إذن .. كيف يتم الاختيار ، من الغرب ، عن الشرق ؟ ، من العلماء ، من الأدباء ؟ ، من الكتاب الدارسين ، أو الصحفيين أو المبدعين ؟ ، من ذوى المكانة أو من ذوى الذبوع والانشاء ، أو من الحاصلين على جوائز معترف بها ؟ ان أى خطأ غير مقصود ربما يؤدى إلى انسحاب البعض ، أو تقديم احتجاجات من السفراء فوق العادة المعتمدين فى العاصمة المركزية ، تم الاتفاق على تخصيص المقعد لممثل منظمة التربية والعلوم والثقافة العالمية ، كان يونانيا معدنى الصوت ، متوسط القامة ، غليظ العنق ، طويل شعر الرأس ، فى عينيه تعبير مقيم عن الألم أو الشكوى من شىء ما ، دائم التطلع إلى السقف ، محب لاطالة الحديث ، خاصة عند التعقيب ، أو تقديم الاقتراحات ، والاشارة بأصبعه إلى غير ذى قصد .

هكذا .. تم تقادى دعوة رئيس البلدية للجلوس إلى يمين رئيس الجامعة

كما جرى قبل ثلاثة قرون عند الاحتفال بالذكرى المئوية السادسة ، في السابعة وقع أمر لم يتكرر على امتداد التاريخ المعروف ، كان رئيسا البلدية والجامعة شخص واحد ، استثناء لم يحدث من قبل ولا من بعد ، لم يستمر أكثر من ثمانية عشر شهرا ، عندما أصبح صعبا عليه تسير دفة الأمور في الناحيتين ، وعدت هذه التجربة من المستحيلات التي لا يمكن تكرارها .

ترتب على عدم دعوة رئيس البلدية إلى المنصة الرئيسية ، أن الصحف الثلاث التي تصدر في المدينة ، والمعبرة كلها عن وجهة نظر البلدية تجاهلت الاحتفال ولم تردد أخباره إلا في صفحة الحوادث المحلية والجرائم وبعض الاعلانات الخاصة بالمدينة . أما مراسلو الصحف الرئيسية في العاصمة فيبدو أن علاقاتهم ومصالحهم مع البلدية ألزمتهم نفس الموقف ، وزير السياحة الاتحادى أبدى قلقه من موقف البلدية ، خاصة بعد منع المصقات الجامعية من شوارع المدينة ، عدا الأجزاء المحددة بالبراميل الحمراء ، قال إن فرصة ضاعت لا تتكرر إلا كل قرن مرة ، كان ممكنا استغلالها بحيث تحدث ردود فعل قومية ، كان ممكنا تدفق آلاف السياح على المدينة ، وحضور الاحتفالات خارج أسوار الجامعة ، والفرجة على موكب الاساتذة بالملابس التقليدية ، لكن للأسف لم يحدث هذا .

جانب آخر أثار جدلا ، فطبقا للتقاليد المدونة يتم اخراج المقعد الرئاسى من المخزن مرة كل سنة ، أثناء الاحتفال بتخريج طلبة الدراسات العليا ، عمداء الكليات النظرية رأوا أن ظهوره يعنى اخلالا بالنظم المرعية ، لكن عمداء الكليات العملية أصروا ، وأبدوا دهشتهم ، ليس معقولا اخراجه في الحفل السنوى ، وفي الحفل المئوى الذى لن يشهد كل المشاركين فيه الحفل القادم يتم أخفاؤه ، هكذا انتهوا أخيرا إلى فتح المخزن وحمل المقعد منه مباشرة إلى المنصة .

إغفاءة قسرية

.. قرب نهاية الجلسة ، هما عليه وجد ، إذ خيل إليه أنه مفارق لدياره منذ حقبة طويلة ، لم يستطع تحديد عمقها ، لكنها قديمة ، ذات عمق ، تحوى بعدا قصيا ، مع أن ما أمضاه هنا يعد بالساعات ، سواد ليلة وسويغات نهائية ، فلماذا الاقصاء وشحط المدة ؟ داخله ثقل يستعصى على الفهم ، ويصعب على الاحاطة ، ما مصدره ، ما سببه ؟ لم يدر ، حاول التعلل بهذا السبب أو ذاك ، مثلا .. عتاقة المدينة ، واجهاتها الوردية المتشابهة والأبنية التى تشربت ما يكفى من الوقت ، الاقواس المتوالية ، المتصلة ، توحد أطراف المدينة بمركزها ، كأنه ينتقل من فناء إلى فناء ، أو من حجرة إلى أخرى فى بناية هائلة مفتوحة على الفضاء اللانهائى ، ولأنه اعتاد السهر ، كان يجثم عليه ضيق بعد انتهاء العشاء فى المطعم القريب من الفندق ، خصصوا للضيوف قسما منه ، قدموا لكل منهم عددا من البطاقات ، كتب فوق بعضها: غذاء والأخرى : عشاء . احصى ما تبقى ، ست فقط ، بقى .. ثلاث ليال فقط ، فى بداية اليوم الرابع يركب قطار العاشرة وخمس وعشرين دقيقة ، يصل العاصمة ، يمضى ليلة لاغير ، ثم يقلع ، يضيق الآن بالترحال ، خاصة ما لا يحدد وقته ، ولا يختار جهاته ، أسفه الممزوج بالحنين إلى أيام نأت اشتاق فيها إلى رؤية ما وراء الديار ، أماكن لم تقع عيناه عليها ، ومدن

تختلف كل منها عن الأخرى ، لا تتشابه ، لكن .. ألا يبدأ توقه إلى التغرب بعد عودته، استقرار اقامته ؟، لم يلزم جانباً بعينه ، يحن في ثباته ، وفي خروجاته ، كل هواجسه تشب خلال السنوات الأخيرة ، لا يدري متى بدأ بالضبط خوفه من اغماض عينيه إلى الأبد في أيام غربته ، تتوالى على ذهنه المكثود تفاصيل مابعد فناء وجوده ، العثور عليه في الفراش ، الاجراءات التي ستتبع ، نقل الجثمان ، مكان المواراة ، وقع النبأ على من يعرفونه ، على ذوى القربى الذين انقطعت أو وهنت صلاتهم به ، ثم بدأ النسيان وتدرجه حتى اكتماله ، يذكر قولاً قديماً ، بنيت الدنيا على نسيان الأحبة ، وما المدينة - التي يسمع الآن صوت رياح شديدة ، استثنائية ، في غير موعدها - إلا درجات ، وزوايا من النسيان ، تتلاشى من فترة إلى أخرى ، فلا تمت العناصر إلى الماضى بقدر ما تنتمى وتنسب إلى الحاضر الآتى ، حتى ما يتعلق بالفلاسفة الأربعين ، أو ما سيروى عنه إذا فاجأته المنية اثناء رقاذه أو خلال حركته في أيامه المعدودات تلك .

خواطر لا يقدر على دفعها ، وأخيلة لا يمكنه تبديدها ، وعندما اضطر في إحدى الليالى لبلع نصف قرص مهدئ حتى يرحل إلى النوم . بدأ عند صحوه أسى ، ومرثية منه إليه ، فكانه مالك بن الربيب ، الذى رثى نفسه حياً ، قبل أن يرقبه الآخرون ميتاً .

مع رحيله يبدأ توقه لتلك الهواجم ، حتى رقاذه في الفراش يتغير ، يتكوم ولا يتمدد ، يتحفز لصد أذى البغته ، كثيراً ما يشق عليه الهجوع ، فتطلع عليه شمس نهار جديد بدون اغفاء ولو يسيراً ، يحاول استعادة ملامح المدينة عبر الجزء الذى يقطعه مشياً ، عند انصراف الجمع رأى الفتاة النحيلة واقفة أمام عربة سياحية ، أشارت بيدها تدعوه ، أو ما إلى الطريق ، يفضل

المشى ، هزت رأسها مرات سريعة ، متعاقبة ، بدت رشيقة ، واثقة ، عذبة النظرة ، ولى وعنده بهجة خفية وحنين إلى أوقات لا يثق تماماً أنه عاشها .

تتفد المدينة إليه داخل حجرته المغلقة ، فتلقى تشابهاً بغرف أخرى نزلها في بلدان متفرقة ، يلاحقه ثقل فراغها ، وغموض برجها ، وتوالى الاقواس الحجرية الذى يمنحها بعداً دينياً ، كأن معبداً غير مسور ، غير محدد يتوزع عليها وينتشر فيها ، الليل طويل ، يؤكد ضرورة استبعاد النفار بينه وبين الأبنية والطرق والنواصي ، أن يحاول رؤية ما لم يره خلال الأيام القليلة المتبقية ، خاصة البوابات السبع ، دائماً قبل اقدمه على الرقاد يمتلئ بالمشاريع ، تتعاضد عنده النوايا ، وأحياناً الرغبة في مضاجعة من لم يعرفهن بعد ، أو يستعيد لحظات متعة مندثرة ، وعند صحوه يتبدد كل أثر ولا يقوم أمامه الا السعى ، لعل وعسى !

يؤدى افعاله الطقوسية متمهلاً ، تلك حافظة نقوده ، أما جواز سفره فدائماً إلى جواره ، في المتناول ، كذا كوب الماء الذى يبقيه على مقربة خشية ظمأً يحل ليلاً ، لا يبقى إلا خفقة قلب أثر استعادة لحظات توهج شاردة ، والتماس الرقاد ، والعبور برفق هين من صحو وتبدد إلى غبوق واستكانة .

بنایات..

.. یرن الهاتف ، جرس قديم ، ینبه بحدة ، فكأنه نذیر . المغربی يتحدث ، قال إنه علم بخلو وقت ما قبل الظهيرة ، ويقترح جولة بالمدينة ، أبدى شكرا ، سيطلعه على ما لا يعرفه ، فی العاشرة تماما جاء ، نشطا ، أنيقا ، یرتدى قميصا خفیفا یرز ملابسه الداخلية ، یحیط معصمه بسوار ذهبی حفر علیه الحرفین الأولین من اسمه ، بدهشة لاحظ شاربه المنق ، هل رآه أمس؟ ، لیس متأكدا ، جلس إلى جواره ، قال إن المدينة لا توحى بحجمها الحقیقی لمن یصلها بالقطار ، لكن بالطائرة یمكن إدراك مدى اتساعها ، المطار علی بعد أربعین کیلو مترا من المركز ، تلك مسافة كبيرة نسبیا ، المدينة أقلیمیة ، عندما فكروا فی اقامته أصرت الجامعة علی إطلاق اسم أحد علمائها علیه باعتبار الجامعة أساس المقاطعة ، وأهم مؤسسة تعلیمیة وثقافیة فی البلاد كلها ، لكن البلدية قاومت واعتضت ، هدد رئیسها بالتوقف عن تقديم أى مساعدة ، وقانون الإدارة المحلية یمكنه من ذلك ، هنا قررت الحكومة الاتحادیة انشاء المطار فی منتصف المسافة بین المدينة والبلدة التالیة جهة الشمال ، وتشتهر بقنوات المیاء والمصنوعات الخشبیة المكسوة بالفضة ، یقصدها السیاح للفرجة والتسوق ، قال المغربی لو اتسع الوقت سیصحبه لزیارتها ، ان شوارعها الفرعیة مائیة ، أغرب من البندقیة ، ومن البصرة ، أما جسورها العتیقة فتعد منشآت فنیة رائعة ، كذلك أعمدة الانارة .

قال إنه سيغادر بعد يومين ، الوقت المتاح قصير ، قال المغربي : ولماذا العجلة ، المدينة بها الكثير مما يجب رؤيته ؟ قال إنه مضطر للعودة بسبب ارتباطات عديدة ، ثم أنه لا يشعر بضرورة للبقاء ، للمؤتمر طابع احتفالي ، وليس علميا . تساءل المغربي عما إذا كانت الخلافات بين البلدية والجامعة واضحة ؟ ، قال إنها تبدو كذلك ، وبالتأكيد لاحظها قبل غيره بعد ان نبيهه إليها أثر وصوله ، أنها واضحة في كل الجزئيات . حتى في قوائم الطعام . المطعم المخصص للضيوف يعلن أنه ينفرد بتقديم الوجبات الجامعية ، يرجع مؤرخو الجامعة عناصر تكوين الاطعمة إلى الطلبة الأوائل الذين جاءوا من مسافات قصى وحملوا معهم تقاليدهم وأمزجتهم ، اعتادوا الطهو في أماكن أقامتهم ، ثم بطل ذلك بعد تشييد المطبخ الرئيسى الذى أقيم على نفقة الأثرياء ، وهذا سبب يقوله رجال البلدية ، اشارة إلى دورها فى انشاء الجامعة وتدعيمها ، فهؤلاء الاغنياء من أهالى المدينة ، ولولا تبرعاتهم لما نمت الجامعة وتطورت ، المطبخ الجامعى اشتهر باعداده وجبات لكل الطلبة ، وكانت لوازمه مشهورة بضخامتها ، حتى قدرت فى القرن الحادى عشر مثلاً بمائة رأس غنم ، وخمسمائة رطل سمن ، وثلاثة آلاف من الطيور ، وطنين من الخضار ، ومثلهما من الفاكهة ، إلى غير ذلك من دقيق وسكر وتوابل ، لكل طالب راتب معين يوميا ، وفى البداية أكل الاساتذة من المطبخ ، لكن فى القرن الثالث عشر خصص لهم آخر ، ومعظم الوجبات التقليدية مرجعها طعام الاساتذة الذى بلغ درجة عالية من الجودة ، بعضهم وضع مؤلفات فى كيفية اعدادها وفوائدها ، فثمة مأكولات مقوية للباه ، مدرة للمنى ، وأخرى تعالج أمراضا بعينها ، وثالثة تشحذ الذهن ، وتذهب بضيق الصدر ، أغرب هذه المؤلفات كتاب وضعه أستاذ فى الكيمياء ، ذكر فيه أطعمة تحوى ألوانا من اللحم بغير لحم ، وكبد مقلية بدون كبد ، وعجة من غير بيض ، وثريد بدون

خبز أو أرز ، وحلوى بدون عسل أو سكر يضحك المغربي ، يقول إن هذه معلومات جديدة بالنسبة له ، يصمت لحظات ثم يقول ، إن الخلاف أخطر مما يتصوره البعض ، وأنه أشق ما واجهه عندما نزل المدينة منذ خمس وعشرين سنة ، لكنه مع الزمن أصبح يفهم كلا الطرفين ، يقول إنه على علاقة جيدة برجال الحكومة المركزية ، ما من وزير يجرى إلى المدينة الا تناول الغذاء أو العشاء في بيته ، انه الوحيد الذى يمكنه جمع رجال البلدية والجامعة فى مأدبة واحدة .

يصفى صامتا ، حتى الآن لا يعرف شيئا عن طبيعة نشاطه ، لماذا يقيم هنا ؟ ، رجل أعمال ، لكن .. أى أعمال ؟ لم يفصح ولم يفسر ، ومن ناحيته لم يرغب فى الاستفسار ، يقين خفى عنده أنه لن يراه مرة أخرى ، ثمة أسباب غامضة يستمد منها نفوذه ، لكنه لم يستطع تخمينها . يحيد بصره ، يرى جانب وجهه الأيمن ، يزداد يقينا بغموضه ، أنه يخفى أكثر مما يظهر ، ظل ابتسامة ساخرة على وجهه ، ما محور السخرية ؟ هل تتعلق به ؟ .

تسرع العرب ، الطرقات ضيقة ، المرور فى اتجاه واحد ، تنتهى الاقواس الحجرية ، لكن على الجانبين تتوالى أعمدة المصابيح ، قديمة الطراز ، على مسافات متقاربة ، تبدو من بعيد متجاورة ، تعرض متاجر العاديات نماذج منها ، نحيلة ، رشيقة ، حفوظ على طابعها وطرانها عبر قرون عدة ، ثمة مصنع متخصص فى صيانة أجزائها ، واحلال جديد بدلا من التآلف منها ، يدور حول ساحة مربعة ، تتوسطها نافورة تنفث الماء بتؤدة . عند بداية شارع متسع نسبيا ، مبنى رخامى قائم على أربعة أعمدة تعلوه بقايا قبة . أحد الأضرحة التسعة والثلاثين ، فيه يرقد واحد من الفلاسفة ، بالرغم من عدم اكتشاف قبر كبيرهم ، يطلق سكان المدينة على كل ضريح « مثنوى السيد الأربعين » ، يؤمنون أنهم حماة المدينة ، والذابين عنها كل شر ، يرجعون

انحسار الطاعون بسرعة زمن الوباء الأعظم إلى بركتهم ، يقول المغربي ، البعض يردد همسا ان عددا منهم أقيم على فراخ ، أو دفن فيه مجهولون ، عابرون ، وربما بعض المجرمين العتاة الذين صلبوا ، أو قطعت رقابهم في عصور بعيدة لقتلهم بشر لا حصر لهم ، أو لهتكهم أعراضا ، لكن لا يمكن الجهر بذلك في مدينة تخرج كلها ذات يوم معين في كل سنة لتضع باقات الزهور على الأضرحة في ذكرى نزولهم موضع المدينة ، وعند البوابات السبع تحية لكبيرهم الذي مازال مرقده مجهولا .

يتجه يسارا ، تتقارب المباني ، تتضام حتى ليصعب تحديد الفواصل بينها . يطلب المغربي منه التطلع جهة اليمين ولكن .. بحذر ، ميدان كبير يتوسطه مبنى ممتد ، ضخيم ، من ثلاثة طوابق ، لكنها على الطراز القديم ، مرتفعة ، نوافذ مستطيلة ، مغطاة بقضبان حديدية سوداء متعرجة ، تتلاقى عند المنتصف تماما حيث زهرة معدنية صفراء ، الزجاج مسدل عليه ستائر بيضاء ، لسبب ما خمن الطابع الرسمي للمبنى ، يوحى بالسرية .. تتشابه أجهزة الأمن ، وان بدا هذا ثقليل الوطأة ، مهيمنا طاغيا على ما عداه حتى ليتجاوز حدوده المادية إلى سائر الاطراف . فعلا .. لم يخب ظنه .

يقول المغربي إن هذا المبنى يعتبر أخطر المقار في الناحية كلها ، من داخله يمكن رؤية كل شيء ، برغم ارتفاعه المحدود ، أنه الفرع الرئيسي لإدارة الأمن الاتحادية ، يتبع العاصمة ، مديره يعين بقرار رسمي ، علوى ، لكن ثمة علاقة قوية بالبلدية ، رئيسها له مكتب داخله ، لكن متى يتردد عليه ؟ أى واجبات يقوم بها على وجه الدقة ؟ ، هذا كله غير معروف حتى .. لذوى الاطلاع .

البناية ، وما شابهها ..

.. يقال أن شيخا جليلا مر بفخ منصوب ، وإذا بطائر قريب منه ، فقال الطائر ، أيها الرجل الطيب ، هل رأيت أقل عقلا من هذا الصياد ، نصب هذا الفخ ليصيدني فيه ، أنا لن أطير ولن أقع فيه ، مضى الشيخ إلى قصده ، قضى حاجته ، وعند عودته رأى الطائر واقعا في الفخ ، فقال : عجبا ! ، قال العصفور ، إذا جاء الحين ، لم يبق أثر ، ولا عين .

لماذا تطفو هذه الحكاية إلى سطح وعيه ؟ يستعيد تفاصيلها لكنه لا يقدر على استرجاع مصدرها ، أين قراها ؟ متى سمعها ؟ لا يدري ، ربما خشية غامضة من ظرف قد يؤدي به للتعامل مع هذا المبنى الغريب ، لكن .. ما علاقته به ، صحيح أن اسمه أدرج في حيز ما داخله باعتباره ضيفا حل ، وكما تقضى النظم لابد من تسجيل كل العابرين ، للمبنى صلة وثيقة بتاريخ البلاد ، إذ يرجع تاريخ جهاز الأمن الاتحادى إلى مرحلة الحروب السابقة على توحيد المقاطعات المتصارعة ، خلالها ظهر شخص لا ينتمى إلى أهل البلاد الأصليين ، تناقضت الروايات حول انتمائه العرقى ، فأمه من الغرب ، وأبوه من الشرق ، وجده لأمه من الجنوب ، وجده لوالده لايعرف له أصل ، لكن من الثابت المقطوع به أن علاقته بالاجرام وطيدة ، بدأ صبيا صغيرا في عصابة من الغجر الرجل تخصصت في سرقة الأطفال الصغار وبيعهم لمن لا

يستطيعون الانجاب ، ثم تقلب به الحال حتى أصبح من عتاة قطاع الطرق ، ورويت عنه أخبار تدنو في كثير من جوانبها إلى الاساطير ، فمن ذلك قدرته على الهرب ، حتى قيل أنه اعتقل وسجن في كل سجون البلاد وقلاعها ، وأنه هرب منها جميعها ، فاذا كان قد سجن سبعين مرة ، فانه هرب سبعين ، لكن طرأ فجأة تحول غريب ، ماذا حدث بالضبط قبله ، هل جرت اتصالات ؟ هل تمت الاستعانة به ؟ لا أحد يدري .

المهم . أنه ظهر في العاصمة المؤقتة ، بالتحديد في مقر قيادة الجيوش الموحدة التي أخذت على عاتقها مهمة توحيد الولايات المتنازعة بالقوة ، في هذه المرحلة بدأ تأسيس جهاز الأمن الموحد ، ومما قيل عنه ايمانه أن وحدة البلاد الحقيقية لن تتم إلا من خلال جهاز أمن قوى ، جاثم ، يمسك الأطراف ، ويحدد البؤر النشطة ، مثل هذا لا بد أن يقوم على جهد عتاة متمرسين ، قساة القلوب ، وبالفعل أقدم ، بذل نشاطا كبيرا لجمع أهل الخبرة ، هكذا وضع أساس هذا الجهاز الفريد ، والذي حظى فيما بعد بشهرة حتى عد مرجعا لأهل الاختصاص من كل الجنسيات ، توافد عليه رجال المخابرات الأمريكية ، والسوفييتية ، والدول المستقلة حديثا ليتعلموا منه ، ليتقنوا الاساليب المتبعة . جاء المؤسس بنفسه ليشرف على تشييد هذا المبنى ، ويقال أنه قسمه إلى ثلاثة طوابق ظاهرة ، وثلاثة تحت الأرض ، وقسم كل طابق إلى سبعة أقسام ، وكل قسم إلى أربع ادارات منفصلة ، وموّه المداخل المؤدية إليه ، حتى يمكن رؤية الداخلين إليه ، أو الخارجين منه ، لم تفتح نافذة ، ولم تهتز ستارة ، أما الأبواب الجانبية الضخمة فموصدة منذ حقب بعيدة ، حتى في أيام الاحتفالات الرسمية أو المناسبات أو نزول ضيوف مهمين بالبلاد ، ما من أعلام مرفوعة ، أو اشارات بارزة ، فقط ، عدد لا حصر له من هوائيات

الارسال والاستقبال ، بعضها مستدير ، والآخر نحيل قائم ، وهذا الهوائي بالتحديد يتردد بين القوم أنه مخصص للتصنعت على النجوم ، وسكان الحجرات البعيدة ، في الليل ترى أضواء خافتة منبعثة من وراء الستائر ، ويؤكد البعض ان ثمة أصواتا تنبعث في بعض الليالي ، لكن .. لا يمكن تحديد مصادرها بالضبط ، اختير موقعه بعناية، أنه في المركز تقريبا ، عند منطقة فارقة بين المنطقة القديمة حيث منشآت الجامعة ، والمنطقة الحديثة ، حيث المركز المالى والصناعى ، يشعر كل مقيم أو عابر بوجود المبنى ، اقترب منه أو ابتعد ، أقبل نحوه أو أولاه ظهره ، لا يحيطه أى سور أو حاجز ، فقط رصيف عرضه أربعة أمتار ، مبلط بحجر قديم ، لم يجدد ، لم تجر له أى عمليات صيانة ، مع ذلك يبدو وكأنهم فرغوا منه بالأمس ، وبرغم عدم اعلان أى تعليمات بمنع الاقتراب ، فلا يسعى إنسان للمشى فوق هذا الرصيف ، ولا يقربه حتى الأطفال ، أو الحيوانات الضالة ، فكأن سلوكا خفيا يولد مع سائر المخلوقات يقضى بتجنبه والابتعاد عنه ، وعندما عمت البلاد موجة من الحوادث الارهابية ، وتم تفجير محطة القطار الرئيسية في المدينة ، وضبطت شحنة متفجرات في مخدع رئيس البعثة التعليمية قبل انفجارها ، لم تتخذ أى احتياطات حوله ، لم يظهر حراس ، ولم توضع حواجز كما جرى عند جميع المنشآت الحيوية ، لم تلج أى بادرة أو علامة تنم عن قلق أو خشية ، عدا ملاحظة رصدها صحفى محلى - ولم تنشر - إذ ظهر هوائى جديد ضخم عند الحافة الغربية ، يشبه شباك الصيد المستخدمة في البحار الجنوبية ، أما أغرب ما سمعه ، فهو القول بحركة المبنى ، إذ يؤكد بعض من أهالى المدينة أنه غير ثابت ، يتحرك ، يكمل دورة كل نصف قرن ، الواجهة الشرقية التى تعلوها صورة من جص ملون لرأس المؤسس كانت جهة الغرب منذ خمسين

سنة ، يؤكد ذلك بعض المعمرين ، انه يتحرك طبقا لنظام هندسى بارع ، بحيث لا تلاحظ حركته ، ولا يدركها المقيمون داخله ، أو الساعون خارجه ، تماما مثل كوكب الأرض ، يدور ولا يدرك الا العرض الناتج ، ليلا ونهارا ، أما الحركة نفسها فلا تحس ، لا توجد صور قديمة توضح الوضع ، بل لا توجد صور على الاطلاق ، ويبدو أن ثمة اشعاعا خفيا ينبعث بوسيلة ما ، يفسد أى عدسة تصوير توجه إليه من بعيد ، من أى زاوية ، أما الصور الملتقطة بواسطة الاقمار الصناعية فلم تتضح بها أى معالم ، مكانه بقعة رمادية وكأنه أرض بيباب .

مما يتردد أيضا من غريب القول ، اختفاء المبنى فى ليال غير محددة كل عام ، فى طقس صفو ، خال تماما من الضباب ، ولم يثبت ذلك ، أما أساتذة الجامعة وطلبتها ، فيقولون ان هذا الجزء المهيب ، الظاهر ، ماهر إلا مدخل وغطاء لمساحات ممتدة تقع كلها تحت الأرض ، تضم فيما بينها سجنا غريبا ، يتسع باستمرار ، كلما ولد طفل تفتح له عدة ملفات فى أقسام مختلفة من البناء ، وتشيد له زنزانة صغيرة ، معتمة ، خالية من الفتحات ، ربما نزلها يوما .

يضمهر الجامعيون كراهية للمبنى وما يمثلته ، لكنهم لا يجاهرون ، فجهاز الأمن الاتحادي له منزلة خاصة فى طول البلاد وعرضها ، إذ ينسب إليه ترسيخ الوحدة الوطنية ، وفض الخلافات ، العرقية ، والطائفية ، والدينية ، والقومية ، عدا خلاف واحد استعصى فضه ، انه القائم بين الجامعة والبلدية ، انه خلاف عميق ، قديم ، بدأ قبل قيام الدولة ، لم يعرف إلى أى جانب يميل الجهاز برغم صلته العضوية بالبلدية ، وتداخل وتشابه بعض الاختصاصات ، لكن برغم تعقد العلاقة بين الجامعة والجهاز ، فإنه

من الثابت تعاون عدد من الاساتذة ، سواء في تطوير الأجهزة العلمية الخاصة جدا ، أو البحث عن وسائل جديدة في مجالات الاستنتاج والتمويه وكشف المعلومات ، وهناك عدد مجهول من الاساتذة والطلبة ينقل أدق ما يجرى في الكليات النظرية والعلمية .

لكن .. إذا بدا المبنى مصمما هكذا . فمن أين منافذه ؟ .

يقول البعض ان هناك مجموعة من المدربين تدريبا عاليا يقيمون باستمرار داخله ، ولأسرهم أماكن مخصصة ، وأنهم كيفوا ظروفهم على الإقامة الأبديّة ، وهؤلاء هم قوم الملفات ، المكلفون بالنظر في الأوراق ، والأرشيف القديم ، ورصد المعلومات ، وتصحيحها ، وتقييمها ، وإضافتها ، أو حذف بعضها ، أو مضاهاتها بعضها البعض ، كذا تحليلها ، ولهم منزلة خاصة ، وعندما تمت عمليات التحديث وأدخلت الحسابات الآلية ، لم يتم الاستغناء عن فرد منهم ، بل اعتبروا هم المرجع والاساس ، فإذا حدث أى خطأ في معلومة ما ، لا يتم تصحيحها قبل الرجوع إلى الاضابير الورقية التى يسهر عليها هؤلاء ، اشتهر عنهم حبهم للعمل ، وإيثارهم البقاء داخل المبنى ، وكلهم انحدروا من اجداد تخصصوا في قطع طريق الحرير ، والاغارة على القوافل المتجهة من وإلى الصين ، شقوا عصا الطاعة على كل حاكم أو ذى سطوة ، وسكنوا الأماكن الموحشة ، ثم نجح المؤسس في الاتصال بهم وإقناعهم وضمهم .

لا يمكن القول بوجود مدخل رئيسى ، للعاملين المقيمين خارجه ، أو الذين يتم احضارهم طوعية أو قسرا ، علانية أو خفية ، هناك عدة مداخل بعيدة ، بعضها عبارة عن مباني صغيرة ، متفرقة ، لاثثير الريبة ، أو الفضول ، عاطلية الحضور ، منها تبدأ ممرات متصلة ، ودهاليز متقاطعة ، وصلات أشبه

بالياديين الصغيرة ، وقاعات ، وربما يصل الغريب إلى صميم المبنى بدون أن يعرف ، لكن العاملين الذين يترددون عليه يوميا ، أو الذين يخرجون أو يدخلون فلا يعرف كل منهم منفذ الآخر . لا يوجد شخص واحد يلم بكل الاقسام حتى المسئول الأكبر ، الاتحادى ، أو المحلى ، لكل طريق معروف ، مرسوم ، لو اتخذ غيره لضل وعجز عن الوصول إلى هدفه ، ولا يمكن للقوم سواء من أهل الداخل أو الخارج ، اجتياز مكان إلى آخر بدون تصريح مسبق، ذى لون معين ، مبرمج مسبقا ، لا تفتح البوابات الالكترونية إلا بعد دفعه فى مكان معلوم ، أما الأوراق الخاصة بتصميم المبنى ، وخباياه فمن ادق أسرار الدولة الاتحادية ، وكلمة المبنى فى جميع لغات البلاد تعنى مضمونة والاشارة إلى دوره أيضا ، لكنه ليس الوحيد الذى يلفه الغموض هنا.

هذا مبنى البعثة التعليمية الأمريكية ، أثار تشييده فى نهاية الأربعينيات جدلا ونقاشا فى الصحف والمجالس المحلية ، وخصصت جلسة كاملة فى مجلس الشورى لمناقشته ، يقع قرب المستشفى الجامعى القائم على تل مرتفع مكسو بالأشجار ، أول من اعترض عليه اساتذة الجامعة فلماذا تجيء بعثة أمريكية وتقيم على مقربة من أعرق صروح العلم فى البلاد ، هل يعنى ذلك الشروع فى انشاء جامعة أمريكية ؟ خاصة ان النفوذ الأمريكى فى تصاعد ، اذ انتشرت فى العاصمة الاتحادية مطاعم الوجبات السريعة ، والمشروبات الغازية ، والمحال التى تبيع الموسيقى الصاخبة ، أما المسلسلات الأمريكية فتحتل مساحات زمنية واحدة فى قنوات التليفزيون المختلفة ، وتردد ان ثمة قناة خاصة ستخصص لبث البرامج الأمريكية مباشرة ، بالطبع واكب ذلك ارتباط اقتصاد البلاد بالمعونة الأمريكية ، والدخول فى

حلف عسكري متين . لكن هذا كله في جانب ، والاقتراب من أعرق مراكز البلاد العلمية في جانب آخر . اثر تصاعد الاعتراضات هدد السفير الامريكى فوق العادة ، انه في حالة تعثر المشروع فلن تتدخل الحكومة الامريكية لدى صندوق النقد الدولى للمساعدة على جدولة الديون المستحقة ، صدرت بعد ذلك تأكيدات من العاصمة الاتحادية تقول ان تمثيل البعثة سيقصر على وجود بعض ممثلى مراكز البحث العلمى فى الولايات المتحدة لمتابعة بحوث خاصة لايمكن اعدادها إلا من هذه المنطقة ، نتيجة لموقع المدينة الفريد بالنسبة إلى زاوية ميل الكرة الأرضية ، والحق ان أول من تنبه إلى هذه الخصوصية نابليون بونابرت من خلال البعثة العلمية التى صحبته خلال حملته إلى الشرق .

المهم .. بدأ تجهيز المبنى بعد اختيار الموقع ، وتقديم تعهد مكتوب إلى البلدية بمراعاة الطابع المعمارى العام . ثم اسند الجانب الامريكى العمل إلى شركة مقاولات أمريكية متخصصة فى أعمال التشييد العسكرى فيما وراء البحار . سبب هذا ردود فعل سلبية فى مجالس ادارات الشركات المحلية ، لكن السفير الامريكى أقام حفلا هائلا فى حديقة السفارة الشتوية ، دعا إليه ممثلى شركات المقاوله المحلية ، المسموح لها بالعمل فى المقاطعات ، انفرد بكل منهم ، سأل عن مقدار الربح فى حالة تنفيذ البناء ، بمجرد سماعه الرقم يخرج على الفور دفترا صغيرا ويكتب شيكا مصرفيا ، مقبول الدفع ، مضمونا من بنك تشيز مانهاتن ، فرع بروكلين ، خرجوا راضين وعند معظمهم ندم لأنهم لم يضاعفوا الرقم المتوقع ، اتفقوا على نشر اعلان يهنئ الزميلة الأمريكية بالبده ، وآخر عند الانتهاء من البناء .

بسرعة ، قامت كتلة خرسانية هائلة ، نوافذها مجرد شقوق مستطيلة

تتسع من الداخل ، بحيث يمكن لقامة رجل بالغ الوقوف ، يرى الخارج ولا يمكن رصده أو مشاهدته ، أضيفت جدران خارجية ، تطابق رسم المباني العتيقة ، رصدت مربعات خرسانية ضخمة ، لاتسمح الفواصل بينها إلا بمرور شخص واحد بصعوبة ، اعتبرت مصداً لأى هجوم انتحارى بالعربات المفخخة ، وضع احتمال لكل خطر وارد ، مع ان المدينة لا تقع فى مثلث الاضطرابات الشهير ، لكن بعد ما جرى فى طهران اثناء الثورة الإسلامية وجب اتخاذ الحوطة .

كل أسبوع اعتاد الأهالى ، رؤية شاحنة ضخمة تصل فى مواقيت محدود ، تحوى ثلاثة هائلة ، تقف أمام الباب الجانبى بضع لحظات ، يسبب هذا ارتباكاً فى المرور لدقائق ، تفتح البوابة وتزال الموانع وتختفى داخل المبنى ، أنها تحوى المأكولات ، والمشروبات والبريد الخاص ، يستغرق هذا ست ساعات كاملة ، جميع اللوازم ترد رأساً من القاعدة الأمريكية ذائعة الصيت فى البلد المجاور ، سبب هذا ضيقاً لتجار المدينة ، لكن تبدو الأمور غير مألوفة عند وقوعها ، ومع تكرارها يعتادها القوم ، هكذا أصبح هذا المبنى جزءاً من الواقع العمرانى ، وان استمر حضوره غامضاً ، يثير التساؤل ، وأحياناً الكراهية ، وربما السخرية .

يقول المغربى ان الفندق الكبير مبنى آخر جدير بالرؤية ، يقع قرب الحديقة اليابانية ، لكن سيحتاج هذا إلى وقت ، تبقى ابتسامة على وجهه ، بين ارتسامها على فمه وزاويتي عينيه صلة ، سرعان ماتبدو تجاعيد عديدة متوالية ، ثمة شىء ما ، لا يمكنه الوقوف عليه ، أو تحديده ، لكنه يبقى النفاذ بينهما ، اعتذر بحسم عن دعوته إلى الغداء ، وعندما اجتاز بوابة الفندق ، رأى الفتاة النحيلة ، الباسقة ، من هيئة وجودها ، من لحن تطلعها إليه ، من سمات انتظارها ، أدرك أنها تتوقعه هو بالتحديد .

اسمى مرغوب ..

..ما من أجمل ، وأرق ، وأوحى ، وأثرى بالوعد ، والدعة ، مثل أنتى تهيأت للقاء ، عندما تشع مكونات حسنها الترقب ، وتشرع نقاط حوافها ، مرسله عبرها صوب من ترغب ، مهددة لحلول اللحظة التى سيصبح فيها المفرد جمعا ، والواحد اثنين .

لا يستدعى امرأة ولجت عمره فى هذا المحط أو ذاك إلا ورأى طلاتها الأولى فى افتتاحيات اللقيا ، وبدء لحظات التدانى ، رب علاقة تدوم سنوات ، واذ تغرب شمسها ، تتحلل عناصرها وتذوى ، لايبقى من حميميتها إلا لحظات قلائل ، ومضات تدل على جوهر حقب امتدت وظن عند اللجأج فيها أنها دائمة أبدا ، لكن تفنى التفاصيل ، وتندغم الجزئيات ، ولا يبقى ساطعا إلا البداية والنهاية ، مفتتح القوس واغلاقه .

هكذا أيقن لحظة رؤيته تلك البنية الفارحة . ان هيئة انتظارها تلك ستجب ماعداها ، أنها ستبقى فى معيته ، يسترجعها فى اقامته ورحيله ، فى سكونه وترحاله . تبدو مختلفة عن تلك التى رآها واقفة أمام المنضدة المستطيلة ، توزع الملفات والشارات ، والبطاقات ، وتبذل جهدا ، وتفنى قدرا من الطاقة آثار اعجاب الكافة ، حتى يادر بعضهم بعبارات اعجاب ، وأسفر آخرون عن رد ، أما هو فلزم صمت بدافع من خجل قديم لا يتبدد إلا بعد الايغال فى

القربى ، وهامى تسعى إليه ، وتجهر صراحة ، فلم تأت إلا من اجله ، تأسف لان قدومها بدون مقدمات ، يرفع يدا معبرة عن احتجاج صامت ، لكنها تواصل القول ، حاولت الاتصال به فى الصباح الباكر ولم تجده ، ولأن ما تبقى من ساعات اليوم قليل ، وغدا الجلسة الختامية ، أما جلسة بعد الظهر فلن تحوى الا تلاوة ابحاث مطبوعة ، وزعت على المشاركين ، تبسم دافقة عذوبة ريانة ، تقول إن من يحملها يثبت اسبقية الجامعة على البلدية فى تأسيس المدينة ، وتقترح عليه جولة لرؤية المعالم غير المدونة فى الكتيبات السياحية .

يتبدد ارهاقه بعد صحبة المغربى ، تتلاشى رغبته فى التماس الهجوم قليلا ، حتى يبدأ ما بعد الظهر نشطا ، قادرا ، يبتسم ممتنا ، شاكرا ، يحل عنده ابتهاج ، ويخف امره ، يشعر أنه مقدم على أمر ، فما من عامل مبدد للوحدة ، للوحشة ، ليبوسة الوقت ، مثل القربى من امرأة راغبة ، مرحبة ، ما البال إذا شرعت هى ؟ بسط يده فتقدمته ، شعرها مسترسل ، مستمر حتى نتوء رد فيها مثل فكرة سلسلة ، حاذاها ، فبدأ جانب وجهها الأيمن ، ذو حضور خاص ، فى عينيها اختلاف ، وسن متأمل فى اليسرى ، شارد ، تنفرد به ، فيضيق منها ، يوجد اختلاف غريب عجيب عن اليمنى ، لا يبدو إلا إذا تطلعت إليها بالمواجهة ، ولكن يوجد المغايرة بين الجانبين الأيمن والأيسر ، فكانها اثنين فى واحد ، أو شطران مختلفان تضامنا معا ، وهذا من اندر ما رأى ، أما ملامحها فتوحى بابتسامة لا تسفر تماما ، لكنها موجودة فى موضع انفراجة شفقتها ، ومن وقت إلى وقت يبدى جبينها طيفا شجيا ، لكنه لا يقطع الأمل من ابتسامتها الخفية ، التى تبدو كوعد قائم بالرسو .

مضيا تحت الاقواس الحجرية ، عبرا الطريق ، وعندما أبدى ترددا لحظة

اقترب عربة خاصة ، مدت يدها إلى ذراعه ، قالت ان الشباب يقود بسرعة ، يتوقفون فجأة على بعد قليل جدا من خطوط المشاة ، هذا لم يكن موجودا من قبل ، سيئ هذا ، لكن ما العمل ازاء تراخى قبضة رجال المرور ؟
في شارع جانبي ينتهى ببناء أحمر اللون ، نوافذه مغلقة ، توقفت أمام سيارة صغيرة ، زرقاء اللون ، قالت انها استعارتها من صاحبة لها الليلة الماضية ، خصيصا لتلك الجولة ، أنها لا تمتلك عربة ، تستخدم حافلة المكتب في ساعات العمل الرسمية ، انتقالاتها محدودة جدا ، لا تغادر مسكنها الصغير إلا نادرا ، مجرد انتهاء عملها تعود إليه ، نادرا ما تقضى الامسيات في الخارج .

تحذير هذا ؟ يقول مداعبا :

ـ ما من صاحب ؟

تلقت إليه فجأة ، طلة موجزة .

ـ نعم .. عندي صديق ..

بعد لحيلة ، تتابع .

ـ أنه في الهند ..

أوشك على مزيد من الاستفسار ، لكنه ازاء حزمها وإيجازها كف ، عاد يفكر فيما قالته عن استعارتها سيارة صاحبها خصيصا لتلك الجولة ، اذن اضمزت النية من الليلة الماضية ، متى بدأ اهتمامها ، متى أقرت شروعا ؟ ، كانت تبدو لاهية ، مستعصية ، أما أخبارها عن صاحبها فلا يدري كيف يقبله أو يقيمه ؟ أنه يسعى باتجاه لحظة محددة تتبدد حواجز غير مرئية ، وتحدث الصلة ، إذا تجاوزها فلن تتحقق القربى أبدا ، بعد ساعات سيرحل ، يمشى إلى مكان وتبقى هنا ، ربما لن يصل هذه المدينة ، لن يراها ، وهذا

غالب ، ربما تختفى صورته من وعيها بعد حين ، فلماذا يستثار فضوله حول صاحبها ؟ أما محاولته للاتصال بعالمها الانثوى فلها مشروعية ، ما عليه الا تلمس الاطراف والحدود ، ولها القبول أو الامتناع .

يركب إلى جوارها ، عبيرها الانثوى طاغ ، ما من رجل وقعت عيناه على امرأة إلا وشرع ، وإذا لم يسفر فأنه ينوى ، ويسأل نفسه ، هل تصلح لي وهل أصلح لها ؟ فلماذا يخرج عما يدركه من الناموس ؟

لم تتردد عند لافتة ، أو مفرق ، طرق أضيق ، ذات اتجاه واحد ، لم يسلكها مع المغربى ، تتوالى أبواب خشبية ، ضخمة ، مغلقة ، الأرض أمامها ممهدة لدخول العربات ، علامات منع الانتظار ، فى الفراغ الموحى بالسر .

تقول إنه الجزء الاقدم من المدينة ، يوازى قدم الجامعة ذاتها ، هنا يقيم معظم أساتذة الجامعة ، خاصة الكليات النظرية ، بعض أساتذة الكليات العملية يفضلون سكنى المنطقة الجديدة ، فى المواجهة بدأ بناء أسطوانى ، مرتفع ، يؤدى إليه سلم عريض .

- انه الحصن المشيد ..

بيدى دهشة ، أى حصن ؟ ، لم يخبره المغربى به ، تتساءل ..

- أى مغربى ؟

ينبئها بلقائه ، تهز رأسها ، تقول انها تعرف أهالى المدينة ، خاصة الأعراب منهم ، أو ذوى الأصول الأجنبية ، لا تذكر أن بينهم مغربيا يطلعها على رقم الهاتف ، تقول انه سبعة أرقام ، وهواتف المدينة ستة لاغير . ربما فى العاصمة الاتحادية .

تدركه حيرة ، لكنه يترجل مستجيبا لاقتراحها رؤية الحصن المشيد ، تحرص على أن تتقدمه بضع خطوات فيمتلئ ، تلامس الأرض بأطراف أصابعها ، كأنه شروع فى رقص وليس خطأ ، يهفو .

أين المدخل؟، الجدران مصمتة ، هل سيعبر قنطرة مؤدية ، ويدرك أنه بحاجة إلى أنس خاص بعد جذب طال أمده ، يتقدم عند وصولها وانحنائها أمام كرة صغيرة ، واذ تفتح حقيبتها يبادر ، متأهباً لدفع النقود ، لكنها تلوح ببطاقة ، خضراء من ناحية ، صفراء من جهته ، تقول انها تحمل تصريحاً بدخول جميع الأماكن الأثرية ، والهامة ، باعتبارها عاملة في شركة سياحية .

أين المدخل؟، الجدران مصمتة ، هل سيعبر قنطرة مؤدية ، أو الباب خفى؟ . يفاجأ بمصعد خشبي ، قديم ، يتدلى من أعلى الحصن ، مشدود بجنازير يصدر عنها صرير ، أشبه بدولاب صغير ، ينزلق بواسطة بكرات علوية لم يتبينها إلا عند وصولهما إلى السطح ، أرهقه صعود الارتفاع الشاهق ، التأرجح ، البطء ، لم يختلس النظر إلى الأرض التى راحت تنأى ، خشية دوار مفاجئ ، حتى عندما لاحت له أسطح البيوت المتجاورة ذات اللون الوردى ، متقارب الدرجات ، أما الافق فبدا نائياً ، كان لابد من اجتياز أعلى الجدار من خلال درجات سلم ثلاث تم حفرها في القرن الماضى ، وقفا فوق السطح الدائرى ، يبدو الحصن كله أسطوانة ضخمة من الحجر المصمت ، أما القلب فعبارة عن متاهة خفية ، معظمها لم يعرف بعد ، من ممرات ضيقة ، وأبواب حجرية ، حقيقية ، وهمية ، منافذ تؤدى إلى نفس الداخل ، أبواب مستطيلة ، وأخرى مربعة أو دائرية ، لابد من اجتياز طريق تشير إليه الاسهم الفوسفورية ، تم تحديده بواسطة قسم التصميم المعمارية في الجامعة اختصاراً لوقت الزائرين ، حتى يمكن الوصول إلى غرفة الإقامة حيث تحصن واختبأ صاحب البرج ، يستغرق الوصول إليها ثلاثين دقيقة ، الا يغال في المعمار مرهق ، تميل الممرات ، أحياناً ترتفع ، تتقدمه المرافقة الباسقة ، رشيقة ، فتية ، تعرف التضاريس ، تحفظ الخبايا ،

لا تتردد عند المفارق المتشابهة ، تبدو كينونتها المادية ، الرشيقية ، مصدرا
لطاقاة شابة ، متجددة ، قادرة على الامعان والتحمل ، حاول مغالبة خفقه
المتسارع ، وتوالى أنفاسه ، وضيقه بالهواء الراكد غير المتجدد ، انه على
مشارف كهولة ، يجتاز قنطرة فاصلة ما بين زمن الحيوية والوشك على
اضمحلالها ، قتامة تتزايد داخله ، رغم ان المبنى كله صمم للهرب من المنية ،
وتضليلها ، هذا سبب بناء الحصن .

متاهة

الحصن قديم ، يرجع إلى ما قبل التاريخ المدون للمدينة أو الجامعة ، ربما إلى المرحلة التالية لاستمرار ذرية الفلاسفة الأربعين ، من هنا يقول الجامعيون ان أسلافهم لعبوا دورا في تصميم تلك المتاهة الغريبة . على أساس أنهم ينحدرون من صلب الفلاسفة ، ويعتبرونهم النواة البعيدة للجامعة ، والعلوم كلها ، بدأ الأمر عندما تولى محارب قديم الناحية ، كان محاربا ، شجاعا ، عنده اقدام ، وجراة على الموت ، تلقى في صدره سبعين ضربة سيف ، نجا منها ، ولكن بعد أن تركت علامات صعب اندمالها ، قضى الخمسين عاما الأولى من عمره في مطاردة القبائل الجنوبية ، والتصدي لأهالى البحار الشمالية ، واخضاع المتمردين في الجبال القريبة .

ثم استقر في الناحية ، أوكل إليه تسيير شئون الخلق ، وتنظيم توزيع المياه ، واستغلالها بواسطة الصهاريج ، مع سكونه ، وبدء أيام راحته تغيرت أحواله وصارت إلى عكس وخلف ، مال إلى الصمت ، ثم نقل عن نسائه انه هجرهن ، وزهد في اتيانهن ، وصار يخشى النوم ليلا حذرا من طول الهجوع ، وانعدام اليقظة مرة أخرى ، لم يكن يغفو إلا مضطرا ولمدة ساعة لا غير كل أربعة أو خمسة أيام ، صار المحارب القديم إلى خشية الموت ، والخوف من الفناء ، الغياب عن عالم الحس والمعنى ، حاول الحكماء

المنحدرون من الفلاسفة معالجته خفية ، ولهم معرفة بالطب ، وعلم النجوم ،
وصنوف المعارك الكفيلة ، خشوا ذبوع أحواله ، خاصة ان الناحية كانت على
وشك خوض حرب ضد ثلاث مقاطعات متجاورة ، بسبب الصراع على نبع
مائي في الجبل القريب ، لمائه خاصية فريدة ، عند وضعه في اناء يفور ،
نسبت إليه فوائد .

صارت الناحية إلى خطر ، واجمع الحكماء على اخفاء مرضه ، استجابوا
بسرعة لمقترحه الذى بدا غريبا ، وتؤكد الروايات ان واحدا من احفاد كبير
الفلاسفة اوحى به إليه ، وأنه لم يصدر عنه ، لأنه افتقد القدرة على التفكير
بعد انعدام أوقات نومه ، وأخرى همومه ، في البؤرة يمكنه القبوع ، دره
الخطر ، وتضليل العدم . شارك صفوة الحكماء في بنائه ، ويقال انه بدا
غريبا بمقاييس الوقت ، حتى حار الاعداء عندما رأوه يعلو وعجز رصدهم
عن استكشاف حقيقته ، فظنوه طلسم يدفع الأذى عن أهالى الناحية ،
فأحجموا وتراجعوا ، حتى الآن لا يعرف المكان الذى لجأ إليه المحارب القديم
للاختباء من الموت على وجه الدقة ، اذ يشمل الحصن على أربعين مكانا
بديلا ، متشابها ، وصف الممرات والدهاليز المؤدية يملا أربعين مجلدا لم
تطبع بعد ، وتعتبر من نفائس الجامعة ، تسجل البعثات التى نقبت على مدى
المائة عام الأخيرة العثور على عدة هياكل عظمية ، بعضها لبشر يبدو انهم
ضلوا طريقهم أثناء محاولتهم البحث عن كنوز متوهمة ، والبعض الآخر
لحيوانات منقرضة لا مثيل لها الآن ، ولا يعرف أحد لماذا ولجت المكان ، أو ..
كيف ؟ لكن أغرب ما يتردد بين رجال المدينة ونسائها القدامى ، أن المحارب
القديم لم يموت ، وأنه باق حتى الآن ، حى يرزق ، ويرجع ذلك إلى ترتيب
محكم أعده احفاد الفلاسفة بحيث تدخلوا في دورة الوقت ، فأوقفوا اللحظة

عند دخوله ، وإن سكون حركته تلا ذلك ، فلا حركة إلا مع نقله ، وتماهما
يعنى انقضاء مدة ، تمكنوا من الغاء هذا . وهذا يطول شرحه ، ويصعب
تفسيره ، وللامر علاقة باختفاء الأمير الصينى ، كيف ؟ ، هذا ما لم يلم به
أحد ، أما الفارق فيمكن في انتظار قوم لعودة الأمير ، وانعدام ذلك بالنسبة
للمحارب الذى هرب من الموت .

بالطبع .. يسخر رجال البلدية من ذلك ، وفى المقابل يتهمهم الجامعيون
بإشاعة مالا يعقل ونسبته اليهم حتى يستخف الناس بهم ، وتهتز مكانتهم .
عند الحد الأخير المسموح بوصول الأجانب إليه ، قالت مرافقته أن
البعض يوقنون بوجوده حيا ، لهم أشياخ فى الخارج ، خاصة فى ولاية نيفادا
الأمريكية ، يفد القادرون منهم كل سنة فى ميعاد معلوم لقضاء أسبوع على
مقربة من الحصن ، يزورونه يوميا ويخاطبون الغائب جماعة باللغة
القديمة .

تومى برأسها : هذا حقيقى .

قالت إن الحكماء نادوا فى الناس بعد دخوله الحصن ، ان المحارب القديم
أن له أن يستريح ، أنه احتجب إلى حين غير مقدر ، غير معلوم ، سيرجع قويا ،
سليما من كل عطب ، متجاوزا كل فناء ، وعنده الحول للأمور المستعصية ،
أما تدبير أحوال الناس فلا بد من اسنادها إلى رجل قوى ليتمكن التصدى
لمصادر الخطر ، خاصة الذين يريدون الاستيلاء على نبع الماء الفوار ،
بالفعل ، اختاروا مبارزا شهيرا حارب تحت امرته ، أطلقوا عليه ، نائب الغيبة ،
برغم عدة قرون منقضية ، برغم اختلاف الدلالات ، وتبادل المواقع ، فمازال
يوجد منصب فى الهيكل الوظيفى للبلدية يعرف بنائب الغيبة ، وهو المختص
بالإشراف على المحطة الرئيسية لتنقية المياه ، وتوزيعها ، وتحصيل الأموال
الخاصة بها من البيوت والمصالح ، أما الجامعة فتدفع مبلغا رمزيا .

يستفسر عن العلاقة بين الغيبة والمياه ، تلتفت إليه ، ابتسامتها رحبة ، في اختلاف عينيها توافق وتمائل ، يجتازه وفق ، بتأثير انفرادهما أو ايفالهما في النأى عن الفراغ المنظور ، يخشى أن يبدو منه بدون قصد ما لا يليق ، تهب عليه ريح طيبة من زمنه القديم ، عندما كانت تغمره الرغبة فيبدأ ولا يكف ، حتى يتحول وجوده إلى لفظ منهمر . يبدأ أخبارها بنبا حصن قديم ، مندثر . في الزمن البعيد ، الأفل ، حيث لا يمكن تحديد علامة فارقة ، أو سنوات قاطعة ، أو حوادث معينة ، عاش ملك جبار اسمه النمرود ، بسط ظل ملكه على فيافي ، ودانت له أمصار قصية ، وأخضع ممالك ، ثم تطلع إلى السماوات العلا بعد أن قهر كل ذى سلطان فوق سطح الأرض ، ماذا بعد وصوله إلى الجهات الأربع الأصلية ، واجتيازه البحار السبعة ؟ ، في إحدى الليالي قرر بدء المحاولة ، على الفور جمع كل ذى علم . أمرهم بتصميم برج يصعد إلى ما لا نهاية ، يتجاوز الغمام ، يدنو من الافلاك ، يمكنه أسر الشهب والرواجم ، التى تمرق أمام عينيهِ في الليالى الغامقة ، ولا يدرى لها تفسيراً ، وجم العقلاء ومنهم أصحاب العلم الغزير ، لكن من يقدر على تحدى ارادة نمرود ؟ .

بدأ العمل لتصميم برج يصل إلى السماء ، حشد أسرى الحروب ، والعبيد ، وجمع بلا حد من الفقراء ، وخلال عامين أمكن له أن ينظر إلى السحاب من أعلى ، وأن يرى الغماو من تحته ، بعد أن تجاوزته البناء ، لم يتوقف التشييد ، ولم تهدأ الحركة ، في صباح يوم خرج النمرود ممتلئاً صهوة جواده الأكل ليتفقد العمل ، وليتطلع إلى سموق برجه . الذى لم يكن ممكناً رؤية نهاية ارتفاعه عند الوقوف تحته مباشرة . أو بالقرب منه ، إنما لابد من الابتعاد مقدار غير قليل ، حتى يمكن مشاهدة حافته العليا التى تغوص في السحاب ، لا يدرى أحد ، ولم يفسر المعاصرون أو المؤرخون الذين

جاءوا بعد ذلك ما جرى ، ذلك أن النمرود نفخ دماغه نفضة هائلة حتى روع المحيطين به ، وجزع المقربين منه ، ومنذ تلك اللحظة بدأت آلامه التي استمرت حتى موته ، قيل في تعليلها أن حشرة صغيرة جدا ، مجهولة ، ذؤيبية ، نفذت من أذنه ، واستقرت في مكان ما من رأسه ، كان طنينها يسبب له آلاما هائلة ، حتى لا تدركه الراحة الا إذا ضرب بالنعال ، نصحه أحد الحكماء بالكف عن محاولة الصعود إلى السماء ، فما جرى مجرد عقاب دنيوى من الخالق الجبار ، لا تدركه الابصار ويدرك كل شيء ، غير أن أمره بايقاف البناء لم يمهله الفظيع .

تبدى مرافقته دهشتها ، ملامح طفولية ، صافية ، يبدو جانب منها لم يقف عليه حتى هذه اللحظة ، يهم بالدنو ، ولكنه يحجم ، يستبدل رغبته ، وشروعه الوشيك ، بالاستمرار في اخبارها عن حصن آخر غريب أيضا ، لا يعرف ما يشبهه ، أو ما يماثله ، انه نبأ قديم دونته الكتب ، حول مهندس معمارى بلغ في فنه مدى لم يسبقه إليه أحد ، ولم يعرف عمن سبقوه ، أو جاءوا بعده ، أنهم طالوا رتبته أو وقفوا على مهارة تماثله ، فمن أعماله التي بقى ذكرها ، بناية تدور مع أشعة الشمس طوال اليوم ، نوافذه تتسع إذا وهن الضوء وخفت ، وتضيق إذا اشتد وسطع ، كذلك المسجد الذى ذكره كل من شاهده ، أو صلى به من الرحالة الغرباء ، والتجار الذين دونوا مشاهداتهم ، والشعراء الساعين ، والصوقية السائحين ، والبلغاء المحدثين ، مسجد تتخلل جدرانه عدة فتحات يدخل منها الهواء ، فاذا اشتد أمر الرياح سمع من على بعد مسيرة ثلاثة أيام بلياليها ، صوتا جميلا ، مختلفا عن النغمات البشرية ، يسبح بحمد الله وشكره ، لا .. ليس هذا أغرب ما شيد ، انما ذلك الحصن المنيع ، إذ استدعاه ملك البلاد والمتصرف في شئونها ، طلب

منه إقامة بناء ، يتحدث عنه ويعجب منه ابناء الأزمنة المقبلة ، على الفور ، بدأ يشحذ أرواح ماعنده ، صمم حصنا منيعا ، قويا ، بديعا ، لم يفهمه أحد أثناء العمل به ، ولم يتعرف إنسان ، على صورته المكتملة ، لم تتفتح ملامحه إلا قبل الفراغ بفترة قصيرة ، تحوى فصول السنة الأربعة متجاورة ، من شتاء بارد ، وصيف قاتظ ، وربيع وخريف ، ثم أجرى الماء بدون ماء فى مواضع معينة ، ونصب مناظر بحيث يرى الجالس فيها القليل كثيرا ، والقطرات المحدودة بحرا بلا حد ، ومحيطا صعب الخوض فيه ، يتخلل الجدران قنوات صغيرة يسرى فيها المسك السائل فى دورة مغلقة بلا حد ، أما جدران الحصن فصممت بحيث تبدو للساعين إليه أو حوله فى أوقات الأمان ، وأيام الدعة ، لكن .. إذا لاح خطر ما ، فإن لونا معينا ينتشر بترتيب معلوم لقلة محدودة فيخفى المبنى كله عن الانظار ، وبذلك يصد المدافعين أى هجوم ويمكنهم اتيان العدو من حيث لا يدرى .

يوم افتتاح الحصن ، سحب الملك المهندس إلى أعلى نقطة فى الحصن ، قال ان العمل عظيم سيخلد اسمه ، لكن كيف يثق الا بينى مثله لمن سيأتى بعده؟ تطلع المهندس إليه ، أدرك ما يجول بخاطره ، قال إنه لا يمكنه تصميم آخر مثله ، إذ وضع خلاصة عمره هنا ، وهنا أشار الملك إلى اثنين من حراسه ، أمسكو بالمهندس الذى بدا مستسلما ، وكأنه توقع ما نزل به ، أوثقوا يديه وراء ظهره وشيعوه فى الفراغ ، قيل للناس أنه أضمر الخيانة ، وقصد الهرب ليشيد برجاً آخر يفوق ما بناه هنا . وأنه لقى جزاءه العادل ، لكن فى اليوم التالى جرى مالم يتوقعه أحد ، إذ طلع أحد مساعديه إلى الملك ، وأخبره بما كتمه المهندس العبقري ، مالم يطلع عليه أحد ، ما الحكاية إذن؟ لقد أفضى إلى معاونيه الثلاثة بسر ، هذا الحصن العجيب ، المنيع ، يوجد به

حجر واحد لو دفعه طفل صغير بأصبعه لسقط البناء كله ، يتذرى ولا يبقى منه شيء ، قال المساعد : أنه ولا غيره على دراية أو علم بمكان الحجر ، وأنهم ايقنوا باطلاعه الملك على كل شيء . بدأ الهم يجثم على الملك ، لم تفلح كل وسائل الاستتطاق والاستجواب مع معاونين وكبار المعلمين المشاركين في البناء ، ظل موضع الحجر خفيا غامضا ، مستورا ، كيف تمكن الاقامة في موضع بقائه مرهون بحجر صغير ، لو تحرك مصادفة سينهار التشييد كله؟ ، ربما تعثر به هو ، أو أحد الجند أو الخدم وهم كثر ، ربما انكأ عليه أحدهم ، ربما دفعه طفل بأصبعه ، بمقدمة حذائه ، عندئذ سيصبح اضحوكة الملوك ، ونادرة السلاطين ، أمر باخلاء الحصن ، دخله حذرا منفردا ، توقف أمام الاسوار ، والمطالع ، والفتحات ، والحجرات ، والقاعات ، تسأل المقربون عن سبب تأخره في الانتقال إلى بنائه الاسطوري ، غمغم ولم يفصح ، حتى خمن البعض وجود أمر يشق عليه ، لاحظوا شروده ، وتلفتة الدائم ، واتجاهه المفاجئ إلى الحصن ، مرة نهارا ، ومرة ليلا ، تفحصه الجدران ، اصغأؤه إلى ما قد ينبعث منها ، أمره للعمال بالدخول لتفحص الاروقة ، ثم صراخه المفاجئ فيهم ان يبتعدوا ، ومع مضي الوقت بدأت تنتابه رجفات ، وخضات عجز الاطباء عن علاجه منها ، وبرغم حرصه على إبقاء السر مكتوما ، خشية سخرية الخلق منه ، ولكن من يحيطون به أخفوا عنه ان الأمر ذاع وانتشر ، حتى ان الغرباء صاروا يتجنبون المشى على مقربة من الحصن ، لم يطلع على ذلك حتى احتضاره العسر ، بعده .. امتنع رجال الدولة عن الاقامة في الحصن ، أو الدنو منه . دام ذلك عددا غير معلوم من السنين حتى نسي الامر ، وبقي الناس بين مصدق ومكذب لما تردد في الزمن القديم ، عاد الخطو داخل الحصن ، وبهت اسم الملك الذي أمر ببناؤه ، لكن

اسم المهندس تناقله للناس ، وصار ماجرى له مثلاً يتردد ، فقيل : جزاء
سنمار . طبعاً .. نهبت اشياء كثيرة من الداخل ، مثل اخشاب الصندوق
الهندي التي بطنت بها بعض القاعات ، كما جفت قنوات المسك ، وفسد نظام
الفصول الأربعة ، ثم تحول إلى طلل مبهم ، غامض ، لا يربطه الناس باسم
المهندس الذي راح ظلماً ومازال اسمه يتردد ، آخر من استخدمه ، الجيش
الملوكي الذي اتخذه كمخزن للاغراض البالية ، التي استنفدت مدتها ولا
تزال بقايا البناء لكن لم يعرف إنسان موضع الحجر الخفي ..

— حتى الآن ؟

يومي .

— نعم .. حتى الآن .

ترفع يديها ، متماستان ، مبسوطتان ، يضوى ألق الدهشة الطفولية في
عينيهما ذواتي الظلال .

— رائح ، مدهش .. لم أسمع ولم أقرأ مثل هذا ..

يبدو منها جديد ، تلك الايماءة الموجزة ، لا توقيت مسبق لها ، ولا نذر
بأدبه ، قلقلت عنده رواسي قديمة ، وحركت غوامض كامنة ، وأشواقا
مجهولة المصدر ، ومراثي مبهمة بلا لفظ ينطق ، أو حس يرصد ، لزمن بديع
لم يمر به ، وأن حن إليه ، ذقنها الدقيقة ، مرفوعة ، شماء ، غير أنها تطرق
فجأة ، صمت مباغت لم يتوقعه بعد حماسها الدافق ، بعد صمت يسير
تقول انها أمضيا وقتاً في التجوال ، ولابد أنه جائع الآن ، اعتادت أن تاكل
شيئاً خفيفاً عند الخامسة ، أما وجبة طعامها الرئيسية فعند العشاء ، لماذا
تبدو أكثر نأياً الآن ؟ ، حتى نزولها بالمصعد اليدوي القديم ، وركوبه إلى
جوارها لم تفه بحرف ، بل بدأت مهمومة بشيء ما ، هيئتها ، تحديقها ،

الزماء الصمت ، تمضى السيارة في حركة دائرية ، عند بداية الطريق القصير المؤدى إلى الحصن من الجهة الأخرى ، بوابة في الفراغ ، مماثلة تماما ، النتوء شبه المثلث العلوى ، قبل أن يستفسر تقول :

- أنها بوابة الغيبة ..

تجتاز السيارة شارعا مرصوفا بحجارة وردية اللون ، لكنه عريض ، تمضى فيه المركبات عبر اتجاهين ، لكنه بعد لحظات خيل إليه اتساع الطريق مع استمرار التوغل فيه ، يتطلع إلى الوراء ، ما هذا ؟ لم ير امتدادا لما يفارقه ، لما تقطعه العرب ، فكان الشارع يطوى طيا بعد اجتيازهما مباشرة ، ولون الضوء .. أنه مختلف تماما إلى الوراء عنه في المواجهة ، يميل الفراغ إلى صفرة قاتمة فكأنه وقت ما قبل الغروب ، لكن في المواجهة يسطع النهار ، الوقت لم يقترب بعد من العصر ، فأى أقول في الخلف ؟ يشك في أمره ، أو يلون الزجاج الخلفى المرثيات ؟ ، لكن .. إذا صح ذلك فهل يخفى الموجودات ، الواجهات ، المعالم ، النواصى ، يمعن حائرا ، لكنها تلمس ركبته برفق ، تقول إن هذا مخالف لقانون البلدية المنظم للمرور ، يقول إنه يلحظ مالم يعتده ، مالم يتأكد منه ، تلتفت ناحيته ، تبدو ملامحها جادة ، تماما كما تقف في مدخل القاعة ، تجاوب الجميع بابتسامة حادة الصدد ، قالت إن الغرباء لا يتألفون مع المدينة بسهولة ، يستمر تحديقها إلى الطريق ، مبدية حزماً ، وعدم مجاوبة ، ربما تعللا بقوانين المرور التى تحرم الحديث تماما خلال القيادة أو لحرصها على ألا تخوض في حوار يخص أمورا ، أو ظواهر معينة في المدينة ، لكن عندما لاح الميدان ، وظهر المبنى الذى رآه منذ ساعتين تقريبا ، الذى دار حوله صباح اليوم بصحبة المغربى ، لم يمنع نفسه من الانحناء إلى أقصى قدر يسمح به الفراغ الضيق للعربة .

— غير معقول !!

تجاوبه ، غير ملتفتة إلى الدهشة :

— هذا أخطر مبنى في الناحية كلها ..

لم ينتبه إلى تشابه إيقاع لفظها مع كلمات المغربي الا عند استعادة تلك اللحظات في الليل ، قبل نومه ، لكن ما شد انتباهه ، ما لفت نظره إلى حد حبسه أنفاسه ، تغير المعالم ، الميدان المحيط بالمبنى مغاير لما رآه في الصباح ، ألم يكن مرصوفا بالحجارة ، أنه مفروش الآن بالقار ، المبانى المطلة ألم تبدو أطول ارتفاعا ، الآن .. كلها دون المبنى ، بل ان هذه العمارة المستطيلة ، ذات الشرفات الخشبية في أقصى الميدان ، لم يكن لها وجود بالمرة منذ ساعات ، يقطع بذلك ، لم تقع عليها عيناه ، في البداية شك ، ربما جاءه من جهة مغايرة ، لكنه دار حوله ونبهه المغربي إلى الداخل والخارج ، أما ما لم يدع له مجالا للشك في التبدل ، التغير ، فالمبنى نفسه ، الطلاء متغير ، نعم .. هذا اللون الأصفر الذي تخالطه خضرة لم يكن له وجود ، كذا وضع النوافذ في الطوابق الثلاثة ، رآها من قبل متجاوزة ، متراسة فوق بعضها ، لكنها الآن متباعدة ، مواقعها متبادلة ، فراغ يعقبه نافذة تحت ، خلو فوق ، عجيب ، أما القضبان الحديدية السوداء على هيئة أغصان تلتقى حول زهرة من نحاس فلا أثر لها ، يلتفت إليها ، يوقن أنها تدرك حيرته ، لا تفصح ، لا تومئ ، لا تبدى إشارة ، لن تشرح ، لن تفسر ، يخفف عنده تأثيرها الانشوي ، يسفر المبهم فيها ، تتجاوز الميدان بسرعة ، يلتفت بحركة لا ارادية ، ياه .. يبدو الميدان والمبنى بعيدا ، كان الزجاج الخلفى من عدسة هائلة ، تقصى الموجودات برغم قربها ، لا يتناسب ما يراه مع المسافة المحدودة التي قطعتها العربية في الطريق الذي يميل الى صعود ، السيارة تتوقف قرب ناصية

رمادية، يتوقفان أمام مبنى قديم من حجر ، سالام مرتفعة تؤدي إلى ممرات بدون حاجز يؤدي إلى درجات أخرى ، تنتهي إلى مصطبة حجرية عريضة تؤدي إلى مدخل المطعم ، قديم ، رائحة طهو طيبة ، الأبواب خشبية غليظة ، والسقف منخفض ، مدجج بأكواب من خزف ، وأخرى من زجاج ، ومن معدن ، أحجام مختلفة ، ومصادر متعددة ، مصابيح يدوية في الأركان ، وشموع نحيلة في أطباق من زجاج نقي تتوسط الموائد ، ولأنه جائع فعلا ، ولدنوه من المائدة ، ولطابع العتاقة في المكان ، عاوده حماس ، وانبثت داخله طاقة رغم حيرته ، تساؤله عن الميدان ، كيف سيجده إذا عاد إليه الآن ؟ ، والطريق التي تطوى بمجرد المرور منها ، وهم ، أو حقيقة ؟ أو شيء ثالث يستعصى عليه ادراكه أو سبر كنهه ، بل .. هذا المطعم ، المكان الذي يوجد فيه الآن ، هل سيجده إذا جاءه غدا في التوقيت عينه ؟ ، أم أن الهيئة ستتبدل ، والمكان سيتغير ، ربما جرى تحول خفي لا تدركه عيناه ، لا يلم به بصره ، المهم .. هل سيجد الفندق في موقعه ، غرفته ، حاجته ؟ يتحسس حافظته ، ويلمس حافة جواز سفره بأطراف أصابعه داخل جيبيه ، يعود ليلتفت حوله ، الوقت بين الغذاء والعشاء ، رجالان فقط يجلسان إلى منضدة قصية ، أحدهما يرتدى زى البحارة ، لكنه لم يستطع استنتاج .. أسطول حربي أو تجارى ؟ . ولم يسأل رفيقة جولته ، أحدهما يضرب المنضدة بقبضته بين حين وآخر ، ماذا يفعل ، كيف يتصرف لو قام أحدهما فجأة وهاجمه طلبا للأنثى التي تجلس إليه ، لو تحرش به لاي سبب ما ؟ يدركه خوف الغربة ، والوحدة ، وعدم درايته بفنون العراك ، حتى في أيام دراسته البعيدة تجنب الشجار ، ونأى عن العنف ، وأن لم يحل هذا دون فورات انفعالية تتفجر داخله حيث لا يتوقع .. تسعى به أحيانا إلى هلاك مبین !

يتبادل النادل التحية مع صاحبتة ، يعرف كل منهما الآخر ، يبدو نطقها عند حديثها إليه مختلفا ، أكثر تأنقا ، انثويا ، تحدد ما تطلبه ، مشيرة بيديها ، ترجع من لحظة إلى أخرى لتتطلع إلى القائمة ، لم تستطلع رأيه ، ربما تخصص المطعم في صنف واحد ، أو تعرف طبقا معيناً تريده أن يتذوقه .

عندما وضع طبقى المقائق ، الأول أمامها ، والثانى ناحيته ، تطلع إلى القطع المبرومة ، المستطيلة ، تذكر بآعة السجق الواقفين بعرباتهم عند نواصى الحى القديم ، وفراغ ليلى مزدحم بأضواء شتى وضجيج قومه .

الطبق بيضاوى ، المقائق مرصوفة بالعرض ، عند الحافة قطع صغيرة جدا من جبن له ملمس الزبد ، توسطت المنضدة زجاجة نبيذ وردى اشاعت عنده بهجة ، يعدل النادل وضع كأسين ليتلقيا الشراب ، يفاجأ بيدها تلمس يده ، تشير إلى كأسها الفارغة ، من الأصول المرعية أن يقوم الرجل بذلك بعد تذوقه عينة صغيرة وأبدائه إيماء الرضى ، على الفور يبادر ، يصب مقدارين متساويين ، يرفع كأسه مبادرا لشرب نخبها ، بعد تذوقه الحسوة الأولى من المشروب المترف القديم ، تتلاقى نظراتهما ، يقع تماس لحظى مارق ، لكنه لا يصل إلى نقطة التواطؤ الخفى ، أو الاتفاق الضمنى على بدء الصلة ، وميلاد العلاقة ، وقوع الخصوصية ، بدت له متوحدة بلحظتها ، تسعى إلى صفو لم تصله بعد ، فيها فرادة ، ود لو فض أسرارها واطلع على دخالها ، نفذ إلى قدس أقداسها ، يلوح توردد من خلال شحوب وجنتيها ، يحاول المقارنة بين المذاقين ، نبيذ المغربى النادر ، وهذا الذى يبدأ التعرف إليه الآن . يخيل إليه أم مذاق تلك الزجاجة الطف وأرق ، أيرجع ذلك إلى الجودة ، أو .. إلى الصحبة ؟ ، قال القدامى أن المعول كله على النديم ، والنديم مشتق من الندم ، لأن ذلك ما يعقب فراقه وابتعاده ، هل سيندم على فراقها ؟

كيف سيذكر صحبتها بعد انقضاء الوقت ؟ لا يدري ، لكن الامر مشوب بما يحاول نسيانه الآن ، ومن ذلك غوامض المدينة ، ورؤيته مالم يسمع به من قبل ، وبييقينه الخفى أن ثمة شيئاً ما سيقع ، ماهو ؟ لا يدري ، ربما خوفه المحدث من مكروه قد يقع في غربته فلا يمكنه دفعه ، لماذا اختارته هو بالذات ؟

عند تأهبها لتناول الطعام ، تشير إلى المقائق ، تقول ان هذه نوعية لا توجد إلا في المدينة ، هذا الحجم ، وذلك المذاق الناتج عن تركيبة خاصة جداً يقوم بتصنيعها معمل عمره ثمانية قرون ، ومازال يعمل بالوسائل اليدوية ، انه متخصص في تصنيع اللحوم ، جزء من انتاجه يصدر إلى العاصمة الاتحادية ، يقدم في المطاعم الكبيرة والفنادق العريقة . لكن المذاق لا يكفى ، لابد من رصها بالعرض ، وتغطيتها بهذا الجبن الخاص .

تتوقف لحظات ، تقطع واحدة إلى نصفين ، تغمسها في الجبن ، تتذوقها متمهلة .

— هكذا .. يجب أكله ..

يتبع خطواتها بحرص ، تبتسم مبتهجة ، تقول إنه يبدو متقناً للتقاليد كأنه من أهالي المدينة ، تقول .. إن البلدية أصدرت لائحة منذ ثلاثمائة وخمسين عاماً تنظم أكل المقائق ، بعد ظهور أكثر من نوع ، تفاوتت الاحجام في السمك ، والطول ، والمذاق ، كثير منها جاء من مدن أخرى ، ولكن رئيس البلدية وقتئذ ، كان محباً للمقائق ، متعصباً لانتاج هذا المصنع ، اقدم على اجراء سخر منه البعض وقتئذ ، إذ أصدر مرسوماً بلدياً بمنع دخول المقائق ، وسرعان ما ظهر تعبير « المقائق الأجنبية » ، فرض عقوبات على أى بائع أو مطعم يقدمها ، شدد الحراس رقابتهم على المداخل المؤدية لمنع القادمين من

حمل أى صنف من المقائق ، خلال هذه الفترة كثرت الشكاوى الكيدية ، إذ لجأ بعض من يضمرون غيظا من الآخرين إلى ارسال شكاوى يتهمونهم بأكل المقائق الأجنبية أو اخفاء كميات منها ، في البداية لم تبذل الشرطة أى محاولة للتحرى ، إنما تبادر إلى مداومة الجهة المشكو في حقها ، طبعا .. أدى هذا إلى التحرز واتخاذ الحيطة ، حتى تم بالفعل قطع دابر الحقائق الأجنبية ، وكان البلاء الحقيقي أن تشتهى امرأة حامل نوعا منها ، عندئذ يضطر الزوج إلى صحبتها إذا كان قادرا ، والسفر مسافات بعيدة لأكل المقائق المرغوبة ، أو البقاء مع دوام الرعب من ظهور قطعة مقائق في جسم المولود لعدم تلبية رغبة الام ، أحيط هذا الصنف الوحيد برعاية كبيرة ، خاصة بعد مجيء عدد من الرسامين المشهورين وابداعهم لوحات للطبيعة الصامتة ، كانت أطباق المقائق عنصرا رئيسيا فيها ، لكن ثمة اختلاف لا يلحظه الغريب العابر ، ذلك ان اطباق المقائق في تلك اللوحات تحتوى على الأصابع مرصوفة بالطول ، وليس بالعرض ، ويرجع هذا إلى موقف التزمته إدارة الجامعة وطبقته بصرامة في مطاعمها ، ومآدبها ، إذ نصت لائحة البلدية على وضع المقائق بالعرض ، والجبن في الطرف الأيمن ، لكن في الجامعة قرروا ، رصها بالطول ، والجبن في الناحية اليسرى .

لماذا؟

حفاظا على التميز والاستقلالية ، لكن .. هذا داخل أسوار الجامعة فقط ، وبالطبع كان الفنانون يأكلونها داخل المطاعم الجامعية ، المهم .. طبعت صورها على البطاقات البريدية في نهاية القرن الماضى بعد ذىوع الصور الفوتوغرافية ، وخصصت لوحات الدعاية السياسية ، طبعا مع صور الفتيات الجميلات ، شاع الأمر ، وقصده الأجانب ، وتضمنت قوائم الشركات

الأجنبية وبرامجها تناول وجبة في المدينة ، وفي الرحلات المرتفعة التكاليف يذكر هذا المطعم بالذات ، إذ أنه أقدمها ، وأفضلها ، ظهر في المقاطعات الأخرى ، وفي العاصمة مطاعم تخصصت في هذا الصنف بالذات ، يعلق أصحابها شهادات تثبت انتماء أصولهم إلى المدينة ، ومع زيادة حركة السائحين القادمين من أمريكا انتشرت في فنادق البلاد التي حرصت في اعلاناتها على نشر صورة طاه من أهل المدينة متخصص ، ويحمل شهادة خاصة من البلدية تثبت أنه اجتاز الاختبارات الخاصة بأعداد المقاتن ، الآن يعتبر أهم طبق يقدم في العواصم الأجنبية خلال الأسابيع الاعلامية ، ومن علامات المدينة ..

- مثل الكافيار الروسى ، والمكرونه الإيطالية .

والشعبانیا الفرنسية ..

بيتسم .

- والفول الدمياطى ، والملوخية الصعيدية ، والسّمك البورسعيدى ،

والفطير الشرقاوى ..

تتطلع إليه جادة ، مقطبة ، مستفسرة .

- أطعمه مشهورة عندنا ..

- لم أعرفها .

تعود على مضغها الأنيق ، المتمهل ، لم يستطع الوقوف على مذاق الخاص ، لا يأكلها إلا نادرا ، لكن ما بدا له مثيراً ، حماسها أثناء اطلاعه ، عند خروجهما التفتت فجأة في لحظة هم فيها بتركيز البصر على رد فيها المتناسقين ، المتناغمين ، البارزين في غير افراط ، ابتسامة مختصرة تشى بادراكها ما يغمره ، يخجل ، لكنه يفاجأ بقولها :

- ترغّب في رؤية بيتي الصغير ؟

يتساءل ، هل تتوالى الأمور بسرعة هكذا ؟

- طبعاً أرغب ..

يتطلع إلى الفراغ والابنية خارج المطعم ، الضوء النهارى مغاير لما كان عليه عند دخولهما ، طبعى .. ألم تمض ساعة أو أكثر ، يجلس إلى جوارها ، يربط حزام الامان ، احساسه بالمغامرة ضعيف ، أهى الرغبة الخفية المصاحبة للاقتراب من أى امرأة جديدة ؟ ، تماما كهيبة الوصول إلى أرض غريبة ، أو التأهب لدخول مدينة مجهولة ، أو بناء مبهم ، لم يشرع مرة إلا وتردد ، بل وكاد يحجم ، كيف سيجدها ؟ هل سيمكنه الاستمرار ؟ ، ماذا لو فشل ؟ ، وكثيرا ما جرى له ذلك في المرة الأولى ، معظمهن يدركن ويفهمن ، بل يقدمن المعاونة ، مبديات صبرا جميلا ، هل تهيئه هذا له صلة ؟ ، أم لصحبته هذه المرة من تبدو مستعصية ، غامضة ؟ أم لانشغاله برصد تحولات لا يعلم أهى حقيقة أو متوهمة حتى الآن ، داخله أو خارجه ، يلتفت .. يمتد الشارع راسخا ، متصلا ، يوشك على اليقين أو ما رآه عند اتجاهاهما إلى المطعم كان بتأثير اضطراب ما ، ربما الارهاق ، تتوقف العربّة أمام بناية من خمسة طوابق ، عند نهاية الطريق جسر للسكة الحديدية ، تقول ..

- هنا يبدأ الجزء الحديث .

تدور حول العربّة ، تنظر إلى العجلات ، تشد مقبض الباب ، تتقدمه تجاه المدخل ، تضغط أرقامها في لوحة مستطيلة ، تصدر تكة معدنية الوقع ، بسرعة تدفع الباب ، يشم رائحة رطوبة ، لكن عبيرها الانثوى يصله واضحا ، يقوى أو يضعف من أنثى إلى أخرى ، مجمل لروائح شتى ، لايتشابه أبدا مع آخر ، كثيرا ما اشاره ، لكنه الآن هادئ ، متهيب ، لا يوجد مصعد ، سلم ضيق

الأبواب مصممة ، ما من أصوات أو اشارات تدل على حركة ما ، عند المنحنى نافذة تطل على المبانى الخلفية ، يلمح أصصا للزهور .

تقف فى الطابق الرابع ، حلقة مفاتيحها مثقلة ، للباب ثلاثة أقفال ، لابد أن هناك ما يستدعى هذه الاستحكامات كلها ، الأرقام المعدنية ، الإغلاق المحكم ، تبتسم ، تدعوه إلى الداخل ، يخطو حذرا ، متطلعا ، مخيفا بأحكام أى بادرة ربما تشى برغبته التى تتأجج الآن بتأثير وحدتهما ، وشبه يقين أنهما بمفردهما فى المبنى كله .

اللون الأبيض غالب ، الجدران ، المكتبة ، المقاعد ، من المدخل يمكن الإحاطة بالمكان كله ، صالة صغيرة ، حجرة داخلية للنوم ، سرير عليه غطاء من الصوف الملون ، ألوان متداخله ، ممتزجة ، تفيض صخباً صامتا ، إلى جوار الفراش مكتب صغير ، فوقه كتب عديدة ، لم يدقق عناوينها ، وصحف مطوية ، جريدة البلدية ، يعرفها إذ رآها عند الباعة فى السوق ، أطلعته المغربى على عدد منها عندما حدثه عن تجاهل صحف البلدية للاحتفال الجامعى . فى الصالة مقعد مستطيل ، يمكن أن يتمدد فوقه المرء إذا اضطر إلى قضاء وقت طويل ، أما الفراش فمن الصعب اتساعه لاثنتين متجاورين ، يفيض المكان أناقة ، وحسن ذوق ، إلا أن وحدة عميقة تخيم عليه ، يقول أنه مكان جميل ، تتساءل بسرور ، أحقا ؟ ، يومئ مؤكداً فى عين الوقت الذى يفكر فيه ، كيف يشرع ، بأى خطوة يبدأ ؟ ، المهم أن يبداً هدوءاً ورسوخاً ، لا يدري لماذا طفا على سطح وعيه نغم قديم مصاحب لكلمات تبعث عنده شجاً .

شجنى يفوق على الشجون ..

الح عليه النغم حتى شرع فى ترديده لكنه كف ، يود أن يلم بعالمها الداخل، من هى ؟ . من أين قدمت ، وإلى أين ؟ ليتها تحدثه عن صاحبها ، عن

عائلتها ، عن أشواقها ، ليتها تخبره .. كيف تفكر ، كيف تراه ، يود أن يقض مغاليقها النفسية والحسية معا .

يسألها عما إذا كانت تمضى أوقاتا طويلة هنا ؟ ، تقول إنها تمضى نهايات الأسبوع هنا ، لا تخرج ، خاصة في الشتاء ، بعد عودتها من المكتب أو من جولة تأوى إلى عالمها هذا ، تسأله عما إذا كان يفضل الشاي أم القهوة؟ ، يقول إنه لا يشعر الآن بالحاجة ، تجلس في المقعد المواجه أمامه ، يستفسر عن أصحابها ، عن أقاربها في المدينة ؟ تقول إن والديها يعيشان في الجانب الآخر من المدينة ، صديقتها الحميمة على سفر الآن ، أما صاحبها فيقيم الآن في الهند لفترة ، يسألها عما إذا كانت تنوى السفر إليه ؟ ، تتطلع صوبه ، التفاتة حادة مفاجئة ، مصاحبة لتحديق عينيها ، يمنحها هذا تفردا ، وغموضا ..

.. هناك مشكلة !

اجابة باترة ، تقطع عليه محاولة للاسترسال ، تمضى إلى المطبخ ، يتأمل الكتب ، يسند حقيبته الجلدية التى يعلقها دائما إلى كتفه ، يلمح سريرها ، يتخيلها متمددة ، محملقة ، مغمضة عينيها ، في ثياب النوم ، أو عارية تماما ، لم تلمح أى بادرة استثارة عنده ، خيل إليه أن ثمة رائحة مطهر ما ، يقول دهشا ..

.. هذه كتب عن مصر ..

يجيئه صوتها قريبا .

.. نعم ..

يقلب الكتاب ، يحمل غلافه ألوان العلم الثلاثية ، دليل سياحى شامل ، على الغلاف الأخير يلمح خاتما مستديرا لمكتبة شهيرة وسط القاهرة ، هل

زارتها ؟ أوشك على الاستفسار لكنه أحجم ، أنها تقف خلفه تماما ، تمد يدها ،
طبق مستدير به ثلاث كعكات ممتزجة الألوان ، قالت إنه نوع نادر جدا ، لا
يمكن أن يتذوقه الا في هذه المدينة ، يعجن بالعسل الجبل ، صينى المصدر ..

— مثل المقائق ؟

تجيبه بجدية .

— لكن هذا يخص الجامعة ..

تقول إن هذا العسل لا يستخدم إلا لتلك النوعية من الكعك ، يفرزه نحل
من نوع نادر ، لا يمتص إلا رحيق زهور صينية دقيقة جدا ، ترجع إلى زيارة
أمير صينى فى الزمن القديم ، غير الأمير المختفى فى البرج ، أهدى الجامعة
أبصال تلك الزهور التى تخضع منذ عصور لرعاية خاصة من أساتذة كلية
الزراعة ، كمية العسل الناتجة محدودة جدا ، يوجه نصفها لصناعة هذا
الكعك الذى لا يخبز إلا فى نهاية السنة الدراسية ، والنصف الآخر يعلب فى
أوان خزفية ويخصص للهدايا الرئاسية .

تتدفق بالكلمات ، عندما تصاعد شروعه الداخلى بسرعة ، لو أرجأ فلن
يخطو أبدا ، يمد يديه ، احدهما تتناول الطبق ، الأخرى ترتفع أصابعها إلى
شفتيه ، يلثمهما برقة ، غير أنها تنفر إلى الخلف ، تلفظ برفض يصعب
تصدعه ، أو النفاذ من خلاله ..

— من فضلك !.

مناقشات أولية

.. يؤثر المشى ، كعادته منذ وصوله ، من الفندق إلى مقر الاحتفال ، يتذوق طلاوة اقبال الصبح ، وبدايات النهارات التى سيذكرها فيما بعد ، لم ينتظر مع بقية المدعوين المتجمعين بعد الافطار فى الصالة الرئيسية .

اليوم ، يرغب فى الانفراد ، استعادة صحبتها أمس قبل تكرار اللقاء ، قبل رؤيته لها بعد قليل ، لا أثر لخلج عنده ، لكن ثمة حيرة بعد انصرافها ، ونزوله أمام الفندق فوجئ بمغادرتها العربية ، اتجاهها نحوه ، تصافحه بقوة ، بيد ضاغطة ، تجذبه ناحيتها ، تقبله ، بمبادرة حادة ، مباغته ، قبله خاطفة ، محايدة ، مجرد برقية غامضة ، سريعة ، أنحنى ، أبدى امتنانا لحرصها على رفقته ، وأسفه لما بدر منه .

ترقرقت ملامحها ، لاحت نيرة ، بسامة ، غير أن شجنا بدا ، حل به ، لن يراها مرة أخرى ، خطر له هذا ، لماذا أيقن ؟ ، بعد ذهابه انفراد مستعيدا طلاتها ، وصمتها المفاجئ ، والحزن العالق بشرفتى عينيها ، تأمل بطاقتها ، كان اسمها الاول يخلو من الحروف الثلاثة التى تضاف إلى أهالى المدينة الاصلاء ، التابعين تماما للبلدية ، الذين لم تربطهم بالجامعة أى صلة ، وهى حروف السين والكاف والياء ..

أما أسمها الثانى فلا يسبقه حرف التعريف « الـ » ، وهذا ما يميز الجامعيين ، سواء الدارسون ، أو الاساتذة ، أو من كان على صلة وثيقة ، مثل

متعهدي توريد الأشياء الضرورية ، من أغذية إلى أثاث إلى حبر أو ورق .

إلى من تنتمي ؟

إلى الجامعة ، أو البلدية ؟

ربما كانت مغتربة ، ذات أصول أجنبية .

منذ أن فارقتها أمس لم يغادر حجرته إلا صباح اليوم ، هاهو يسعى ، بعد ساعة تقريبا تبدأ الجلسة الختامية ، يمشى واثقا ، كأنه عاش عمره كله يجوس تلك الشوارع ويعبر هذه النواصي ، لكنه بعد دقائق يبطئ الخطى .
ماذا لاحظ ؟

الا تبدو الاقواس والأعمدة الحجرية أقصر ؟

الا تلوح المغارق اضيق ؟

لن يستفسر ، لن يلجأ إلى أى عابر ، بنفسه سيحاول التأكد من عدم تبدل الثوابت ، من امتداد الطرق في عين مواضعها ، ومثل المداخل في أماكنها ، مضى الشوارع إلى ذات الاتجاهات ، تقاطعهما عند المواضع التي سبق له عبورها ، المرور بها ، هذا أغرب وأشق ما مر به منذ وصوله ، لولا إصراره على الوصول بمفرده لتوقف ، لانتثنى راجعا إلى الفندق ، ثمة تبدل مؤكد ، على يقين منه الآن !

هذا عجيب ، صعب ، من الحقائق المفروغ منها أن المكان ثابت ، والزمان متغير ، أما الإنسان فعابر ، وهو طارئ الوجود ، مؤقت المدة .

يسترجع الصورتين المتضادتين ، المختلفتين للميدان ، لمبنى الأمن ، يحار تحوى المدينة أمورا تستعصى على الإدراك ، أو النفاذ عبرها ، كاد يمضى ليلة أمس إلى الميدان ليرى أى هيئة أمسى عليها ؟ ، ليتأكد ، ليتثبت ، لكنه خشى فقدان الطريق ، وأخطارا خفية ربما تحقق به ، أرجأ مشروعه .

عند انتقاله من اليقظة إلى النوم ، أو ما برأسه تجاه الفراغ ، لماذا يهتم وكأنه مقيم أبدا ؟ ، كان الليالى والأيام ستكرر عليه هنا ، ليتبدل الميدان ، فليتحرك المبنى المهيب ، قاتم الحضور ، ماذا يعنيه ؟

لن يتبقى من المدينة الا الحيرة ، وصحبة عابرة واصداء لظلال بعض المداخل المهيبة ، العريضة ، الرحبة ، خاصة المنشآت الجامعية ، ولون السماء عند العصر ، وصوت عصفور غريب وقف مرة واحدة على نافذة غرفته ، والبرج ، وسموق الحصن المشيد ، وانتقال خطو الباسقة داخله .

تنتهى الأماكن التى تطول بها الإقامة أو تقصر بعد مغادرتها إلى أطراف ورؤى لا رابط بينها ، مروقها يثير معنى ، وقد لا يوحى بشئ على الإطلاق . غير أن هذه المدينة تخلف عنده حيرة ، بل .. وخوف ، فما يبدو له كل لحظة محير ، عجيب !

المهم الآن أن يتأكد من الطريق ، يعرف هذه الناصية ، والعلامات البيضاء التى تحدد مسار المشاة ، بعدها يلوح البرج فوق المباني .. يمد الخطى ، كأنه يخشى اختفاء العلامة الفارقة ، الثابتة التى ألم بها .

البرج ..

إذن لم تتبدل الشوارع ، المؤكد أنها أضيق ، لكن يجب أن يطرح عنه الآن انشغاله بكل ما يلحظ ، موعد رحيله يقترب ، ليؤجل انزعاجه حتى ولا سيصير إلى ما انتهى إليه عالم الفيزياء المعروف ، حكايته تروى داخل أسوار الجامعة بمزيد من التأسى ، يردها رجال البلدية بسخرية ، بل أوعزوا إلى رسام الكاريكاتير بتناولها فى الصحيفة اليومية الأولى ، لكن آثار ذلك عند الناس استهجانا ، وحرر بعضهم رسائل بدون توقيع فكف ، ذلك أن هذا الاستاذ كان من أبناء المدينة الاصلاء ، ولد بها ، ونشأ ، وتلقى تعليمه

بمراحله المختلفة في مدارسها ، حتى انتهى إلى الجامعة ، فنبغ ولع في علم الطبيعة مع أنه كان أبكماً ، أصماً ، لا ينطق ولا يصغى ، وعندما شاع أمره ، وتليت أبحاثه أكثر من مره في المنتديات والحلقات ومراكز البحث ، أقبلت عليه وسائل الاعلام ، إلا أنه اعتذر عنها ، بذلت محاولات عديدة حتى أن التليفزيون الأمريكى عرض مليون من الدولارات مقابل إجراء مقابلة لمدة ساعة معه ، تحاوره خلالها المذيعة المشهورة بربارة التى يتهافت رؤساء الدول على المثل أمامها والاجابة على اسئلتها ، مليون له ومليون للجامعة ، ومع ذلك اعتذر وأيده في ذلك المجلس الاربعينى للاساتذة ، مع ان الجامعة كانت في أمس الحاجة إلى المبلغ لتجديد المعامل التجريبية ، والستائر التى لم تتغير منذ القرن التاسع عشر ، البلدية شنت هجوما مستترا ، ثم سافرا ، فظهور الاستاذ في البرنامج مع بربارة وبينهما مترجمة أو مترجم يستخدم لغة الصم والبكم فيه خدمة لقضية المعوقين ، ليس في المدينة فقط ولكن في العالم كله .

رجال الجامعة اكدوا أن هذا الهدف الإنسانى لا يحرك البلدية ، إنما هناك هدفين محددين الاول استغلال البرنامج المقترح في الدعاية لتنشيط السياحة ، خاصة أن عدد الافواج الأمريكية أقل بكثير مما هو متوقع ، الثانى هو المبلغ المعروف ، المليونان سوف يحولان إلى البنوك المحلية وهذا يزيد من رصيد العملة الصعبة في المدينة ، ويوقف الارتفاع المستمر في سعر الدولار ، هذه الأسباب كلها شرحها رجال البلدية بالتفصيل ، ولكنها قوبلت بصد ورفض حازمين ، من هنا يمكن تفسير الشماتة الشديدة العلنية بعدما جرى للاستاذ النابغة ، وتفصيل ذلك أنه خلال انشغاله بدراسة حزام الكويكبات بين الأرض والمريخ ، وبعد أن أجرى حسابات معقدة ، أيقن من

احتمال اصطدام أربعة منها بكوكب الأرض خلال المليون سنة القادمة ، خاصة إذا تماسست المدارات .

النتائج لاقت اصداء واسعة ، وتردد اسمه في العديد من عواصم العالم ، وظهرت شروح عديدة ، ورسوم توضيحية ، وتفسيرات شتى ، ولكن ماجرى داخله هو كان مختلفا ، لم يتوقعه أحد ، ذلك أن الحقيقة العلمية التي توصل إليها الحث عليه حتى شغلته تماما ، وصار يفكر في الانفجار المهول الذي سيقع لحظة الصدام ، وما سيحدث من زلازل وفيضانات ، وانقلابات في الطبيعة بل ان قوة التصادم إذا زادت على حد معين ربما تؤدي إلى تفجير الكوكب وتحوله إلى حزام جديد من الكويكبات ، عندئذ تنفى الحياة التي لا يوجد حتى الآن أدلة مقنعة على ان ثمة قرينا آخر لها في الكون الشاسع .

في نومه ، في يقظته ، في حركته ، في ثباته ، ألح عليه الأمر وطغا ، قل وسنه ، و طال سهره ، وعجزت اشاراته عن التعبير عما يمر به من خوف واضطراب عظيمين .

ولما بدأ أمره في الشروع ، عرض عليه زملاؤه دخول المستشفى الجامعى لبضعة أيام فقط .. لاجراء فحوص عادية ، أو لالتماس الراحة .

رفض .. وفي احدى الليالى ألقى الحرس الجامعى القبض عليه عند مدخل القبو الجامعى الممتد تحت الأرض حيث الكنوز والنفائس ، اقتيد إلى التحقيق ، فهذا موقف لا تجدى فيه شفاعة زملائه ، ولا شفقة الإداريين القدامى . خاصة انه صرح بنواياه ، عندما قال إنه يريد الوقوف على سرج الحصان الذى ركبه الا سكندر الأكبر عند غزوه بلاد فارس . كذلك الحصول على كأس البللور الصخرى التى دفعها سليمان الحكيم إلى شفتى بلقيس ملكة سبأ وسقاها ماء الورد .

كثيرا ما تردد مصادر الجامعة وجود السرج والكأس ، لكن لم ترد أى تفاصيل عنهما فى قوائم المقتنيات التى يسمح بأعدادها ونشرها كل مائة عام مرة . لهذا من غير المسموح به مجرد التفكير فى طلب الاطلاع عليهما ، وادرجا فى المقتنيات المحرمة .

تأسف الناس على الاستاذ النابغة ، ورثاء بعضهم حبا ، وتذكره أصحاب المتاجر ، وعمال المطاعم ، ومحصلو الشركة المحلية للنقل ، والعاملات فى المسرح الكبير ، ودار السينما الصيفية ، كان لطيفا كريما ، خجولا ، سريع البديهة ، يفهم ما يقال من حركة الشفتين ، وتعبيرات الوجه .

أليس أمرا مؤسفا ان ينتهى مثله إلى المستشفى الجامعى ، وأن ييؤخذ بأبر الحقن حتى يمكنه النوم ؟

مصادر البلدية رددت ما يشاع عن مس يصيب الاساتذة فجأة . وذكرت بعض الروايات بمصير الفيلسوف الذى كان أول من نطق عبارة : صباح الخير .

ترى من خطأ فوق هذه الأرض قبل ألف عام ؟ من سيعبر هذه الناصية بعد قرن من الآن ؟ أى صور ستتوارد على ذهنه ؟ وماذا سيثيره ذلك الوجود المحيط من تداعيات ؟

يجتاز الباب الرئيسى متسائلا ، هل سيعبره مرة أخرى يوما ما ؟ هل ترقبه الباسقة ، الرقيقة من مكان ما ؟ يمشى متثدأ ، متمهلا ، يهفو قلبه إلى لا شىء يمكن تعيينه أو تحديده ، بعد لحظات سيرها ، سيتوجهان ، خلف المنضدة المستطيلة ، فوقها مطبوعات شتى ..

أين .. أين هى ؟

فتاة أخرى ، أقصر ، أكثر امتلاء . كان ممكنا له التفكير فى احتمال ذهابها

هنا أو هناك ، ظهورها بعد قليل تفيض حيوية ، تتدفق نشاطا ، ترتب
الكتيبات ، تخاطب هذا ، تومئ لذاك ، تنتقل من أول المنضدة إلى آخرها ،
تفتح الدرج الصغير لتبدل نقودا أو لترد ما تبقى ، تعيد ترتيب الأوراق ، غير
أن يقينا خفيا أكد له استحالة ظهورها .
يومئ محيا .

تجاوبه القصيرة بتحفظ باد ، هل من اللائق أن يسألها عن زميلتها ؟
تردد .. لكنها عندما خاطبته باسمه ، دهش ، خاصة أنها لم تتجه بعينيها إلى
البطاقة الصغيرة ، المعلقة إلى صدره ، تتساءل عما إذا كان يحتاج إلى خدمة
ما ؟ .

– أتمنى ابلاغ تحياتي إلى زميلتك ، سنرحل غدا في ساعة مبكرة .
– أى زميلة ؟

يتطلع مبتسما ، يشير إلى حيث تقف ، تنظر مرتابة ، تشير بكلتا يديها إلى
صدرها ..

– لم أفارق مكاني منذ أول يوم ..
– لكنها ..

تشير إلى الحاسب الآلى ..
– أسفة .. عندي شغل ..

تلمس المفاتيح الصغيرة ، المستديرة ، يبتعد متمهلا ، شاكا فيما عنده .
مثخنا بالحيرة ، يلج القاعة ، المكان كله في حالة تأهب لاستقبال الأعضاء .
زجاجات المياه المعدنية المعبأة من النبع الفوار الذى دارت بسببه الحروب
وسفكت دماء ، الأطباق المستطيلة التى لا تستخدم إلا فى الجامعة ، كل أطباق
المدينة مستديرة ، البيوت ، المطاعم ، المقاهى ، أقرص الحلوى المصنوعة من

عسل ينتج من مناحل كلية الزراعة ، اشتهر بجودته ، ولسعة مميزة لمذاقه ، تماما كتلك التى تناولها أمس من يدها ، يستعيد اصرارها على أن يأخذ ما تبقى ،، عنده واحدة فى الفندق ، تمثل أمامه ، تقف بسموقها ، بجديتها ، بلين ملامحها ، بصددها الحازم لمحاولته التقرب ، اقبالها المفاجئ وتقبيلها . لو يعرف الطريق إلى منزلها لمضى الآن ، لترك بطاقة تحمل سطورا وداعية . يذكر صندوق البريد الصغير المعلق إلى الجدار بعد المدخل ، فتحتة ، تناولت خطابات ونشرات اعلانية ألقت بها فى صندوق المهملات المطلى بلون أبيض ، لم تقرأها ، مؤكداً ذلك ، لم يقصه إنسان عليه ، لم يطالعه فى كتاب ، رأى وسمع ، أين هى إذن ؟ أين ؟

يتأمل السقف ، التماثيل الصغيرة ، أطفال مجنحين ، نساء نصفهن الأعلى آدمى برى ، أما الأسفل فبحرى ، لهن ألقى الهى ، وأوضاع ربوبية ، هذه القاعة للاحفالات النادرة ، فيما يتم تنصيب رؤساء الجامعة عبر طقوس مهيبه ، فى مبنى البلدية القديم قاعة مماثلة جرى تجهيزها منذ أربعة قرون لتنصيب رؤساء البلدية . لكنها خصصت لأغراض أخرى ، مثل إقامة المعارض الهامة والاستثنائية ، مثل معرض الآثار الفرعونية الذى استمر ثلاثة أشهر ، وشهده أربعمائة ألف متفرج ، ومازال رجال البلدية يرددون هذا الرقم بفخر ، وإن أرجعه الجامعيون إلى أهمية الآثار ذاتها ، والدليل تواضع أرقام الزوار المترددين على المعارض الأخرى ، وبالطبع لا يخفى الغرض الاقتصادى من استغلال المكان وهذا ما لا يمكن ان تقبله إدارة الجامعة .

الأعضاء لم يصلوا بعد . اعتاد مثل هذه الاحتفالات والمؤتمرات . الأبحاث ، التوصيات ، القرارات ، تكرار وجوه الدعويين ، بعضهم يقدم بحثه فى أكثر

من اجتماع ، يغير المقدمة ويعيد صياغة بعض السطور ، يتابع ساخرا حماس البعض ، افتعالهم النقاش ، معظم وقته يشرد ، لا يوجد إلا بمثوله الجثمانى ، أما مشاركته الفعالة فلحظة القاء بحثه ، أو ابداء بعض الملاحظات ، يردد أحيانا ، المهم تسديد نفقات الإقامة وبطاقة السفر بالمشاركة ، باثارة جدل ما . لا يهتم بما يدور فى خلفيات الحفل ، أولى اهتمامه لتجميع الدراسات المطبوعة بمناسبة تأسيس الجامعة ، أما رغبته فى التطلع إلى الفسيفساء الملونة فى سقف المدخل الرئيسى فتتجاوز استعداده للمشاركة فى المناقشات أو الاصغاء إلى ما يلقى من بحوث .

كثيرا ما صد النوم وقاوم الاغفاء أثناء الجلسات المطولة .

أمس .. قالت له الباسقة - التى لا يدرى أين مسعاها الآن عندما يلتحق أبناء المدينة بالجامعة يمرون باضطراب ، طوال مدة دراستهم ، ولأهم جامعى ، حتى إذا تخرجوا وعملوا فى مصالح البلدية ومنشآتها انقلبت أحوالهم ، ولزم جهدهم بما يخالف ما تلقوه عبر سنوات ، يمر الكثيرون منهم بأزمات حقيقية رغم الدورات التمهيدية المكثفة التى تنظمها البلدية بغرض إعلان هو التعريف بتاريخ البلدية ونظمها ، ولكن جوهره إزالة أى أثر للولاء الجامعى .

قالت أيضا إن مشاكل عديدة تنشب داخل العائلات ، إذا ضمت الواحدة شقيقين ، أحدهما جامعى ، والآخر بلدى ، لايمكن إلا للأسرة الراسخة احتواء مثل تلك الأزمة .

أشار المغربى فى حديثه إليه .. صحيح ، أين المغربى ؟ لماذا اختفى ؟ الليلة سيجرب رقم الهاتف ، سيطلب من بدالة الفندق الاتصال ، سيحاول الاصغاء إليه ، أو أنه وهم لا وجود له هو الآخر ؟. حدثه عن صلة الجامعة

والبلدية بالخارج ، صحيح ان العلاقات بالدول والمنظمات الأجنبية من اختصاص الحكومة الاتحادية ، لكن تراثا طويلا من الممارسات ليس سهلا تجاوزه . البلدية لها علاقات وثيقة بمدن العالم ، وللجامعة صلات قديمة بالهيئات العلمية المماثلة ، وكثير من خريجيه يتولون مناصب هامة في دول مختلفة ، خاصة في البلاد النامية ، وأحيانا يذكر لقب الوزير مقرونا بتخرجه منها ، التنافس قديم ، مصادر البلدية تردد دائما أن عدد الملوك والرؤساء الذين زاروا أو كاتبوا عمدة المدينة أكثر من أولئك الذين اتصلوا بالجامعة . لكن الاساتذة يقولون إن عدد الشخصيات العلمية والأدبية الذين أقاموا صلات مباشرة أو غير مباشرة لا يمكن حصرهم ، ثم يتساءلون بترفع: من يذكر الآن اسم العمدة وقت قدوم شكسبير ، وحضوره عرض إحدى مسرحياته على المسرح الروماني القديم الذى توجد بقاياه الآن قرب كلية الفنون الدرامية . من يذكر رئيس البلدية عندما جاء الفيلسوف العربى ابن رشد ، والقى دروسا فى المنطق لمدة سنة كاملة ؟

التفاصيل عديدة . لو اهتم بكل منها لأفنى وقتا وجهدا ، ان وجوده هنا عابر ، إنما جاء ممثلا لهيئته بدلا من زميل أقعده المرض ، إذا شارك فمن قبيل المجاملة ، والحرص .. حتى لا يقال بعد سفره أنه لم ينطق حرفا . الحقيقة أنه يقمع فضولا عنده ورغبة فى الالمام ، خاصة بعد تحذير المغربى من أخطار ربما تكون خفية الآن ، غير أنها دائية . تظهر فجأة ، لم يكف عن رصد ما يسمعه ، ما يمر به ، يرجئ كتابة بعض السطور فى مفكرته الصغيرة التى اعتاد حملها فى جيب سترته إلى ما بعد اقلاع الطائرة ، ربما اطلع عليها أحدهم !

ساعة معصمه ، ساعة القاعة ذات البندول الذهبى .

ثمة تأخير . لم تفتح الجلسة في موعدها . لم يأت بقية أعضاء الندوة بعد ، ثلاثة من ممثلي البلاد الشمالية ، يتهامسون ، فيما يلي ذلك علم أن الخلاف حول البيان الختامي بدأ ليلة أمس ، عند دخوله المصعد لحقه رجل نحيل ، من جزر المارتنيك ، طوال الأيام الماضية لم يتبادل معه إلا الإيماءات . سأله عما إذا كان سيحضر الاجتماع الذى سيعقد في الغرفة رقم أربعمئة وسبعة؟.

استفسر عما يجرى ؟

قال المارتنيكى ان بعض الزملاء اقترحوا ضرورة مناقشة النص الختامي للبيان ، بعضهم حصلوا على نسخة منه ، أما الهدف من اللقاء فاتخاذ هدف موحد .

تساءل : ممن ؟

قال المارتنيكى : من البيان الختامي .

استفسر : من سيتخذ الموقف ؟

قال مبتسما : ممثلو الجنوب .

أضاف مبتسما ، هذا تعبير مهذب يراد به بلادنا التى يعتبرونها فقيرة ، فى تعبير آخر يقولون ، نامية ، وبكلمة أكثر صراحة يقولون ، متخلفة .

قال إنه مرهق ، جال اليوم في المدينة ، أما ما سيتوصل إليه الزملاء فسيطلع عليه صباحا ، تساءل : ألن تتاح الفرصة لمناقشة البيان في الجلسة الختامية ؟ أجاب المارتنيكى أن تقاليد الجامعة تتيح ذلك لكن لابد من اتخاذ موقف .

رفع يده باسطا أصابعه الخمس عند وصول المصعد إلى الطابق الثالث ، « نطقها بلهجة أمريكية . لاحظتها فكر : أنه لا يحب هذه التحية ، جاوبه

مومئاً بدون نطق . علم بما جرى فى النقاش الللى ، لم يندد ، ذلك أن مضمون ما جرى تردد مرتين ، الأولى عقب الافطار ، والثانية فى القاعة ، أول مرة امتد الحوار إلى ما بعد الفجر ، بعض الأعضاء لم يغمض لهم جفن ، ذهبوا إلى الجلسة الختامية بدون نوم .

قال أحدهم أنه لا يتخيل صدور البيان بدون إضافة فقرة مقترحة تتكون من أربعة سطور تضم خمسا وأربعين كلمة ، اغفالها يعنى اهمال كل القضايا الحيوية التى تعانى منها الشعوب النامية ، وعلى رأسها بقايا الاستعمار والاستغلال والقهر . قال إن المناسبة لا تتكرر إلا كل قرن ، التالية ستحل والعالم خال من جميع المشاركين الآن ، بل لا يدري أحد إذا كان الكوكب سيكون سابحا فى مداره !. أخطار عديدة تهدد البشرية ، منها الأرض ، والكون ، ثقب الأوزون ليس ببعيد وما يترتب عليه من تدفق الأشعة فوق البنفسجية ، وارتفاع حرارة الكوكب ، الاستاذ النابغة لم يكن مبالغا عندما انشغل بخطر اصطدام أحد الجبال الطائرة ، هناك أيضا المذنب هالى ، كل الحسابات تؤكد أنه عندما يظهر المرة القادمة سيقرب إلى أدنى مسافة ، هذا لم يحدث فى المرات السابقة ، أما الناتج عن التلوث فأمر ذو مضاعفات بلا حد .

المهم ، ان يكون البيان الختامى وثيقة شاملة ، بحيث تصبح مرآة ملخصة ، مركزة للعصر .

بعد نطقه المقدمة ببطء وتمهل ، تلا نص الفقرة المقترحة ..

غير أن الأمر لم يكن بالسهولة التى لاحت فى البداية ، على الرغم ان المجتمعين فى الغرفة يمتنون إلى جانب واحد ، يعد طول جدل تم الاتفاق على خطوط عامة ، وتحفظ شخص واحد . أنه سفير سابق تجاوز السبعين ، وإن

بدا أقل عمرا لسواد شعره ، وهمته البادية ، دبلوماسى قديم ، ومن طبيعته تجنب الانحياز الصريح إلى هذا الجانب أو ذاك ، لكن أحد الحاضرين ذكر أسبابا أخرى منها حرصه ألا يغضب الجامعة ، أو البلدية حتى توجه إليه الدعوة فيأتى مرة أخرى .

تعرف إلى هذا السفير واقترب منه خلال اليومين الماضيين ، بدا هادئا ، حريصا على خفض صوته ، والانحناء مبديا احترامه عند اللقاء . إذا واجه من لا يعرفه يبادر بذكر اسمه ، ثم يقول على مهل : سفير سابق فوق العادة .
لمح فى عينيه حزنا قديما ، خاصة إذ يتحدث عن زوجته الأولى التى عاشرها أربعين عاما ، لم يختلفا مرة واحدة ، ولم يرتفع صوت أحدهما فى مواجهة الآخر ، ثم يكرر جملا بعينها .

« خطفت منى خطفا .. »

« مثلها لا يعوض .. »

« كانت تؤنسنى وترىحنى .. »

صحبته عندما جاء إلى هذه البلاد مطلع الخمسينيات ملحقا أول ، أمضيا فى العاصمة الاتحادية أربع سنوات من أجمل سنى العمر . انجبا ولدين ، الأول تجاوز الثلاثين الآن بأربعة أعوام ، هاجر إلى كندا ، وخلال إحدى رحلاته إلى المكسيك تعرف بأدريانا ، انجبا طفلة واحدة ، يرسل إليه بطاقة فى رأس السنة تحوى سطرا أو سطرين لا غير .

« يكفينى ذلك ، المهم أن أطمئن عليه .. »

الثانى فى الخامسة والعشرين ، استقر به الحال فى تايلاند ، لا يعرف ان كان متزوجا الآن أم لا ؟ لكنه يدير شركة تصدر العمال إلى دول الخليج ، أنهما مشغولان دائما ، لكن الأصغر يتصل به هاتفيا كل شهرين أو ثلاثة ،

لوطاة الوحدة اضطر إلى زواجه الثانى ، ثم الثالث ، أما امرأته الثانية فكانت فنانة تشكيلية مرموقة ، أقامت معرضين فى أحد مقاهى باريس ، سبق زواجها أربع مرات ، طلبت الانفصال بهدوء ، وعندما سألها عن السبب ، قالت : أنت مهذب أكثر من اللازم !. قال إنه لا يفهم ، أجابته بحدة : تنام معى وكأنك تقدم أوراق اعتمادك ! قال إن كلا منهما تجنب الآخر تماما بعد انفصالهما ، أما الزواج الثالث فتم بعد سنة ، واستمر ستة شهور رغم أنها قرييته .

« كانت قاسية .. قاسية جدا .. »

سأله عما إذا رأى حفيدته ؟

« صورتها .. صورتها فقط .. »

ملاح السفير ، ايقاع صوته ، حضوره ، استعادته مرات رغم قصر العلاقة ، غير أنه تفهم صمته ، واثاره النأى عن الآخرين ، كان يمضى وقتا، كثيرا ما تذكر هدوءه وامتثاله وسعيه الذى لا يرى فيدركه حنين ممتزج بأسى .

منه علم وألم بما جرى فى الاجتماع الليلي ، حول منضدة مستطيلة تحلق أربعة ، الآخرون قعدوا فوق السرير ، جاء ممثل عن الجامعة استاذ بكلية الطب ، مشهود له بفهم أحوال القلب وأجراء الجراحات المعقدة ، خاصة زرع القلوب فى الأجساد العليية .

جاء شاب نحيل ، طويل ، شقخته باهتة ، يبرم طرف شاربه الأيمن بأصابعه ، لم يدر أحد وظيفته ولم يعلن عنها عندما ذكر اسمه وقال إنه من رجال البلدية ، يمكث دائما فى قاعة الاجتماعات ملتزما الصمت والتطلع إلى المتحدثين بحدة ، وتدوين بعض الملاحظات فى دفتر حجمه مغاير .

وصل أيضا بعد بدء الاجتماعات برقع ساعة الرحالة التركي ، شاب هائل التكوين ، متراعى الأطراف ، غليظ الرأس ، حلتة رياضية بيضاء من قطعة واحدة ، مرصعة بعلامات شتى لهيئات ومؤسسات وعلامات تجارية لمنتجات شتى من السيارات إلى المياه الغازية ، ورموز مدن ومقاطعات ، لصوته صدى مصاحب له وهذا غريب . بدأ رحلته منذ عامين وسينهيها بعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر وخمسة أيام ، حيث يصل في السابعة صباحا من اليوم الأخير إلى مدينة هيروشيما ، هدفه الدعاية لانقاذ الكراكى المهدة بالابادة في المحيط الهادى ، هيئات دولية عديدة ترعى مشروعه ، وتساهم في تكاليف سعيه ، يحمل أغراضه على ظهره ، حقيبة من القماش الصناعى المتين ، جيوبها عديدة ، منها المستدير والمستطيل والاسطوانى ، تحوى قائمين من حديد ، يمكن تحويلها إلى سرير ، يثبت أعلاها نموذج للكرة الأرضية يعلوه مصباح كهربائى صغير ضوؤه أحمر ، يدور كالمصابيح المعلقة فوق عربات الاسعاف والشرطة ، وعلى الجانبين بمحاذاة كتفيه تنبثق اعلام مختلفة ، ربما للدول التى مر بها ، أو البلاد التى سيعبرها .

ما حير السفير وصوله بالطائرة إلى العاصمة الاتحادية ، وبالقطار المغناطيسى إلى المدينة ، اين رحيله مشيا إلى هيروشيما ؟

قال التركى أنه كان على مشارف طريق الحرير العظيم عندما وصلتة الدعوة لحضور الاحتفال المئوى ، باعتباره رمزا للانسان المدافع عن بقاء الطيور ، بعد نهاية الاحتفال سيرجع ليستأنف رحلته من النقطة التى جاء منها .

بعد أن تلا ممثل الجامعة نص البيان ، تقدم عالم النبات الأفريقى وتلا الفقرة المقترح ادراجها . قال إنه تم ترجمتها إلى خمس لغات حية درءا لسوء الفهم ، وأن التوصل إلى هذه السطور تم بعد مناقشات مطولة .

قال الطبيب ممثل الجامعة أنه لا يرى أى مانع ، خاصة أن المعنى واضح، متوازن .

رفع الاشقر يده ، بدا هادئاً لهجته استنكارية ..

.. تخيلوا ياسادتى وقع هذا على رجال البلدية ..

ثم قال :

.. الاحتفال لا يتم في فراغ مكانى أو زمنى ياسادتى !

السفير اطلق عليه « السيد سادتى » ، إذا بدأ حديثه قال « يا سادتى » إذا

أجاب يا سادتى عند القاء التحية . « صباح الخير ياسادتى » « كل شىء على

مايرام ياسادتى ؟ » .

قال الأفريقى ، ان تساؤله يفتح باباً لا بد من توضيحه قبل عبوره أول

الطرق إليه ، فالجامعة لها صورة عامة ، وأخرى خاصة ، الأولى في العالم

كله ، والثانية في دول الجنوب ، وهناك بعد خفى يربط الطرفين أو الجانبين ،

فما يتم الآن محاولة اقرار علاقات متوازنة ، بعد ان سيطر الشمال حقبة

طويلة . الخطر يطل الآن بعد انهيار المعسكر الاشتراكى وتقدم النظام

الغربى ، إضافة الفقرة أمر مهم للتعبير عن أوضاع جديدة لم تدر بخلد أحد

قبل سنوات قليلة ..

قال الأفريقى أنه يجب أخذ ذلك في الاعتبار بغض النظر عن دعاوى

بعض المؤسسات داخل البلاد .

هنا تردد صوت الرحالة التركى الضخم ذى الصدى .

.. والكراكى ؟

تطلع إليه الجميع ، تساءل الطبيب ..

.. أى كراكى ؟

- كراكى المحيط الهادى المهددة ..

مد الأشقر يده ، بسط أصابعه ..

- أصغوا إليه ياسادتى ..

قال التركى

- إنما جئت من أجل هذا .

اتجه الأشقر مباشرة إلى الأفريقى ..

- لو فتحنا الباب ، لن ننتهى .. كل منا لديه مايرغب قوله ياسادتى ..

بعد صمت قصير قال :

- يا سادتى ، مثل العبارة المقترحة ستؤدى إلى تأجيج خلافات حادة

نحاول انقاذ المدينة منها بعد رحيلكم ..

تردد مرة أخرى الصوت العميق المصحوب بالصدى ..

- أننى مصر على الاشارة إلى وضع الكراكى ..

قام الأشقر بارماً شاربه .

- سادتى .. هذا ضار جداً !

مناقشات ختامية

.. ثلاثون دقيقة بعد الموعد ، اكتمل الحضور ، مناخ خفى مختلف عن الافتتاح ، ثمة ترقب ، تربص ، رئيس الجامعة يرتدى الزى التاريخى المتوارث .

ذكر بجلال المناسبة ، وشكر الضيوف الذين قطعوا مسافات شاسعة للمشاركة فى احتفال لا يقام إلا كل قرن .

تمهل قليلا ، قال إنه سيتلو البيان الختامى الذى سيصبح من وثائق الجامعة .

بالطبع .. لن يلم بكل القضايا التى طرحت أو نوقشت ، خاصة ان التنوع فى الحضور غير مسبوق . لذلك يرجو ترحيب الجميع بما سيقال ، وأن يدرك كل من لديه فكرة أو قضية ملحة أنه ليس ضروريا ذكرها بالتفصيل ، بنصها الحرفى ، هنا أفكار عامة تتضمن المبادئ العامة . فى البيان ما يجمع أكثر مما يفرق ، وما يقرب يفوق ما يباعد . أما حق ابداء الملاحظات فمن التقاليد الجامعية العريقة .

بدا الرجل مهيبا ، وقورا ، راسخا مكانه ، ودودا أيضا ، لاحظ البعض جلوس الأشقر إلى يمين الطاولة المخصصة للكتابة ، رغم توافر الأجهزة الحديثة لكن الطريقة القديمة حفوظ عليها ، حيث جرت العادة بتدوين ما

يلفظ طبقاً لطريقة الاختزال القديمة . أما الرحالة التركي فظهر عند طرف المائدة اليسرى ، لم يحضر الجلسات السابقة ، أثار مشكلة عندما أصر على دخول القاعة حاملاً حقييته التى يعلوها المصباح الأحمر الدوار . بعد جهد أقنعوه مخالفة ذلك للنظم المعمول بها . اضطروه إلى تركها عند مدخل المبنى .

نبرات رئيس الجامعة واضحة ، ثمة نظام خاص لتكبير الصوت فى القاعات ، يعتمد على تصميم المبنى ، نتوءات بمقاسات وارتفاعات محددة ، تجاوب فى الجدران وزوايا تسهل انتقال الموجات وتردها ، لا مثيل لذلك ، ترتيب لاتفصح الجامعة عن هندسته .

إنه مثقل باغفاءة تراوده ، يحاول استنفاد قواه كاملة ، التركيز على ملابس الاساتذة وألوانها ونقوشها ، محاولة قراءة اللافتات الصغيرة أمام الأعضاء ، اسم الضيف ، درجته العلمية ، البلد الذى جاء منه ، أو تسديد البصر إلى نقوش الجدران ، الزخارف المتشابكة ، الأغصان المورقة ، تتخللها وجوه اطفال ، عيونهم واسعة ، شبه دامعة ، يستعيد ما قرأه عن هذه التصميمات عن الفنانين الكبار الذين تعاقبوا على نقشها وابداعها ، درجات اللون البنفسجى التى لم يجر توليدها من قبل ولا من بعد .

يستنفر من خبايا ذاكرته واقعة جرت فى الزمن الصينى المنقرض ، عندما تبارى فنانون أمام الامبراطور .

شرح الأول فى رسم غصن شجرة ، بعد فراغه منه حام عصفور وحاول أن يحط فوقه .

قال رجال الحاشية : لا يوجد أمهر من ذلك .

الفنان الآخر رسم بابا فى جدار ، كل من يقصده ، يحاول عبوره لكنه يفاجأ بصدم مصمت .

حاد القوم !

مثل ذلك جرى في بلاد فارس ، إذ أقدم رسام على تصوير غصون وزهور وطيور ، يظن الناظر إليها أنها حقيقة . جاء آخر ، اتجه صوت الجدار الأبيض ، الناصع .. المواجه ، لم يفعل شيئاً إلا أنه راح يصقل السطح حتى ظهر عليه التعب لما بذله .

حار القوم به ، لكن .. شيئاً فشيئاً اتضحت معالم لوحة ، لم تكن إلا المقابلة .. حتى ليحار الناظر بين الأصل والصورة ، رئيس الجامعة يذكر جملة فيها الجذع والغصن . لم يدر ما سبقها .

يوشك الوسن أن يدركه ، يرى مدخل المطعم القديم ، صعودها الدرج ، رائحتها الغريبة المتفردة ، تمتمة شفيتها ، إشارة أصابعها ، صندوق بريدها ..

وهم أو حقيقة ؟

أصل أو ظلال ؟

الأيدى تصفق .

لكن الكعكتين في الغرفة ، ما تبقى من هديتها ، مذاق المقائق لم يمح بعد .

هل غفا ؟

المعانى هائمة ، عامة غير مفصلة ، تتوارد عليه صور عديدة لحظات مارقة ، سرعان ما تنحدر إلى المنطقة المعتمدة من الذاكرة ، عدا ملامحها المقترنة بقسمات من عيون حياته ، صدى حضورهن قرب ، جلوسها إلى جواره ، في العربة ، في المطعم ، انفرادهما المؤقت في البيت ، الطريق الذى يطوى بمجرد قطعه .

واقع أو توهم ؟

مبنى فرع الأمن الاتحادى ، الحصن المشيد ، بوابة الغيبة ، بوابة

الفلاسفة ، الطرقات التى تضيق اليوم وربما تتسع غدا ، يود مفارقة هذا كله ، لو أن زميله لم يرقد مريضا لما عرف طريقه إلى هذه المدينة الغربية ، الحيرة ، لو يرجع إلى غرفته الآن ، يغفو ، لا يفيق إلا قبل مغادرته غدا ، يضيق الآن بمكته ، ثمة مالا يريح فى المناخ كله .

يدنو كل ترتيب من ذروته ، لا ينقض إلا الاذن بدخول المصورين ، ثم تبدأ المغادرة .

لكن .. ها هو الاستاذ الأفريقى يرفع يده ، متبعا الأصول المرعية ، أى خروج عنها أمر مخل لا يقبله المسئولون . مهما كانت شخصية المتحدث .

يمسك رئيس الجامعة بالجرس الفضى ، المزخرف بعروق نحيلة من الذهب ودوائر صغيرة من الفيروز والمرجان . يهزه بحركة محسوبة ، مقدرة ، ليرن مرتين لاغير ، يعنى ذلك الاذن بالحديث ، ثلاث تعنى الرفض ، أما إذا صر الطالب فأربع رنات تعنى الاذن للحرس الجامعى بدخول القاعة وأرغام المخالف على الخروج .

وريقات فى يد الاستاذ الأفريقى ، يقربها من عينيه ، يلتفت إلى المنصة ، يبدأ بجملته تتردد كثيرا فى المؤتمرات :

« شكرا .. سيدى الرئيس » .

إنه مضطر إلى ابداء ملاحظة ، يبدو أن خطأ وقع ، قبل التطرق إلى التفاصيل يجب التأكيد على استثنائية الجلسة ، كل كلمة تلفظ ستصبح موضع بحث وتأمل وتفسير من الأجيال المقبلة ..

البيان الذى تفضل السيد الرئيس بقراءته منذ قليل سيتلى فى مقدمة الاحتفال القادم ، أى .. بعد مائة سنة ، كل من سيوصى إليه لم يفد بعد إلى الدنيا ، وكل من سمعه لن يكون موجودا وقتئذ ، ستقوم كيانات ، وتتحلل نظم وتتبدل أوضاع .

يتوقف لحظة ثم يستأنف .

بعد التنبيه ثمة مدخل لابد منه ، تليه مقدمة لايضاح القصد ، واطهار الغاية ، أما المدخل فيتعلق باجتماعين عقدا ليلة أمس وصباح اليوم ، في الأول تم الاتفاق على صياغة فقرة محددة تتضمن إشارة واضحة إلى أمور جوهرية تمس الشمال والجنوب معا . في الثاني جرى تفاهم ضمنى على التلميح إلى مضمونها أو الإشارة إليه ، الأمر إذن لا يتعلق بنص معين ، بمحدوديته أو اطلاقه ، لكن .. الصلة وثيقة بشقين ، الأول يتعلق بجوهر ، والثاني متصل بمبدأ .. يتطلع إلى الأشقر ، الشاب يبرم طرف شاربه .

يقول الأفريقي أن أحد السادة الحاضرين جاء قبل الحفل وقال إنه أجرى اتصالات مع جهات ذات شأن لم يفصح عنها ، وأن الرأي أجمع على ابداء كل وجهات النظر مع وضع الفروق الجوهرية في الاعتبار ، وأنه لا مانع من ذكر الفقرة كاملة ولكن بعد تغيير صياغة جملة واحدة ، إذ استقر رأى السادة المجهولين على أن تكون هكذا :

« أما عن العلاقات بين الداخل والخارج .. »

بدلا من الصيغة الأصلية :

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل .. »

يقول إن عددا من الزملاء أعربوا عن تحفظهم ، إلا ان الموافقة على التعديل تمت احتراما للمناسبة وحرصا على درء البلبلة ، لكن وقعت المفاجأة بعد تلاوة البيان التاريخي ، إذ لم ترد من قريب أو بعيد ، وهذا مثير لدهشة جميع الزملاء الذين اختاروه ممثلا لهم ، وناطقا بلسانهم ، اجالا للحدث التاريخي ..

يتطلع إلى المنصة ، يعود إلى اطراف عابرة . يرفع رأسه ، صوته متمهل ، وقور ، كأنه بدل تبديلا .

يقول إن سائر أعضاء دول الجنوب وممثل جامعاتها يوقفون استمرار مشاركتهم الفعلية على ادراج النص ، وفي حالة الاستجابة فأنهم يتمسكون بالجملة الاصلية .

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل .. »

يتطلع إلى المنصة .

« شكرا سيدى الرئيس .. »

سكون متحفز ، مجال بالنذر تتبدد عنده أى محاولة للاغفاء ، ينتهى شروده ، كأنه وأصل القاعة للتو ، مع أنه لم يفارق مقعده . فيما بعد علم أن سابقة كهذه لم تحدث خلال الاحتفالات السابقة التى تسجلها الوقائع المدونة ، كتبت صحيفة اتحادية معلقة فى اليوم التالى ، ان تناقضات العصر تعقدت وتشعبت بحيث اثرت على احتفال مهيب كان مخططا له ان يكون الاكثر فرادة ، حيث إن الجامعة ستوصف بعده بالالفية .

يميل رئيس الجامعة إلى الإمام ، صوته خفيض لكنه واضح ، بيدى الود ، يقول إنه ليس ممكنا صياغة بيان يأتى مرضيا للجميع ، لكن الاتفاق ليس مستحيلا .

يرفع الرحالة التركى يده .

يرفع ممثل السوق الأوربية المشتركة .

يتجاهل رئيس الجامعة يد الرحالة ، يرن الجرس مشيرا إلى الثانى . يتطلع الجميع إليه . انه بدين ، عمره متقدم ، عليه هيبة ، جفونه غليظة ، مسدلة ، مما أضفى عليه رخاوة ولامبالاة .

قال إنه أصغى بعناية إلى كلمة الزميل الافريقى المحترم ، بداية . يعلن اتفاقه مع الخطوط العريضة بالفقرة المقترح ادراجها ، ولكن .. يتمهل أثناء اتجاه بصره إلى الاستاذ الافريقى .

يشير بأصابه قائلا ان ثمة ثلاثة أحوال ، فأما تقييد ، وأما تبديل ، وأما اطلاق ، فإذا قيل بالتقييد حذفت الفقرة إلى حين ، بمعنى انه يمكن اضافتها إلى النص خلال المائة عام القديمة ، أما في المتن وأما في الحواشي ، وإذا جرى تبديل يبقى المعنى مع تغيير الصياغة ، أما إذا وقع الاتفاق على الاطلاق .. فلتبق الفقرة .

صمت لحظات ثم استمر .

إن ما يحيره حقا ذلك السطر الذي أشار إليه الزميل الفاضل ، إذ يثير علامات استفهام عديدة بما حواه من اشارة إلى الخارج والداخل ، لماذا الاصرار على بقاء الصياغة كما وردت ؟

يتطلع إلى المنصة ، نبرات صوته لا توحى بالتوقف ، لم تتغير ولم تهن ، فجأة نطق بعد لحظات سكوت .

« شكرا .. سيدى الرئيس .. »

يرفع الرحالة التركي يده ، يبدو غاضبا إزاء تجاهله .

تلح عليه في هذه اللحظات ملامح المغربى ، خاصة نظراته الجانبية والمعاني الغامضة في عينيه صمته المثقل بالاحتمالات .

ينتبه الآن إلى تطلع الافريقى صوبه في مواجهته تماما ، لم يتبادلا حوارا طويلا ، التحية وجمل عابرة ، عادية .

ترتفع أربع أياد في القاعة ، يقول رئيس الجامعة مبتسما انه لا يدرى من طلب الكلمة أولا ؟

يشير الرحالة إلى صدره بيسراه بينما يمناه مرفوعة ، الأشقر يبرم طرف شاربه ، يومئ صوب التركى ،

اصوات تؤكد أنه ممثل أكاديمية العلوم الهندية .

تعلو نداءات خافتة من نهاية القاعة ، غير أن ممثل هيئة الفيزياء
السوفييتية تلقى الاذن بالكلام .
« شكرا .. سيدى الرئيس » .

لم يدر أحد السبب ، هل لقربه من المنصة ؟ . أكد آخرون ان للمتغيرات
الجارية في المعسكر الاشتراكى دخلا كبيرا . قال البعض إنما اراد الرئيس
احتواء أمر لامثيل له من قبل . في البداية أبدى مرحا لكن ردود الفعل هددت
باهدار تقاليد حفوظ عليها عصورا متتابة ، أخذ عليه كثيرون تبسطه .
فيما بعد سخرت صحف البلدية من الادعاء بالحفاظ على التقاليد . انتقادات
عديدة وملاحظات معادية أبديت . ما جرى في القاعة صار موضوعا للجدل ،
تخطى حدود الجامعة والمدينة والبلاد كلها ، كل حاضر أثار الأمر بعد أوبته ،
اما كتابة واما شفاهة ، كما أدلى الرحالة التركى بتصريحات معادية في كل
مرحلة انتهت إليها ، رغم السماح له بالحديث قرب نهاية الجلسة بشرط الا
يتجاوز دقيقة ونصف . هاجم رئاسة الجامعة وموقفها اللامبالى من حماية
البيئة وتجاهلها لافتتاح معرض ، واصدار طابع بريد محلى . والاعلان عن
مسابقة لتصميم حول ضرورة التكايف لانقاذ الكراكى .

كل رأى قيل برز له مؤيدون ومعارضون . ليس المشاركون فحسب ،
إنما من القوى المختلفة في المدينة ، وفي العاصمة الاتحادية ، وفي البلدان التى
ينتمى إليها المدعون ، بل تردد الأمر في أقطار نائية لم يمثلها أحد .

في معظم العواصم الغربية أكد المعلقون والمراقبون للتيارات الخفية أن
اصرار ممثلى الجنوب على ايراد الفقرة بنصها إنما يعكس جوهر الأزمة بين
الشعوب المقهورة والدول الغنية المسيطرة .

أشار الناطق بلسان البيت الأبيض إلى دور مؤكد للمنظمات الارهابية

خاصة العاملة في منطقة الشرق الأوسط ، وانتهز الفرصة ليهاجم منظمة التحرير الفلسطينية مؤكدا ان ما قدمته حتى الآن من تنازلات لا يعكس الموقف المطلوب منها .

فسر البعض مقاومة الدول الغربية للسطر القائل بعلاقات بين الخارج والداخل ، على أساس الرغبة القوية في اعلان موقف موحد ضد الحركات الاصولية في الشرق ، واشارت وسائل الاعلام الغربية إلى اتفاق الاتحاد السوفييتي مع الغرب بوضوح وصراحة وبدون مواربة .

قليل في المدينة ، وفي منتديات العاصمة الاتحادية ، وأندية البلياردو الشهيرة فيها ، ان الصراع القديم ، الكامن أيضا . فكلمة الداخل تعنى البلدية، أما الخارج فتشير إلى الجامعة ، هذا معنى متفق عليه ، مستقر منذ القرن الثامن عشر ، وازداد رسوخا بعد تأسيس الدولة ، وأصبح مفروغا منه بعد الحرب العالمية الأولى . صحيح ان البلدية مرتبطة باتفاقيات تأخ مع مدن شتى ، وعمدتها دائم السفر لتلبية الدعوات ، ولكن ينظر إليها دائما باعتبارها من الشئون الداخلية . أما الجامعة فشهرتها عالمية ، وطلابها من جنسيات شتى ، وعند ورود ذكرها في أى مكان بالعالم ، إنما يعنى كيانا قائما بذاته ، حتى قيل ايهما ينسب إلى الآخر ، الجامعة الاعرق ؟ أو الدولة القوية الأحدث ؟

هذه نقطة تمثل حد الخطر ، مناقشتها أو اثارته علانية يتضمن محاذير شتى ، صحيح أن البلاد فيها أكثر من عشرين جامعة ، وفي العاصمة كلية شهيرة لدراسة المناظير الضوئية ، يقصدها علماء أمريكا وأستراليا ودول الحزام الأمنى ، برغم ذلك فان سمعة الجامعة تطفئ على هذا كله وتتجاوزه ، وعندما يدعى أحد اساتذتها إلى دولة ما يجرى الاعلان عن وصوله قبل مدة

كافية ، وتنشر اعلانات عديدة عن المحاضرة التى ستلقى ومكانها ، ويجرى التنافس للحصول على دعوة ، وتتولى السفارات المجهود الأتم . باعتبار وصول الاساتذة فرصة دعاية نادرة للدولة الاتحادية خاصة منتجاتها الزراعية والصناعية . أما زيارات اساتذة الطب العاملون بالمستشفى الجامعى التاريخى ، فيجربى الاعداد لها وتجهيز الحالات المرضية قبل موعدها بخمسة أعوام .

برغم ارهاقه ، وحاجته إلى اغفاء ما بعد الظهر . إلا أن حيوية أينعت ، ورغبة فى الاصغاء استعرت ، وإن تجاهل نظرات الاستاذ الأفريقى الحاتة له على المشاركة ، فى لحظة معينة خطر له أن يرفع يده طلبا للحديث ، لكن رئيس الجامعة أعلن فى تلك اللحظة انه سوف يتحدث بصفته أستاذًا للمنطق ، وليس رئيسا لهذه المؤسسة العلمية العريقة .

بالفعل .. قام ، ابتعد عن مقعده ثلاث خطوات ، أولى ظهره للمنصة ، استقبلها مرة أخرى بعد حسر غطاء رأسه ، يوجه كلماته إلى القاعة بصوت هادئ . يقول إنه يتحدث أيضا باعتباره مواطنا يعيش فى هذه المدينة الجميلة ، العريقة ، أن ما يرجوه التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق ، واستحالة التعبير عن وجهات النظر كلها أمر لا خلاف عليه ، فإذا قال نفر بابقاء السطر ، وقال آخرون بتحويره ، فيجب الا يؤدي ذلك إلى وقوع العناد ، وإذا كان الجميع قد تصافحوا فى بداية الحفل ، فما يرجوه أن يودع كل منهم الآخر بدون ضغينة .

يقف .. ما رغب قوله كأستاذ للمنطق .. انتهى . يعود الآن إلى صفته الرئاسية ، يتجه إلى الموضع الذى استدار عنده ، يرتدى غطاء الرأس . يرجع إلى مقعده .

مرتان أخريان تخلص عن صفته الرئاسية ، عندما أعلن انه سيتحدث كاستاذ لغويات ، وأفاض في شرح الفرق بين معنى الداخل والخارج ، لكنه لم يبد رأيه صراحة حفاظا على تقاليد موقعه ، حتى أثناء حديثه كاستاذ للمنطق في المرة الأولى ، وللغويات في الثانية ، وبصفته زميلا في الأكاديمية الطبية السويدية ، لم يعرف أحد سبب اختياره هذا ، مع انه عضو عامل بعدد من الأكاديميات البارزة ، ومراكز البحث الطبى المتقدمة . علل البعض ذلك بحياد السويد كدولة . ولح آخرون إلى جهوده غير المعلنة للحصول على جائزة نوبل ، خاصة عندما قال انه سيعلم نبا لا علاقة له بالنقاش الجارى ، لكنه يمس كل إنسان ، إذا تمت المرحلة الأولى من مشروع علمى ضخم انجز في تكتم ، محوره امكان تحديد الأجل الذى يمكن للفرد من النوع الإنسانى أن يعيشه في هذه الحياة الدنيا .

تطلع الجميع بدهشة ، وسمع الجالسون الرحالة التركى يردد بصوت خافت ان هذا كفر وعيب ، بينما نظر إليه الاشقر مومئا معلنا موافقته لما تتمم به خفيه .

قال رئيس الجامعة ان الأبحاث يمكن ان تبدأ عند اليوم السابع من مولد الطفل ، وبعد فحوص معينة ، وأجراء تجارب خاصة ، يمكن متابعة وتطورات الجهاز العصبى ، ليست الناتجة عن تفاعلات داخلية فحسب ، انما تلك الناتجة عن هجوم ميكروبى خارجى نتيجة وهن ، تحديد الأمراض المتوقع اصابتها بها ، وتغيرات الدم والأنسجة والغدد جهاز المناعة ، سيتم تقسيم العمر إلى مراحل ، وتحديد المرض الذى يبدأ عند كل منها . وصولا إلى اللحظة التى يكتمل فيها مشروع الوجود الإنسانى !. حيث تكف الصور عن التدفق عبر المخيلة البشرية ، وتنتهى الصور ، وتنطفئ اللمعات المتوارثة ، والمكتسبة ، وتفسد المخيلة إلى أبد أبدي .

قال إنه لا يؤخذ في الاعتبار طبعاً الحوادث القدرية مثل الحوادث والكوارث وبغيات الوقت الخارجة عن طوع الإرادة الإنسانية .

ثم قال إنه سيتم توزيع ملفات على السادة المشاركين يتضمن كل منها تحليلات طبية أجريت بواسطة المستشفى الجامعى ، متبعة وسائل جديدة تماماً لاتعتمد على أخذ عينات ، أو اجراء قياسات ، إنما تستند إلى المراقبة ، والآثار المتبقية ، هذا ما جرى طوال الأيام الماضية بدون أن يشعر أحد .. أنها مفاجأة ، لكنه يرجو أن تكون سارة .

بعد انتهائه مباشرة ، دخل القاعة ثلاثة يحملون ملفات أنيقة ، يحمل كل منها اسم عضو مشارك ، عدا اثنين ، الأشقر والرحالة ، أبدى التركى غضبه وقال إن الموقف ضد الكراكى صار سافراً ، ولكن أحد رجال الإدارة قال إن التجارب أجريت على الذين التزموا ببرنامج الاحتفال ، خاصة أماكن الإقامة ، مؤكداً ان الرحالة نزل ضيفاً في استراحة البلدية ، وأنه لم يكن يأتى إلى الفندق الا لتناول الوجبات الثلاث . حيث حصل على دفتر الاذونات الموزع على الجميع ، ويسمح له بدخول المطعم في أوقات الطعام المقررة ، مع ان استراحة البلدية تتضمن مطبخاً يقدم الوجبات الجاهزة !

ينقل البصر بين الرحالة الذى استغفرت ملامحه في اتجاه الغضب ، وبين الملف الموضوع أمامه منذ ثوان .

اسمه مكتوب بحروف آلة حديثه جداً ، البعض شرع في تقليب الأوراق ، يبدوون الدهشة ، لم يقدم على فتح حلقه ، أرجأ ذلك ، لكم تخيل قدرة الإنسان على ابصار ما لا يعلمه ، وسبر كنه المجهول ، وان لم يدر ، كيف ستمضى الحياة في تلك الظروف ، عندما يعلم الإنسان انه مفارق إلى الأبد ، عند حد معين . فرق شاسع بين رحيله بعد خمس ثوان مع جهله بذلك ، وبين

عيشه مائة عام أخرى مع علمه انه راحل في لحظة محددة ، إذا اطلع على لحظة اكتمال الدائرة وقعت الاحاطة ، إذا تماسمت البداية بالنهاية كان العدم ، لاراد عندئذ ولا ناجح ، المعرفة الأتم باعته على القلق ، واحيانا .. الحيرة ، قيل قديما ، لو اطلعتم على الغيب لأخترتم الواقع .

يطيل التحديق إلى المنصة . رئيس الجامعة يبتسم مرهقا ، كأنه أراد بتوزيع الملفات والاعلان عن هذا المشروع العلمى الغريب أن يفصل بين المتناقشين إلى حين ، أو يطوى الخلاف كله .

يستدعى إلى ذهنه ، أو تتوارد عليه لحظات تجواله في ممرات الحصن المشيد ، صحبة الباسقة ، تقدمها بخطو واثق ، ما البنيان كله إلا محاولة تقترب في جوهرها من هذا المشروع ، درء خطر الموت ، اكتشاف أبعاده ، وان اختلفت الوسيلة وتباينت المقاييس .

في لحظة معينة أقدم على المشاركة ، طوال الساعات المنقضية تتبع النقاش لاغير ، مضمرا رأيه في هذه الحجة أو تلك ، بعد اتضاح طرفي الخلاف ، مرات عديدة تطلع إليه الأستاذ الأفريقى ، حاثا أياه على المشاركة ، باعتبارهما يمتان إلى قارة واحدة .. ربما ! ، أحد الأسباب المؤكدة كراهية مفاجئة تجاه الأشقر ، لم يكف عن برم شاربه خفيف الشعيرات .

طرح لامبالاته جانبا ، وسخريته من احتدام الجدل حول معنى السطر الذى تركز الخلاف حوله ، بل أوشك على كتابة ورقة يطلب من الأفريقى الملاينة ، فالتاريخ لن يتوقف ، والواقع لن يتبدل ، نتيجة ترتيب كلمة الخارج والداخل ، عليه الانتباه إلى تبدل المعنى عند ترجمة الجملة إلى لغات أخرى ، سيصبح الخارج داخلا ، والداخل خارجا .

هكذا .. في لحظة معينة ، رفع يده ، وبعد سماعه الجرس ، نطق : « شكرا..

سيدى الرئيس » ..

يحرص على ضبط نبرات صوته ، خروجها متسقة ، هادئة ، متناغمة ، مع تصعيد بطيء .

يقول إنه سيوضح هدفه مباشرة ، اذ يرى ضرورة الإبقاء على الفقرة كاملة بالصيغة التي طرحت بها صباح اليوم قبل بدء الاجتماع الختامي ، واستبعاد أى احتمال للمساومة ، وبالتالي إبقاء عبارة — الخارج والداخل — كما هى .

يتوقف لحظات .

الأشقر يعثب بشاربه فى عصبية وحدة ، هنا يقرر تصعيد حدة لهجته حتى يزيد توتره . يشير بأصبعه ، يمعن فى إيراد التفاصيل ، الأثار المترتبة على الموقف المضاد ، تأثير ذلك على العلاقات الودية ، تأويل المواقف بين الظاهر والباطن . بين مفارقات الوقت ، ومتضادات الفهم ، ينحى باللائمة على ممثل الأكاديمية السوفييتية ، يقول ما تخرج الأفريقى من نطقه . يلمح إلى زمن قريب كانت فيه المنظومة الاشتراكية تناصر أحلام الشعوب المستضعفة وتؤازرها .. هنا يرفع العضو السوفييتى يده محتجا . لكن رئيس الجامعة يسمح باستمرار الحديث ، فيمعن فى شرح مضار حذف الفقرة ؛ أو تغيير الجملة ، ومحاسن الجمع بينها وبين البيان .

«شكرا .. سيدى الرئيس » ..

بعد توقفه ، ساد سكون ، يحاول السفير السابق أن يتوارى بحضورة ، الإبقاء على ملامحه محايدة ، أما الرحالة التركى فيتبادل نظرات حادة ، سريعة مع الأشقر .

كما أدرك فيما بعد ، كان الموقف كله معلقا بنطقه فطبعا للتقاليد لا بد أن يتكلم الجميع ، إذا لزم شخص واحد الصمت يستمر النقاش حتى شروعه .

يومئ الأستاذ الأفريقى راضيا ، مبتسما ، ممتنا ، استاذة مغربية تفارق مقعدها ، أنها دقيقة الحجم ، منمنمة الملامح ، تقترب منه ، تميل عليه ، تحببه بحرارة ، تهمس قائلة أنها تعجبت من صمته مع ألامها بمواقفه القديمة ، لكن بعد نطقه تدرك الآن أن كموته تضمن قدرا من الحذق والصيانة ، أما هدوءه البادى فيخفى تأججا ، حقا .. أنها تحببه .
تميل ، تقبله مرتين .

يدركه خجل ، يود أن يسألها عما إذا كانت تعرف المغربى المقيم ، لكنه أحجم ، فى عينيها شروع فى قربى ومودة ، الا أن دافعا عنده لم يتحرك ، وحافزا لديه لم ينبض ، ربما لانشغاله باختفاء الباسقة ، أو . لفتوره وبدء انزوائه ، تراجعها إلى منطقة اللامبالاة التى بدأت عنده منذ سنوات قريبة ، اثر توالى الخيبات العظمى ، وتكاثف الركود ، وتحلل العناصر ، حتى انه يسر كثيرا ويسرى عنده ابتهاج دفين ، لأنه لم يقض فى الحرب زمن اشتراكه واقدامه غير هياب ، غير مبال بالخطر ، بمواجهة الموت من أجل معنى أو قضية . غير ان الأحوال مضت بعكس ماقدر لها ، أصعب ما عرفه ، ما عاناه ، وأضنى مرقدته ، وقوع النفار بينه كفرد ، وبين اتجاه خاطئ لمجريات كبرى ، مع إدراكه الأتم لمكامن الخطر ، وقلّة حيلته ، ومحدودية تأثيره . هذا وعمر صعب ، يدركه الكمد إذا شرع التفكير فيه ، كل استعادة لموقف قديم دنا فيه من الخطر بمثابة مردعة له عن تكرار ذلك . يدرك الآن ان حديثه بعد صمت كان محاولة للثار من شجون طال تراكمها .

يسعى إليه الأستاذ الأفريقى ، ممثلو الدول الجنوبية ، وحوض الكاريبى ، أقطار الانديز ، جنوب شرق آسيا ، يسعى إلى الانفراد فى غرفته ، منبثا عنهم ، مع أنهم تطلعوا إليه حائرين ، متعجبين من صمته المكين الذى تفجر عن حسم لم يتوقعه أحد ، ولم يدر بذهن ..

اللمظة وتدايماتها ..

.. عند استعادتها مرغما ، لا يمكنه تحديد ما قبلها أو بعدها حتى لتبدو منفصلة عن كل سياق . منفصلة ، منقطعة ، منتظمة ، تلك لحظات تمثل علامات فارقة ، لا تنسى ولا تمحى ، تؤطر ما قبلها وتحدد ما بعدها ، تشطر الوقت والخطة وتقلب المشروع .

بعد يقينه من حلولها . من اكتمالها ، بدأ هبوط عنده حتى ألقى . بدت ملامحه موسومة بالواقعة ، ثمة غامض ، خفى ، لا يبين ، يغادره إلى الأبد ، وطارئ مجهول لم يعهده يحل به ، اذن .. وقع ما خشيه دائما ، ما احتاط منه ، ما أقصاه بالخيالة حتى عن هواجسه ، لكنه يعود ليبحث من جديد ، ربما فات بصره ، يحدث أحيانا أن تغيب عن دائرته أشياء محط عناية قصوى ، مع أنها قائمة ، ماثلة ، لكن فرط الاهتمام يحجبها وهي في المتناول .

يرتب محتويات الحقيبة ، يتطلع هنا .. هناك ، ينفذ الاغطية ، يدور مطلا على الزوايا والأركان ، يقف متوسطا الحجرة مثقلا بالسقف والجدران المتقاربة ، وسكون الجماد ، وانتفاء الصديق .

يبذل محاولة للثبات ، لاستيعاب ما جرى ، لاستعادة التفاصيل ، لبدء تصرف أمثل يمكنه من تجاوز المحنة .

عبثا يحاول استعادة آخر لحظة وقعت عيناه عليه ، بالتأكيد كان في حقيقته عندما اطلعت عليه الباسقة في المطعم العتيق ، بعد أن تأملته ، ودهشت لكثرة التأشيرات إعادته إليه مرة أخرى ، نعم .. هذا مؤكد .
ما تلا ذلك ؟

لا يعرف ، لا يدري ، يصعب عليه استعادة ما كان ، مع أن الوقت دان ، واللحظات لم تتأ بعد ، يمنعه من استعادتها ، من تدقيق تفاصيلها ، شيء لم يقدر على تحديده بالضبط ، كأنه يلغى كل القسمات ، يجتهد ، يسعى ..
لسبب ما تلح عليه قسمات أبيه الراحل منذ عشرين عاما ، إذ يتذكره يرى ملامحه الباقية في الصور المعلقة في البيت ، أو التي يحتفظ بها بين أوراقه ، صور ملتقطة خلال الأعوام الأخيرة من حياته ، لا يستعيد حضوره الذي كان ، لمحات ، شذرات هنا ، هناك ، لكن تعجز ذاكرته عن اقتناص موقف يطول أكثر من دقيقة واحدة عبر حياة امتدت أكثر من سبعين عاما ، عايشة وأحتمى به وسعى إليه أكثر من ثلاثين ، وعندما قضى فجأة فراه الأسى ، لكنه الآن عاجز عن التشبث بملح ولو عابرا .

هل وهنت الصلة ؟

هل تقطعت الأسباب ؟

أو يمعن في الايغال نأيا عن الأصول ؟

لماذا يلمح عليه أبوه المندثر الآن ؟ ، ألفقدانه الهوية ؟

بالقطع ، لم تفارقه الحقيبة في القاعة . أحد المشاركين هندي ، تطلع إليه كأنه يتساءل عن جدوى حمل الحقيبة خلال لحظة يفارق فيها المكان ، إلا يعني اعلانا منه بعدم الثقة في الآخرين ؟ لكنه فكر وقتئذ ، عليه ألا يعبا .. أن يلزم أوراقه . هل كان الجواز داخل الحقيبة عندئذ ؟

لا يمكنه القطع ، صعب الجزم ، هنا يبدأ الشك ، يجتهد في وقف اضطرابه ، تخلخله ، تهيم عليه صور نائية لا تمت إلى ما يجتازه بصلة .
رجل يجلس القرفصاء فوق جسر قريب من قريته ، ناصية حارة قديمة ، مصباح قديم يرسل ضوءا واهنا متعبا ، نزول مطر ، رائحة تدفق مياه في جدول إلى أرض زراعية ، خطى أقدام في شارع مزدحم ليلة عيد ، فتاة تتطلع إليه ، انفها روماني ، سلامحها غلامية ، لكن قدها شرقي الأنوثة في تكوينه وتأوده ، شخص ما يقول ان كل إنسان ينتج زمنه الخاص ، عليه أن يوجه وقته ، يقف في مكان ما ، ميدان قديم ، لم يستطع تحديده ، ينتظر العبور إلى الناحية الأخرى .

إلى أين ؟

لا يدرى !

كل ما يتعاقب على ذهنه يرتبط بأبيه ، حضوره ، سعيه ، يحاول اقضاء الواردات الغريبة ، لا يدرى مصادرها أو بواعثها ، يبدو أن ذلك كان ضروريا ليفصل بين لحظة اكتشاف ضياع هويته ، وبين محاولته ترتيب ردود أفعاله ، ومواجهة الآنئ والآتى ، بل يتجاوز حالة حيادية كان ما جرى وقع لغيره ، لا يخصه .

يفارق غرفته بعد تيقنه الفقد ، يجتاز الممر صوب المصعد ، منتبها إلى الرائحة الفندقية المتكررة في أسفاره ، رائحة مفروشات ، وأثاث واصداء ، وطعام ، وأسرار شتى .

يتجه إلى موظف الاستقبال ، باختصار شديد يقول انه فقد جواز سفره ، وبطاقة الطائرة .. ما يريد ، اتخاذ الاجراءات القانونية . موظف لم يره من قبل ، شاب ، هادئ ، مهذب ، دبلوماسى الملامح ، يتساءل بثبات عما إذا كان يتهم شخصا من العاملين بالفندق ؟.

يقول انه لا يعرف بالضبط ، لكن هناك اجراءات معينة يجب اتخاذها ،
ثم ان الوقت المتاح له مجرد ساعات .

يتطلع إليه متسائلا عن اسمه ؟

ينطق مجيبا بالنص الثلاثي الكامل .

ينظر إليه متمعنا ، كأنه يستوثق أمرا ما ، يضغط أزرار الحاسب الآلي ،
حركاته بطيئة ، وجهه كأنه قد من شمع ، يفكر .. هذا الشخص الذى لا
يعرفه ، سيمضى بعد انتهاء عمله إلى بيته ، إلى صاحبتة ، إلى امرأته ، إلى
ركنه المفضل ، إلى مدينته ، مكانه ، حيزه ، سترته ، غطاؤه ، أما الاغتراب
فعورة ، تجريد من كل واق ، يرفع عينيه تجاهه ، يتساءل :

- أنت ضيف الجامعة ؟

يومي ، يتابع ..

- ضيافتك تنتهى غدا ، يجب تسليم الغرفة قبل

الثانية عشرة ..

كأنه لم يصغ ، لم يدرك ، لم يفهم ، كل ما يعنيه حد الاقامة ، يعيد ما
قاله ، يؤكد على ضرورة بدء الاجراءات المتبعة حتى يمكنه الاتصال بسفارة
بلاده فى العاصمة الاتحادية .

يجيبه باقتضاب ، ان الخطوة الاولى ، ابلاغ الشرطة ، الرقم .. فى الدليل .
يصغى إلى صوت غليظ ، بمجرد اصفاائه إليه قال : « أهلا » كأنه يتوقعه
أو ينتظره ، يقول ان مثل هذه الحالات مسئولية القسم الخاص ، مواعيده
صباحية فقط .

يقول إنه مسافر غدا .

تكة صغيرة تعنى اغلاق الخط .

في قاعة الطعام يلمح استاذا جامعيًا ، نشطا ، قيل عنه انه من الشخصيات الهامة التى تلعب دورا وسطا بين البلدية والجامعة بهدف تهدئة الأمور واحتواء الأزمات ، تردد أنه مهدد بالاغتيال من احدى الجماعات الارهابية المتطرفة العاملة بالمدينة ، بسبب آراء يرددها اثناء القائه محاضراته ، لم يفصل احد طبيعة هذه الآراء .

يصغى صامتا ، يجيب بكلمة واحدة .

« مشكلة » ..

ينصح بالذهاب إلى القسم الخاص صباح اليوم التالى ، انه الاجراء الوحيد الذى يعلمه ، تلك حادثة غير مسبوقة ، لكنها ..

« مشكلة » ..

يعود إلى غرفته ، يتصل بعاملة البدالة ، يملئ عليها الرقم ، يقول ان صديقا مغربيا كتبه ، وانه يقيم في المدينة ، تؤكد العاملة ان هذا الرقم لا يوجد في سائر الولايات ، العاصمة الاتحادية خلو منه تماما ، لابد انه في بلد آخر.

إذن .. في الأمر شيء ، لكنه يعنى تماما اللحظات التى أملى المغربى فيها ارقام الهاتف ، لم يخطئ كتابتها ، يحاول اقضاء ملامحه الملحة عليه ، غموض ابتسامته ، يفتش ملابسه من جديد ، محتويات الحقيبة ، متمنيا ، راجيا ، بزوغ اللون الأخضر للغلاف وحافة البطاقة مطلة منه ، يدركه نصب ، يجلس إلى حافة الفراش مكتمل الوعي بالفقد ، بالانقطاع ، بوقوع العثرة .. يردد بصوت مرتفع .

« اين سأكون غدا ، مثل هذه اللحظة تماما ؟؟ .. »

مفتتح إجرائى ..

.. أدلج فى النعاس ببسر ، بسرعة رحل من اليقظة إلى النوم ، عكس لياليه المماثلة السابقة على سفره ، يذكر أرقه ، انتفاء هجوعه ، جلوسه فى الفراش ياسا وانتظارا لانبلاج الصبح .

الليلة .. اختلف الأمر . نوم كمد أوغل فيه كالهرب .

لم يتناول افطاره ، مباشرة .. إلى القسم الخاص ، الإدارة من الشرطة التى يقع مقرها فى مبنى البلدية ، المدخل من الباب الجانبى ناحية الغرب ، أطلت نذر وضعه الجديد ، عندما طالبه موظف الاستعلامات بما يثبت هويته .

يقول انه جاء ليبلغ عن فقد جوازه ، الأمر عاجل ، ساعات قليلة جدا تفصله عن موعد سفره .

يردد الموظف كلمة واحدة ، بلهجة مقاربة للاستاذ الجامعى عندما لفظ كلمة واحدة .

« مشكلة .. » .

استفسر عما إذا كان لديه أى اثبات للهوية ، أى بطاقة محلية حتى ؟ . عضوية نقابية ، رخصة مرور ، اشتراك نادى .. أى ورقة عليها اسمه وصورته .

عند سفره يكتفى بجواز سفره ، لا يحتاج شيئا من هذا ، يطلب منه الانتظار ، يرفع سماعة الهاتف ، يدير رقمين فقط ، من الصعب الاصغاء ، ليس لنطقه اللهجة المحلية الصعبة ، إنما لقدرته على الهمس .. يعجب .. كيف

يمكن سماع صوته عند الطرف الآخر ؟ ، هذا مخالف لخصاله ، يتحدث دائما بصوت مرتفع حتى ليسمعه من يقف على مسافة ، ينتهى الموظف ، لا ينظر إليه ، يراجع أوراقا ما ، ثمّة رائحة مجهولة المصدر ، مرتبطة بالمكان ، تشبه فراغ المستشفيات ، مطهرات ، محاليل ، طلاء الجدران الأبيض ، لكنه هنا رمادى ، قاتم ، يقف فى مواجهة عجوز ، لابد انه أحيل إلى التقاعد منذ زمن ، من اين جاء ؟ ، كيف ظهر فجأة ، ملامحه موصدة ، يشير إليه موظف الاستعلامات أن يتبعه .

عجوز صامت ، بين الحين والآخر يتطلع ، يومئ ، الأبواب على الجانبين مغلقة .

يوما أرسلوا فى استدعائه ، حددوا الوقت والمكان ، مبنى إدارة المباحث العامة ، قرب ميدان لاطوغلى ، عمارة قديمة ، مستطيلة النوافذ ، كابية الظلال ، كل العاملين يرتدون الملابس المدنية ، غير أن شيئا ما لايبين يوحى بهيئتهم الوظيفية ، فجأة .. عند منحنى أحد الممرات ظهر اثنان منهما ، يمسكان شخصا معصوب العينين ، موثق اليدين من خلف ، يتعمدان دفعه فى اتجاه الجدران ، بعد اصطدامه ، أثر تحقق البغطة يعيدان وجهته صوب الفراغ ، يأمرانه بجفوة أن يمشى ، ألايتوقف ، يمضى رافعا رأسه شأن من لا قدرة لهم على الابصار ، حقا .. لماذا يرفع المكفوفون رؤوسهم دائما ؟

لايدرى .. لكنه جفل يومها ، رؤية القهر أصعب من وقوعه ، سماع الانين أوعر من صدوره .

كل خطوة يتوقع فتح أحد الأبواب ، أن يصدر صراخ ما ، أن يبدو شخص موثق ، لكن .. لم يحدث شىء ، وأن جثم حضور المبنى عليه . فى المواجهة ساعة قديمة ذات بندول ، لم يتبق على موعد القطار سوى ثلاث ساعات

وعشر دقائق ، بدأ سفر المشاركين منذ السادسة صباحا ، حتى الثانية عشرة
لن يتبقى واحد منهم ، يعى وضعه لحظة اثر الأخرى ، أمام غرفة مغلقة ،
يفتح الباب .

ضابط شرطة أو موظف مدنى ؟

لا يدرى ، لم يستفسر ، لا محل لذلك ، بعد اصغائه إلى ما قال ، امسك
قلمًا من رصاص ، دون ملاحظات ما ، سأل عن الاسم الرباعى وليس
الثلاثى ، عن جهة الميلاد ، محل الإقامة الدائم ، الجهة التى يعمل بها ، تاريخ
دخوله البلاد ، اسم شركة الطيران الناقلة ، البلاد التى زارها خلال السنة
الأخيرة فقط ، حالته الاجتماعية ، رقم الجواز .. جهة اصداره ، وتاريخه .

يحفظ البيانات كلها عدا تاريخ الاصدار هذا ، لم يكن واثقا ، السادس
والعشرين أو السابع والعشرين ؟ . أبدى ترددا ، فطلب منه أن يستوثق ، أى
خطأ صار جدا .

لم يفصح عن ضيقة وتحفظه من طريقة توجيه الأسئلة ، كأنه موضع
اتهام ما ، أثر ألا يجزم .
- إذن .. لا تعرف ..
- نعم ..

يستفسر عن وسيلة وصوله إلى المدينة ، ما موعد القطار ، القيام ،
الوصول ، أى درجة استقل ؟ هل تحدث إلى شخص ما أثناء الرحلة ؟ كيف
انتقل من المحطة إلى الفندق ، هل يذكر رقم عربة الأجرة ؟
- لكن الجواز كان معى بعد وصولى ..

بجفاء يقول إنه يطلب الاجابة بدون تعليق ، السؤال الذى قد يبدو له بلا
معنى ، ربما يكون هاما جدا بالنسبة للإجراءات ، ان كل النقاط لم تحدد

عبثاً ، بعد لحظات قال إنه غير ملزم بتقديم مثل هذا الايضاح لكنه يقدر ظرفه .

— إذن .. لم تأت هنا من قبل ؟

قال انه لم يزر المدينة إلا هذه المرة ، لكنه عبر مطار العاصمة منذ سبع سنوات ، لم يخرج من المطار .

سأل عن علاقته بالجامعة ، كيف بدأت ؟ متى ؟

يصفى باهتمام إلى اسم زميله الذى لم يحضر بسبب مرضه المفاجئ ، يستفسر عنه ، هل يتشابه تخصصهما ؟ لماذا تم اختياره هو بالذات ؟ هل وصلته دعوة بديلة ؟ كيف ؟ بالبريد العادى أو المسجل ؟ أو البرق ؟ ، هل تربطه علاقات شخصية بأحد الاساتذة ، خلال اقامته فى المدينة .. بمن التقى ؟

يتطلع إلى رقم الهاتف الذى أملاه عليه المغربى ، يقول باختصار ان مثل هذا لا يوجد ، يطلب ذكر أوصاف المغربى ، خاصة طوله ، يسأله عما إذا كان مارس الحب مع الباسقة عند زيارتها فى البيت ؟
يطلب منه التأنى والتدقيق .

يكف ، يتوقف عن الإجابة ، يردد ضرورة سفره اليوم ، المشكلة ليست بطاقة الطائرة ، معه ما يكفى للسداد مقابل أخرى جديدة ، لكن الجواز لب المشكلة ، لابد من اجراء بلاغ رسمى ، والحصول على صورة معتمدة لتقديمها إلى السفارة فى العاصمة الاتحادية ، بعد الاعلان عن الفقد فى احدى الصحف المحلية ، ثم يمر أسبوعان ، فاذا لم يظهر مردود ، يحق له استخراج وثيقة سفر مؤقتة ، قال إنه يعرف الترتيبات لخبرته السابقة فى السفر ، لو امكنه الحصول على صورة المحضر الرسمى اليوم يمكنه اختصار الوقت ،

سيتموجه مباشرة إلى السفارة ، لعلهم يبدون مساعدة خاصة بعد اطلاعهم على مركزه العلمى .

يرفع الموظف أو الضابط - لا يدري - عينيه ، فيهما سخرية ؟

- كيف سيعرفون موقعك وانت بدون أوراق ؟

يقول انه ربما التقى بمن يعرفه ، ان الصحف تنشر عنه احيانا .

يهز رأسه ، يقول ان الأمر ليس بهذه البساطة ، ثمة اجراءات عديدة حتى

إذا ظهر الجواز الآن فوق هذه المنضدة .

يفتح الباب ، يلتفت ، يراه مغلقا ، سمع فتحه .. هذا مؤكد ، باب أم لا؟،

لكنه احجم ، خاصة عندما قال بتأن رسمى .

- نحتاج وقتا ، السفر ومغادرة المدينة اليوم إلى أى جهة أمر مستحيل ..

ما طبيعة الاجراءات التى يجب اتباعها فى حالة العثور على الجواز ؟

يجيب بلهجة رسمية ، محايدة ، انها مسئولية القسم ، المهم أن يتجه مباشرة

إلى إدارة الجامعة ، أن يستخرج منها خطابا رسميا يثبت انه كان مدعواً إلى

المهرجان أو الحفل كما يطلقون عليه .

هذا الخطاب سرف يثبت للشرطة أهم نقطة الآن ، شخصه الذى

لايعرفون عنه شيئا ..

عود فير مرغوب

إلى من ؟

إلى من يتجه بالضبط ؟

يمشى مسرعا ، مقر الجامعة غير بعيد ، إلى درجة ما .. يعرف الآن المعالم الرئيسية ، ما يرجوه ألا تتبدل ، الا تختفى ، الا تتغير مواقعها ، يعجب للخطر ، لكنه يوقن الآن ما من شىء ثابت هنا ، مامن أمر مؤكد .

يبدأ عنده حذر ، وخشية ، أن يقع له ضرر أثناء عبور الطريق ، أن يفقد وعيه فجأة ، كيف يستدلون عليه ؟

يبتعد إذا حاذى أحد المارة ، يتجنب النظر إلى العيون خوفا من تحرش مفاجئ لا يدرى مداه ، يسعى عبر هامش غير مرئى يحيط به نفسه . مصدرها ، من الفندق أو الجامعة ؟ ، لا يهم .. يكتب سطورا معدودات . اسمه ، وظيفته ، كيفية فقده الهوية ، عنوانه في القاهرة ، رجاء الاتصال بسفارة البلاد في العاصمة الاتحادية .

يضعها في جيبه ، يتذكر الأطفال الصغار ، الفقراء ، المتخلفين عقليا ، الحفاة ، فوق ثيابهم سطور بخطوط غليظة توضح الاسم والعنوان ، يهز رأسه تأسفا وحسرة ، لكنه سرعان ما يخفى انفعالاته ، ربما لمحها من لا يعرفه فيفسرها بما لا يدرية ، أبواب الاحتمالات لا حصر لها الآن ، انه واثق من سماع صوت الباب في غرفة التحقيق الكابية ، كيف جرى ذلك ؟ ، ألم

يحذره المغربى من عصابات المافيا ، تخصص بعضها فى سرقة الجوازات لاستخدامها فى أهداف شتى . لكن أين هو ؟ لماذا أعطاه رقما غير حقيقى ؟ ، هل قابله فعلا ؟

يبدو السور الخارجى فيشتد كمدده ، لم يتوقع أمس العودة مرة أخرى ، وفى مثل هذا الظرف ، حتى الأمس كان ضيفا يقابل بترحيب ، يصغى إليه إذا طلب ، يهتمون به إذا سعى ، الآن .. يخشى الفراغ المحيط به ، أنه مجرد مكشوف ، مهدد بما يجهله ، بما لا يدركه ، عرضة للفقد النهائى ، بلا وسم ، بلا رسم ، أما اسمه فلا دلالة له ،
الحادية عشر .

ساعة وتحل لحظة مغادرته الفندق . حقيبتة فى الغرفة ، مهياة مغلقة ، توحى لمن يراها بتأهبه ، مع اقترابه من مبنى الإدارة يتهيأ للحظات محورية . يبدو عصر الأمر منذ البداية .

عند البوابة الخارجية أوقفه الحرس الجامعى . ثمة خط فاصل بين الباب والطريق ، غير مسموح بتجاوزه رغم تراص البراميل الحمراء على جانبيه الشارع حتى الناصية بما يعنى تبعيته للجامعة ، لكن خروج الحرس الجامعى من البوابات فى الزى الرسمى من الأمور التى لا يمكن التهاون فيها ، كذلك دخول شرطة البلدية إلى الحرم الجامعى .

بعد جدل لم يستمر طويلا ، تساءل الحارس ، الضيوف رحلوا والمؤتمر انتهى .. لماذا بقى إذن ؟ كيف يتأكد من شخصه إذا لم يكن لديه ما يثبت شخصيته .

قبل الحارس دخوله إلى الحجرة الخشبية المجاورة للباب . يتطلع إلى الساعة ، القطار تحرك الآن ، فارق رصيف المحطة ، بطلت بطاقة العودة إذن .. البقاء محتوم ، كيف .. أين ؟

هذا ما لا يدريه حتى الآن .

يدخل رجل مهيب ، يرتدى الزى العادى للجامعيين ، فوق العباءة شريط أحمر صغير ، يعنى هذا انه من رجال الإدارة . انه مسئول عن نشاط ما ، يبدو وكأنه يرتدى قناعا ، ملامحه الحقيقية مستترة ، أما استفساراته فأشد حدة من رجل الشرطة الذى استجوبه .

مرة أخرى ، روى كل التفاصيل .

سأل الجامعى عن أول خطوة قام بها عند اكتشافه فقدان الهوية ؟ ، إلى من توجه ؟ من أبلغ ؟ ، اذن .. من دله على مقر القسم الخاص ؟ من استقبله هناك ؟ هل يمكن أن يصفه بدقة ؟ كيف عومل ؟ ما الأسئلة التى وجهت إليه ؟ .

أجاب بهدوء ، لم يبد اعتراضا ، لا باللامح ولا بالنظر ، ولا بنغمات الصوت أو درجاته حتى !

يعود إلى الاستفسار عن الشخص الذى وجه الاسئلة ، يطلب منه أن يتذكر بدقة ، هل كان يرتدى رباط عنق أم لا ؟ حاول أن يستعيد اللحظات ، بكل ذهنه ، لا يدري ، لا يمكنه الجزم .

منذ أعوام بعيدة سخر أحد طلبته من سؤال أدرج فى اختبارات القبول المبدئى حول تمثال رمسيس الثانى ، أى قدم إلى الامام ؟ اليمنى أو اليسرى ؟ رغم مروره اليومى بالميدان ، ورؤيته التمثال إلا انه عجز تماما ، قال إنه رآه بمخيلته متقدما باليمنى ، ومرة باليسرى ، أكد الطالب أن اجابته الصحيحة كانت مصادفة .

لكن .. الآن فى المجازفة مخاطرة ، انه حريص على الاجابة بدقة مهما بلغت غرابة السؤال ، يؤكد الجامعى أهمية هذه النقطة بالذات ، ليحاول ..

يهز رأسه ، قامعا رغبته في السؤال عن ضرورة مثل هذا الاستفسار
السخيف ، يصمت ، بينما يستمر الرجل متوجها إليه بسؤال مباشر .
هل تربطه أى علاقة بأحد رجال البلدية ؟
ينفى .

هل تعرف إلى أحدهم أثناء اقامته المحدودة هنا ؟
مؤكد ان ذلك لم يقع .

هنا يسدد سؤالا بلهجة محقق ، مدقق ، مستريب .
- اذن .. لماذا توجهت إلى البلدية ؟

موظف الفندق ، سأل عما يجب أن يفعله ، نصحه وذكر الاجراءات
المتبعة ، يمتط الجامعى شفثيه ، يقلب بين أصابعه قلما من طراز قديم ، يؤكد
تعقد الأمر . يرتفع صوته فجأة محتدا ..
- من استضافك هنا في هذه المدينة ؟
- الجامعة ..

يبسط يديه في اشارة مبهمه .

- اذن .. كان يجب ان تجىء إلينا أولا ..

يوشك على تبرير وشرح ، لكن الرجل يرفع يده طالبا الكف ، الموقف تعقد
الآن ، لا يوجد بين المسئولين الآن من يمكنه البت في موضوع كهذا ، أو منحه
تلك الورقة التى تطلبها شرطة البلدية .

يتمهل لحظات ، يرقق لهجته ، انه متفهم تماما للموقف الحرج ، لكن أهم
شئ الآن - بعد أن أصبح الموقف بين يدي البلدية - الأوراق . ما يثبت
شخصيته أمام الشرطة ، في المطار ، ليس هنا فقط ، إنما في بلاده أيضا .
- راجعوا البطاقة التى أعدت لى هنا وعلقتها إلى صدرى ..

يقول ان جميع البطاقات التى تم جمعها أمس عقب انتهاء الحفل الختامى وضعت فى صندوق متين ، لن يفتح قبل مائة سنة ، لإعلان اسماء من حضروا وعرضها فى لوحة خاصة ، كذلك وثائق الحفل كلها ، نقلت إلى المخزن التاريخى ، تلك ترتيبات لا يمكن ايقافها أو تعطيلها أو المساس بها ، الأمر متصل بتقاليد أقدم من أى حضور هنا ، بشريا كان ، أو عمرانيا ، أو اجتماعيا . هناك محاولات قديمة ، قوية ، من جانب بعض الجهات لخرق التقاليد الجامعية بشكل مباشر أو غير مباشر ، أو أحداث أى تراجع . البعض يتساءل ، وماذا لو تغير هذا الترتيب الضئيل ؟ ، لكن أقل تنازل سوف يؤدى إلى ما هو أفدح ، بل ربما وصل الأمر إلى نفى وجود الفلسفة الأربعين .

- أنا لست فى موقع يمكننى أن اعدك بإجراء ما ..
يتطلع إليه بثبات ، يتخلى تقريبا عن لهجته شبه الرسمية .
- أننى مدرك وضعك ، بل أننى مشفق عليك ، أننى لاحظك منذ وصولك وبداية مشاركتك ، حيرنا صمتك ، وإنهماك فى رسم اشكال غامضة ، حيرت الآخرين حتى تهامس البعض حول سلبيتك ، ثم فوجئوا بموقفك النهائى الذى حسم الموقف ، هذا كله أثار تساؤلات حولك ..
يلاحظ الآن اطياف شبه فى ملامحه بموظف - أو ضابط - القسم الخاص ، طولهما متقارب ، نحافتهما متوازية ، ايقاع الكلمات ، حدة الأنف ، طريقة الكف عن الحديث فجأة .

يستعيد ما عرفه عن خصائص جثمانية تميز رجال الجامعة عن غيرهم ، من ذلك تثاقل حركتهم بعد سنوات معدودات من التدريس ، خاصة التمهل عند النطق ، ورفع أحد الحاجبين أحيانا ، أو هز الرأس أثناء الاصفاء ، وبعد

تنصيب رئيس الجامعة وعمداء الكليات لا تظهر الابتسامة على وجوههم إلا نادرا ، أما كبار المسئولين في البلدية فان احمرارا خفيفا يكسو وجوههم ، يتزايد مع الايغال في المناصب ، وطول المكث بها ، كما تظهر على معظمهم أعراض البدانة ، من بروز بطن ، وغلظ رقبة ، وظهور ثنيات بها ، وارتفاع صوت التنفس عند الحديث ، يؤكد الجميع انها علامات فارقة ، ولكن الشبه مؤكد بين هذا الرجل وموظف البلدية .

ـ في حالة العثور على أى أوراق تخصك ، لابد من اثبات العلاقة بين الكينونة المادية ، وتلك الأوراق ..

إن ضيقا يجثم عليه ، يقول ان سوء الحظ القى به هنا ، لو أن زميله لم يمرض لما جاء أصلا ، ولكن هذا أمر يخصه هو ، ما يجب مراعاته انه جاء ضيفا على الجامعة ، اذن .. هناك مسئولية اخلاقية وقانونية عنه حتى مغادرة المدينة حتى سفره من العاصمة ، لقد تكبد مشاق الرحلة رغم تضعضع صمته و ..

يقاطعه بحدة .

ـ الجامعة مسئولة عن ؟

يقول باختصار .

ـ عني ..

تتشابك أصابع يديه

ـ أنت من ؟

يردد بتأن اسمه الثلاثى ، مسبوقا باللقب العلمى ، متبوعا بالمركز الذى يحتله .

يخبط الرجل المائدة بقبضة يده ، تدنو ملامحه تماما من موظف البلدية ،

بل ان الرائحة المنبعثة بالحجرة تعيد إليه فراغ المكان الآخر .

- اثبت لنا ذلك ..

- ماذا أثبت ؟

- انك أنت من دعونا ..

يتطلع مباغتاً ، مفاجئاً .. يؤكد الجامعى .

- نعم .. أثبت لنا أنك أنت .. أنت ..

تعضّعات يقينية

.. يخرج من البوابة ذاتها ، هل الأشجار في أماكنها ؟ ، هل ضاق الطريق الممتد ؟ ، البراميل الحمراء قائمة ، لكن المسافات الفاصلة أوسع ، ما من شيء يقينى هنا ، ربما ينظر إلى بناء شاخص أمام عينيه ، يحيد عنه لحظات ، إذ يعاود الرؤية تتغير الموجودات .

يسأل نفسه معابثا .

« أحقا أنا .. أنا » ..

يمضى حذرا ، شاكا في أمره ، على خشية من ارتكاب خطأ ما يعرضه للاحتكاك بالآخرين ، انه في حاجة إلى الهدوء ، إلى الاتزان . إلى المساعدة .. ، هل أدركه اليأس تماما من لقاء المغربى ؟ ، لماذا لا يبذل المحاولة ؟ ، ألم يحدثه عن نفوذه في البلاد ؟ ، يذكر ثقته البادية ، تراثه ، اركان بيته المدجج بالتحف ، مازال النهار في أوجه ، عليه الا يبدد أى لحظة ، اقتراب الليل يخيفه .

عندما نزل عاصمة بلاده شابا ، سعيًا لطلب العلم ، منفردا عن الأهل ، سكن غرفة واحدة في الحى العتيق ، كان أقول الضوء وتواريه الهادئ يثير عنده حزنا غامضا ، البيوت متقاربة حتى يمكنه سماع المتحدثين في الغرف المجاورة ، ومحاولات اشعال المواقد ، أو سقوط شىء ما فجأة ، اصطدام أو أن يبعضها ، نداءات مجهولة ، الأصوات الأخيرة للنهار المبتعد . حرص في هذا الزمن البعيد ألا ينزل عليه الليل في غرفته الضيقة ، يخرج .. يلوذ بزحام

الشارع القريب . يسعى منفردا ، لكنه مؤتنس بآخرين لا يعرفهم ، بحركة بيع وشراء لا صلة له بها ، وجمع في المقامى لا يعرفهم ولا يعرفونه ، حتى إذا اكتمل الليل ، وارتفع صوت القارئ يتلو قرآن الثامنة الذى يسبق نشرة الاخبار الرئيسية ، ينسحب راجعا إلى مأواه ، مثقلا بالشجى ..

خوفه الآن أوعر ، ليل غريب مقبل ، لا علاقة به أو بمن يشملهم ، ينزل عليه وغربته مكتملة ، هويته مبددة ، يلتمس أدنى عون ، تعاوده خشية اغماء مفاجئ فى الطريق أو تمام الأجل ، يتخيل السطور التى ستذكر عثورهم على شخص بلا أوراق ، مجهول تماما ، كيف سيتصرفون ؟ أى اجراءات تتخذ عندئذ ؟. يلح عليه حضور ابيه المندثر ، عبثا يحاول استخلاص الملامح ، غمام كثيف يحجب عنه ما كان ، ما سعى يوما .

ما أوهى الصلة كما تبدو الآن !

لينتبه ، ليبذل المحاولة بحثا عن المغربى ، سيبدأ من الفندق ، يستنفر سلامات رآها ، يتتبعها ، لكن .. هل يجدى هذا فى مدينة تتغير ثوابتها ، وتتبدل مبانيها ؟

ما من بديل .

لحظة وصوله إلى الفندق لم يتجاوز المدخل ، يدير ظهره للبناء قديم الساحة ، حديث المضمون ، يمضى باتجاه الميدان ، تماما كما اتجهت للسيارة التى أقلته . الأقواس لم يدركها تغيير بعد ، عند وصوله إلى الميدان الفسيح ، أطال النظر إلى البناء الضخم ، القديم ، الغامض ، مركز العمران ، الحد الفاصل بين القديم والجديد . فى موضع ما منه ، يجهله ، أوراق تحوى اسمه ، صفاته ، ما لا يعلمه !

لابد أن موضوعه يبحث هنا الآن ، لا يدري إذا كان فى لحظة معينة

سيضطر إلى ولوجه ، لكن .. من أين ؟ ، عند الضرورة سيتقدمه أو يتبعه أحدهم ، ربما عصبوا عينيه لحظة اجتياز أماكن محرمة على الغرباء ، لهم اجراءاتهم ، للجاهة تقابلها ، للمدينة حركتها وأسرارها ، هذا كله محيط به ، محقق الآن ، عليه المحاولة والامتنال .

هل جرى تغيير ما ؟

صعب المقارنة ، لكن المؤكد ان لون الطلاء تغير إلى حد ما ، طغى الأخضر على الأصفر الغامق ، أما الستائر فلا تدع مجالاً للشك ، عندما رآها بصحبة المغربي كانت بيضاء ، انها بنية قاتمة الآن ، وماذا عن النوافذ ؟ ، القضبان الحديدية المتقاطعة كما هي ، لكن الزهرة المعدنية الصفراء لا وجود لها ، ثمة تغير في الزوايا ، يتابع بحرص أثناء مشيه ، لا يتوقف ، يخشى إثارة الشبهات ، الاقتراب منه إلى حد معين غير مسموح ، ربما تعرض لمتاعب لا يدري كنهها إذا ارتكب خطأ ما بغير قصد ، خاصة هنا ، يتطلع حوله أثناء وقوفه عند الناصية المؤدية منتظرا توقف العربات .

العربة دارت به هنا حيث ترتفع الأرض قليلا ، يسدل جفنيه مطالعا على الصور الداخلية المتبقية عنده ، نعم .. نعم ، مؤكد من هنا ، يمشى واثقا ، حريصا على ابداء الجدية ، والعزم على التوجه إلى قصد محدد ، مازال قريبا من المبنى الخفيف ، الباعث على الرهبة ، بصمته ، باحجاره ، بنوافذه ، في التسكع مخاطرة ، لكنه بعد حوالي عشرين خطوة يتوقف . امامه مباشرة الدرج الحجري المؤدى إلى مطعم المقائق ، لم يتوقع الوصول إليه . موقن انه قطع بصحبته مسافة أطول بالسيارة ، كيف يصل إليه بسرعة ؟ ، يقوى حضور الباسقة غير المرئي ، أسفرت عن رشاقتها هنا عندما تقدمته كراقصة باليه ، أين هي الآن ؟ الطريق الذي يطوى عند النظر إليه قريب .

يصعد السلم ، غير انه لا يؤدي إلى المطعم ، ينتهى إلى حديقة معلقة ،
حشائش مبسوطة ، وشجيرات لم يرها من قبل ، يتوقف ، الم ير المطعم منذ
لحظات ؟. انه واثق ، لا يشك أبدا .

لا .. انه يبدد وقته ، الحديقة مباحثة له ، الوقت يمر بسرعة ، لم يحدثه
عنه أحد باعتباره من عمل الفلاسفة الأربعين ، لا يستبعد الآن أى أمر أى
طارئ .

كلما تطلع إلى ساعة معصمه ، إلى أخرى عامة ، أو في واجهة بيت ، يخطر
له : المفروض الآن اقتراب القطار من منتصف المسافة ، من العاصمة ،
الطائرة في الأعلى الآن ، تقلع من القاهرة صباحا ، وترجع ليلا ، تطير بدونه ،
سيبقى مقعدة خاليا ، أو يحتله أحد المدرجين على قائمة الانتظار ، ها هو
يضرب في المدينة مرغما ، يجتاز شارعا بعد شارع ، وطريقا اثر طريق ، لكم
يشعر انه قصى ، بعيد ، ينظر إلى الواجهات القديمة التى تخفى تكوينات
حديثه ، لكل شىء ظاهر وباطن ، في لحظة معينة يتحول ، يتغير ، يتموه ،
يخشى ان يضل ، يشرع في العودة إلى الفندق ، بالتاكيد ثمة من يتفحص
وضعه الآن ، بعضهم يهتم بأمره وان لم يبد ذلك ، قبل مفارقتة الجامعة
هدد الرجل الذى حاوره بالاضراب عن الطعام علنا أمام الجامعة ، لم يبد
عليه أى تأثر بما سمعه ، لكنه قال بهدوء : ليس هذا من سلوك أهل العلم .

بدت لهجته مغايرة ، غير انه تركه يذهب ، لو استطاع الوصول إلى هذا
المغربى .

يدخل مقصورة عامة للهاتف ، الحامل المعدنى ، ثلاثة أجزاء متوسطة ،
كل منها مغطى باعلانات ملونة عن متاجر ومطاعم ، يلفت نظره أن الدليل
يحوى قسما منفصلا لأرقام تليفونات الجامعة ، ليس الادارات والكليات

فقط ، إنما منازل الاساتذة والعاملين ، كل من له صلة ، الترتيب يوحي كأن الجامعة في مكان آخر ، الأرقام الأولى متشابهة حتى مع اختلاف مواقع سكنى هيئة التدريس ، هكذا بمجرد أن يبدأ أحدهم في املاء رقمه حتى يكشف عن هويته ، أسماء الجامعة بالتحديد طبعت بحجم أصغر ، البلدية تدير مركز الاتصالات المكون من عدة دوائر .

يقلب الصفحات متمهلا ، متأنيا ، يدقق ، لكن ما من اسم له ملامح عربية ، كيف لم يستفسره عن اسمه ، صحبه وقتا ، جلس إليه في بيته ، كيف؟ ، هو لم يطلع ، وفي خطابه الأول خط سطرين وقعهما - صديقك المغربي - ، لكن .. ربما ذكر اسمه ولم ينتبه ، هل نسيه بتأثير النبذ ؟ لا يدرى .. مامن وضوح ، ما من ثبات ، مامن يقين عنده بصحة ذلك ، يفارق مقصورة الهاتف نادما على ما انفق من وقت في البحث ، محاولة فاشلة ، ضيع وقتا ثميننا كان يجب ان يقضيه فيما هو أجدى ، لكن ما الأجدى في حال كهذا ؟

في مواجهته تقوم مجموعة من المباني الحديثة وان احتفظت بالخطوط القديمة ، لا تنافر بينها وبين العمارات الأخرى ذات الأقواس ، أنها خالية تماما من السكان ، سنوات عديدة لم يقربها أحد كثرت الأقاويل حولها ، ثمة من يقول أنها تستخدم في رصد ما يجرى داخل الجامعة ، خاصة أنها تشرف على المنطقة المحددة بالبراميل الحمراء ، لكن يرد آخرون ، ما حاجة البلدية إلى هذه الوسيلة البدائية من التجسس ، وهناك من البدائل المتاحة ما يفوق الحصر ، الحقيقة انهم شيدوا المباني في زمن الاسعار الرخيصة ، وبيعونها خالية لبيعها بعد تضاعف قيمتها ، ذم المسؤولين في البلدية خربة ، انهم يحصلون على عمولة معينة مقابل السماح بدفن الميت . يؤكد آخرون ان

بعض كبار المسئولين بنوا هذه العمارات . وخصصوا شققها لابنائهم الذين مازالوا صغارا ، وللأحفاد المحتمل مجيئهم . يحدث هذا بينما أزمة الا سكان في تزايد مستمر ، ويسوء الوضع جدا في الحى الصينى . هذه العمارات محور أزمة مستمرة مكتومة مع السلطات الاتحادية ، ولكن الوضع باق على ماهو عليه ، يلاحظ ارتفاع المباني القديمة المجاورة .

هل تتغير الارتفاعات ليلا ؟ ، هل تعود اقصر مع ضوء النهار ؟

لم يعد يدهشه شىء ، يقولون انه بعد نزول العتمة تمتد طرق جديدة ، تتوارى مع انبلاج الصباح ، تتبدل ميادين ، وتنشأ احياء بأكملها . في يوم معين من كل سنة ، في نوفمبر ، يلتزم أهالى المدينة الصمت ، حتى الجامعيون بمن فيهم الغرباء الذين جاءوا من بلاد قصى للدراسة ، منذ الفجر وحتى منتصف الليل يكف الجميع عن النظر ، لاتتحرك عربات ، ولا يسمح للطائرات بعبور المجال الجوى ، كما ينهر الأطفال الصغار بشدة إذا عاطوا أو صاحوا ينتظر الجميع تردد أصوات الموتى ، فى الشوارع ، عند مداخل البيوت ، فى الحجرات المغلقة ، فى المتاجر ، المقاهى ، الحانات ، الاسواق ، من الآبار والسواقى التى جفت ، من جذوع الأشجار وأغصانها ، من حيث لا يتوقع الإنسان يمكن أن يصغى إلى صوت حبيب رحل ، أو صاحب ، أو جد سمع عنه ولم يدركه ، أو مجهولين لا يعرفهم أحد . بينما ينكمش آخرون خوفا من تردد أسرار ظن الجميع انطواءها ، أما الجامعيون فيستنفرون قواهم لرصد الأصوات القديمة والتى ينطق بعضها بلغات لم تعد متداولة ، على أمل التقاط حوار دار يوما ، أو جزءا من مناقشة ، أو خطة أثناء اعدادها ، أو خطبة ما ، ربما ساعد ذلك فى كشف اسرار التاريخ الأقصى ، وأهمها موقع مقبرة كبير الفلاسفة.

إن المحاولات لا تتوقف منذ قرون عديدة ، من الجامعة ، من البلدية من الأمن الاتحادى ، الرئاسى ، الخاص ، الفرعى ، صباح اليوم التالى يسعى رجال البلدية جاهدين لمعرفة ما توصل إليه الجامعيون أثناء اصغائهم إلى الموتى ، جهات شتى تسعى ، بعض الأفراد .

تذكر المدينة هذا البحار الفنزويل الذى ورث ثروة كبيرة ، وانتقل إلى الحى الصينى ، اتخذه مقرا ، حصل على اذن من البلدية بعد دفعه رشاوى وهدايا طائلة ، منها عصا مارشالية صنعت من الياقوت الخالص ، تستقر الآن فى إحدى خزائن بنوك سويسرا ، حيث اخفاها رئيس البلدية السابق ضمن ثروته التى تمكن من تهريبها ، ثم مات قبل أن يخبر أحد ابنائه برقم حسابه السرى ، ان اسرته كلها تجتمع وتصفى يوم الموتى بأكمله لعل وعسى . أما البحار الفنزويل فانفق آخر قرش يمتلكه على تكاليف ما قام به من جهود وحفائر ، أصبح مادة مثيرة للسخرية فى الصحافة المحلية وأحيانا الاتحادية ، لم يفارق المدينة ، يشاهد أحيانا ساعيا فى طرقاتها ، لا يدرى أحد اقامته .

ضريح كبير الفلاسفة .

مطمح الكل ، وغايتهم ، لو أمكنه الوصول إليه ، كل المراجع ، جميع الاشارات تؤكد انه مطمور فى مكان ما ، بما يحويه من أسرار مكتوبة تحوى علوما جمة من معارف الاقدمين ، ومجوهرات وتحف وذخائر ، ولفافات بردى تحوى علوما جمة من معارف الاقدمين ، تفسر الكثير مما يجرى الآن ، وما يحدث من ظواهر فى المدينة ، كل مقابر الفلاسفة الآخرين اكتشفت ونهبت فى قرون شتى عدا ضريح رئيسهم .

يسرع الخطى ، لكن .. فى غير هرولة ، حتى لا يلفت أنظار الآخرين ، وان

بدا كل منهم مشغولا بذاته ، منقطعا عن الآخرين ، غير انه عند تأهبه لاجتياز شارع عريض يؤدي إلى ميدان صغير تتوسطه نافورة مياه قديمة ، اطال النظر وحد البصر إلى لافتة معلقة فوق بناء مواجه .

ثلاثة طوابق ، واجهة دقيقة الخطوط ، منمنمة النقوش ، لها لون الحلوى المسوسة بالفسق ، كيف لم ينتبه إلى البناء ، لم يحدثه المغربى عنه ، ولا الباسقة .

« فندق العربى » ..

هكذا ، فى مركز المدينة وهو لا يدرى .

يفسح الخطى ، يتقدم .. لا يخشى شبهة .

مربط الفرس ..

.. هذا مبنى قديم بقى على حاله ، لم يلحقه الا تغيير طفيف ، عمره حوالى سبعة قرون ، انشئ كمحط لخيول البريد ، وفندق لرجاله ، والتجار ، المسافرين العابرين ، والرحالة ، والأغراب ، ثم مات آخر مالك له فى بداية القرن التاسع عشر ، أهمل شأنه ، وبان الخراب عليه ، دبت فيه الهوام والجرذان ، كما نهبت محتوياته ، منذ سبعين عاما أبرز أحد رجال البلدية أمام القاضى الفرعى وثيقة تؤكد انحداره من أسرة آخر الملاك ، أظهر أوراقا قديمة ، بها توقعيات شتى ، بعضها واضح والآخر باهت ، أظهر حججا مكتوبة على جلد غزال ، وأوراقا مصنوعة من كتان ، ورسالة ممهورة بطرة عثمانية ، وأخرى مدموغة بختم بابوى ، وثالثة مكتوبة بلغة مندثرة ، غير منطوقة الآن .

اقتنعت المحكمة فاصدرت حكما نهائيا بتمكينه فوضع يده على المبنى وثبت ، بسرعة بدأ العمل ، انفق أموالا جمة على التنظيف ، وإزالة المخلفات ، والاعداد ، والفرش ، وخلال سنوات قليلة أصبح من أشهر فنادق البلاد ، وأغلاها ، تميز بمطعم يقدم الوجبات الشرقية المعدة جيدا .

نزل به مشاهير واثرياء وسياسيون وكتاب حصلوا على جوائز عالمية ، كما أقام به الفيلد مارشال مونتوجمرى أثناء عودته إلى بلاده بعد انتصاره فى معركة العلمين ، وتفصيل ذلك يطول . منذ سبعة وعشرين عاما نزل

البلاد أمير عربي، ومجىء اثرياء الدنيا إلى العاصمة الاتحادية أو إلى الشواطئ الشمالية أمر معتاد ، لقضاء الاجازات ، أو لعقد صفقات ، أو للقيام بمهام سياسية ، لكن وصول هذا الأمير بدا مختلفا ، إذ طالت مدته ، واشتهر أمره بعد استئجاره طابقين كاملين في أعرق فنادق العاصمة ، كان ايجارهما لمدة شهرين يكفى لشرائه بيت من طابقين أو ثلاثة تحيطه حديقة ، لكنه لم يقدم ولم يعرف أحد سبب ذلك .

كانت تصحبه حاشية قيل ان عددها مائة وأربعون شخصا ، وزعم آخرون أنها تتجاوز المائتين ، أفراد عائلته ، وحرسه الخاص ، والقائمون على إدارة أعماله ، والطباخون ، والسعاة ، وسائقو العربات ، وشخصيات لاتعرف طبيعة عملهم بالضبط ، منهم ثلاثة أو أربعة يقفون عاقدين ايديهم، متطلعين إليه ، وسكرتيرة انجليزية شابة ، ذات بهاء خاص ، ويقال أنه تعلق بها ، ولزمها لجمالها ، ولخاصية غريبة لم تعرف لدى أى امرأة عداها ، ذلك أنها تردد بكرا بعد كل مضاجعة !

تنقل في الولايات حتى نزل المدينة ، ويبدو أن هواءها مناسب أحواله الصحية ، إذ نصحه الاطباء المرافقين باتخاذها مقرا لاقامته ، ولم يعرف السبب بالضبط ... المهم .. وصل إلى المدينة في يوم مشهود ، خرج فيه الناس وطلبة الجامعة واساتذتها للفرجة على طرز السيارات الحديثة ، القاهرة ، المزود بعضها بأجهزة تليفزيون وهواتف بعيدة المدى ، ودورات مياه ، ونظم دفاع ذاتية ، تم تخصيص الشارع الجانبى غرب الفندق لوقوفها ، مقابل رسوم ضخمة تدفع إلى البلدية ، لكن الناس تحدثوا عن مبالغ طائلة تقاضاها بعض المسئولين عن الادارات ، وهدايا من احجار كريمة ، وساعات صنعت كلها من الماس ، ومعاطف من فراء المنك ، والسمور ، وسيارات

تتجدد في المناسبات المختلفة ، من هنا زادت الاعياد التي تحتفل بها البلدية بعد وصول الأمير وبدء اقامته ، كما تكرر الاعلان عن مرض عمدة المدينة أو بعض مساعديه ثم شفائهم بعد أيام قلائل وفي رسالة أعدها أستاذ مادة الاحصاء توصل إلى أنهم يمرضون بشكل دوري ، ويتناوبون مناسباتهم السعيدة ، حتى ان احدهم احتفل بعيد ميلاد ابنته الوحيدة ثلاث مرات في سنة واحدة ، اقامة الامير طالт الجامعة أيضا ، لكن في شكل هبات علنية ، أعلنت الصحف عن تبرع الأمير بمليون دولار كاملة لتجديد بعض المنشآت الجامعية ، كما تبرع بمائة ألف لصالح جمعية مرضى الصدر التي تشرف عليها إدارة المستشفى الجامعى ، وعشرين ألفا لترميم البرج وصيانتة ، وعشرين أخرى لتمويل الأبحاث الخاصة بالكشف عن أسرارہ ، وعشرة آلاف لدعم أعمال لجنة البحث عن قبر كبير الفلاسفة .

هذا ما أعلن عنه ، وما نمى إلى علم الناس .

استأجر الفندق كله ، علقت الإدارة لافتة كتب عليها «مغلق للخدمة الخاصة » ، لم يعد مقصدا لأحد بسبب الرد الثابت الذى كان يتردد عن الهاتف ، « نأسف الحجرات كلها مشغولة » ، توقفت شركات السياحة عن التعامل معه .

في الأسابيع الأولى كان المارة يتطلعون إلى النوافذ المغلقة دائما ، أى تغيير ولو طفيفا يتناقله الكثيرون ، كظهور شخص ما في إحدى الشرفات ، أو ظهور بعض قطع الثياب منشورة في الهواء أمام النوافذ ، أو وصول عربات نقل تحمل صناديق مغلقة ، كتب عليها اسم الأمير .

عرف الجميع انه على خلاف مع اشقائه ، وأن ثمة خلافا جرى ، تدخل كبار السن رأوا ضرورة مغادرته البلد مع احتفاظه بجميع حقوقه وأنصبتة

المادية في العائدات الهائلة ، والحق انه تلقاها بانتظام مما اثار انتعاشا في فرع البنك الاتحادي بالمدينة ، ودفع المسؤولين عنه إلى التدخل لدى الجهات الأمنية لردع بعض الجماعات المتطرفة التي قررت تنظيم مظاهرة احتجاجية ضد اقامة الأمير ، ومظاهر الثراء الاستفزازية ، ولكن .. لم يقع ذلك .

حتى الآن ، لم ير أهل المدينة وجه الأمير ، أو أحد ابنائه ، أو حريمه ، ولا الانجليزية التي تترد بكرة بعد كل مجامعة . كان المارة يتطلعون إلى الطوابق الثلاثة ، المعروف انه مقيم في الأخير ، يقال انه احضر أغنية ومفروشات خاصة به ، واطقم طعام ومقعدا خاصا لجلوسه . أما رياضة المشى اليومي المقررة من الأطباء فيمارسها مطلع كل نهار في الحديقة الخلفية ، تم تعليه أسوارها وبث خوازيق مدببة ، وزجاج مشطوف وسلك كهربائي لعاقة أى محاولة للتسلق ، يمشى في ممراتها جيئة وذهابا محاطا بحراسة الألمان الاشداء .

لم يتحدث أحد من العاملين علانية عنه ، حتى بعد مرور سنوات عديدة على اقامته ، لم يدل أى منهم بتفصييلة ولو ضئيلة ، رغم محاولات واغراءات الصحافة المحلية ، والاتحادية ، وعندما اختلف أحد الطباقين مع إدارة الفندق تردد أنه سينشر مذكراته ، لكنها لم تطبع قط .

المؤكد ان الأقسام المختصة في البلدية تعلم كل شىء ، حتى محتويات الصناديق المغلقة التى تصل بشكل منتظم ، تعكس ما يخص البعثة التعليمية الامريكية التى لم يسمح بدخولها ، أو الاطلاع على محتويات عربات النقل الضخمة التى تصل من الميناء أو البلدان المجاورة مباشرة بدون أن يعترضها أحد ، حتى رجال الأمن الاتحادي .

حدث أن سرت إشاعات تقول بوفاة الأمير منذ عدة سنوات ، وأن جثمانه

أرسل سرا إلى بلاده ، أما المقيمون فما هم إلا ابناؤه واحفاده الذين لا يقدر
على العودة لخلافات وراثتها ، لكن ثبت عدم صحة ذلك .

اذ قام الأمير بزيارة عمدة المدينة ، ورئيس الجامعة في يومين متعاقبين ،
بعد منحه لقب المواطنة الشرفية لمرور ربع قرن وقتئذ على مكته ، وان كان
هذا لا يعنى منحه الجنسية الاتحادية .

مرة واحدة خرج إلى مكان عام ، بعض المعمرين يؤرخ بها ، يقولون مثلا
، قبل ذهاب الأمير ، أو : بعد خروج الأمير ، ذلك ان أحد رجاله مضى إلى
مقهى البوابات السبع ، وانفرد بصاحبه ، طلب منه اخلاء المكان كله ليلا ،
وان تعويضا مجزيا سوف يدفع له .

قبل السابعة وصل ثلاثة من الحرس الخاص ، تفقدوا المقهى ، مخارجه ،
ومداخله ، وفحصوا اجهزة الموسيقى ، واعداد المشروبات والمأكولات
الخفيفة ، ثم بقوا حتى قدوم سموه ، استقل العربة الرمادية ، عتيقة الطراز ،
عرف الجميع انها تخصه ، وان ثمة علاقة حميمة تربطه بها لأسباب لم
يعرفها أحد .

جلس بمفرده في الشرفة المطلة على الصهريج السابع ، وقف رجال أربعة
على بعد قليل منه ، حديق طويلا إلى الفراغ ، عدل غطاء رأسه مرة ، أو ما
مرتين ، ادار إبهامى يديه حول بعضهما عندما احاط مقدمة ركبتيه اثناء
تراجعته إلى الخلف .

قام فجأة وعلى وجهه شجى دفين ، ركب عربته ولم يره إنسان بعد ذلك
في مكان عام ، وجوده أصبح معتادا ، بل ان كثيرين نسوا أمره ، أبطل
معظمهم التطلع إلى النوافذ والستائر المسدلة عند مرورهم ، غير ان آخرين لم
يكفوا عن ابداء الفضول .

رسميا .. احتفظ الفندق بالاسم القديم ، « مرتبط الفرس » ، لكن الناس عرفوه بفندق العربى ، دخل الحوار اليومى عند وصف الطرق وذكر العلامات الدالة ، وفى العام الأخير علقت لافتة عريضة تحمل الاسم الشائع بين الخلق .

أحيانا يرى المارة رجالا نحافا ، طوال القامة ، اشداء ، يرتدون سترات ياقوتية غامقة ، وسراويل واسعة ، واحذية جلدية لامعة ، يقفون بجوار العربات المصطفة ، يديرون محركاتهم للتسخين ، يتفقدونها ، معظمها باق فى مواضع الانتظار منذ قدوم الأمير ، وإن تغير بعضها اثر ظهور طراز جديد ، الزجاج كله معتم ، لا يمكن رؤية الداخل ، فوق كل سيارة هوائى هاتف ، وثن للمذيع ، وثالث للتليفزيون ، وآخر لا يعرف أحد وظيفته ، يحل جديد مكان القديم « يستمر الانتظار الذى بدأ منذ سبع وعشرين سنة ، الشباب من طلبة الجامعة وأهالى المدينة يقفون على مسافة للفرجة على العربات الحديثة يتأملون ، يقارنون بما اطلعوا عليه من صور فى الصحف ، والاعلانات المرئية .

الاقتراب ممنوع ..

يقف حارس من القسم الخاص ، يتبدل ثلاث مرات ، يمنع الفضوليين والمتسكعين وأرباب المقاصد ، وذوى النوايا ، أما دخول الفندق فمستحيل بالنسبة للغرباء ، فقط .. يسمح لأصحاب العلاقة .

مجرىات ..

.. ما من دثار .

ما من ستر ، أو سقف واق ، ما من حيز يضم ، يصون ويللم ، انما انفراط وتذرية ، وديمومة فقد ، وقع التحول والتبدل لما عاش زمنا موقنا استحالة تغيره ، حل وقت المنعطفات والنتوءات المفاجئة ، كل ما يحدد بالخطه ، ويخترق السياق .

كثيرا ما رأى في مناماته دخوله مسجدا ، وعند فراغه من الصلاة يكتشف فقد حذائه ، يقف حائرا ، وجلا ، يتطلع إلى القوم خلصة ، كيف سيطأ الطريق حافيا ؟ ، كيف سيسعى مجردا منقطعا عن كل عون ؟ قبيل مفارقتة موطنه ، قبل اقلاعه من وقته ، لو اطلع على رؤيا فيها مجرد اشارة إلى بعض مما يمر به الآن لسخر من ذاته ، لردد قائلا « اضغات احلام » .

كانت أمه في الزمن الآفل ، المكتمل ، تقول إذ يواجهها ضيق ، « أين انتظرنى هذا كله ؟ » .

أين ؟

نوافذ مغلقة ، أبواب موصدة ، ستائر مسدلة لاتنشى ، طرقات لاتفصح عن أسرار قديمة ، اشارات غير دالة ، تقصيه ولا تدنيه ، أما الاضواء الخافتة ، وذبذباتها غير المرئية ، فتضنيه ، تكده ، كذا مداخل البيوت العريضة ، بقايا

ظلال ، مواضع لاتصلها الشمس ، توحى بالكثة ، بالدفء ، بالدعة ، غير انه لا يبلغها ، كل لحظة .. منفى يتجدد ويلوح .

بمجرد عبوره الطريق إلى الفندق اعترضه الحارس الواقف قرب العربات ، المنتظرة منذ سنوات ، قال ان الفرجة من بعيد ، فلما ابدى دهشة ، وأطلع الجندي على غرضة ، اطال النظر إليه ، قال :

.. أنت غريب ؟

ثم قال كأنه يريد أمرا يعرفه الكافة : هذا المدخل لم يقترب منه انسان منذ زمن طويل الا في ثلاثة أحوال ، أن يكون من طاقم الخدمة ، أو من الحاشية ، أو ضيفا من رجال البلدية ، أما إذا كان جامعيًا فلا بد من حصوله على تصريح من القسم ، لا بد من اخطار مسبق باسمه وأوصافه معتمد من السكرتيرة الانجليزية للأمير ، وهذا لا يحدث إلا نادرا .

أو ما محييا الحارس الذي بدا مرحا ، يمر بنشوة غامضة ، مضى مبتعدا وعنده خشية أن يلحق به طالبا منه الاطلاع على ما ثبتت هويته ، يمشى متندا ، مثقلا .

هل يمشى وراءه أحد ؟

هل يتعقبه شخص ما ؟

إذا صح ذلك ، إلى أى جهة ينتمى ؟

قالوا له ان العارف باحوال المدينة المدقق يمكنه ان يميز ملامح الوجوه ، بيسر يتبين له رجل البلدية من الجامعي .

قال الاستاذ الافريقى همسا ان رجال البلدية واساتذة الجامعة ، يجتمعون ويتزاورون سرا ، وما يقال عن صراعات إنما أمور مدبرة لأغراض خفية لا يعلمها أحد .

لا .. لن يلتفت خلفه حتى لا يثير شبهة .

شبهة ؟

شبهة من ؟

الليل شاسع ، المدى بلا حد ، الأمر بلا ضفاف ، تقد إليه أجزاء من مدن نائية ، جاس خلالها ، أمضى أوقاتا ، هل سيبلغها مرة أخرى ؟ ، كل من أقلع أمس عاد إلى دياره ، الأفريقي في موطنه الآن ، كافة من جاء وا ، عادوا ، يتدثرون بحيواتهم عداه !

لكنه مازال يسعى ، قادرا على المواجهة ، تبدو البنايات بعيدة ، متفرقة ، بعد ان كانت متجاورة ، مضمونة ، الشوارع في الليل منقطعة عن بعضها البعض ، الأقواس الحجرية معلقة ، غير متصلة ، في النهار تضافى على الطابع بعدا طقوسيا ، يستعيد قناطر شتى عبرها في حياته ، قنطرة حجرية مشى فوقها طفلا ممسكا يد أبيه ، تغمرها رائحة تين عسلية ، أخرى وطنها في شبابه عند سفره إلى بلدة نسى ملامحها وموقعها ومخارجها والمداخل المؤدية إليها ، يجتاز إحدى البوابات السبع .

فكرة تومض فجأة ، كيف لم ينتبه من قبل ؟

عند استعادته مواقع البوابات فوق الخريطة ، عند تذكره تفاصيلها المعمارية ، كل منها تواجه الأخرى رغم تباعد المسافات ، لو امتدت خطوط مستقيمة تتقاطع عند موضع محدد . بالضبط .. قرب البرج .

إذن .. هل يستقر ضريح كبير الفلاسفة هنا ؟

هل يمكن هذا ؟

الضريح في باطن الأرض ، أما البرج المائل فمجرد شاهد هائل الارتفاع

فوقه ، لم لا ؟

حدس ، تخمين ، استنتاج ، شبهة يقين ، من أى مصدر وائته تلك
الإشراف المبالغية ، تفسير يدفق عنده طاقة ويبدد وحشة قصوى ، إذا حلت
مشكلة ، يعلنهم بما فكر فيه .. يدعوهم إلى بدء البحث ،

لكن هذا يستدعى اليقين ، والأمر واهن هنا ، يقولون ان الوصول إلى
الحصن المشيد يصير مستحيلا فى أيام معينة من السنة ، فكلما اتجه إليه من
يقصده مسافة يتراجع بنفس القدر ، لم يعاين ذلك ، فهل سيراه ؟
هل ستطول مدته حتى يطلع على ذلك ؟

الأمر صعب !

يعبر مدخل الفندق الذى خشى أن يضل طريقة إليه ، يتجه إلى موظف
الاستقبال ، انه الشاب الذى ابلغه ليلة أمس بفقد الجواز ، يقدم إليه البطاقة
الصغيرة التى يسلمها مقابل المفتاح ، مدون عليها رقم الغرفة ، يفاجأ بلهجة
الموظف الحياضية ، غير المعنية .

ـ اقامتك انتهت يا سيدى ..

أى جديد مختبئ ؟ ، أى كامن لم يسفر بعد ؟ ، لم يعد واثقا من عبور
لحظتين متتاليتين فى ذات الحال .

ـ أخبرونى فى الجامعة أنهم مدوا اقامتى يومين ..

يتطلع إليه مرة أخرى ، وكأنه بعيد اكتشاف مثوله أمامه ، ينظر إلى لوحة
الحاسب الآلى ، يضغط مفاتيح عديدة .

ـ صحيح .. من فضلك .. جواز سفرك ..

ـ الا تعرف انه مفقود ؟ أنت أول من ابلغته أمس ..

ـ صحيح .. صحيح .. ألا يوجد خطاب من الإدارة ؟؟

يهز رأسه نفيا ، يشير إلى أعلى .

- أنا مقيم ، وبيانات هويتي مدونة وحقيبتى فى الغرفة ..
يقول إن هذا كله صحيح ، لكن المدة الأولى انتهت ظهر اليوم ، لو اتصلت
إدارة الجامعة قبل الثانية عشر لاعتبر ذلك مدأ لكنهم اخطروهم بعد الواحدة
والنصف ، بعد انتهاء اقامته طبقا لقوانين البلدية وتعليماتها الصارمة .

- الآن .. لابد من تدوين البيانات من جديد ، يعنى

- الآن من الاطلاع على الهوية ..

لا يدري .. هل حاول قمع ضيقه ، تهدئة انفعاله ؟ أم أن هددا بداخله أدى
إلى اقترابه ، إلى ميله قليلا ، إلى تضيق الفراغ الفاصل ، إلى نطقه راجيا ، طالبا
العون والمساعدة .

إنه يرجوه بشكل خاص ، يعرف محنته ، هو أول من اطلع عليها النهار
كله يبذل الجهد ، ثمة بحث جدى يجرى الآن بلا شك ، الجامعة والبلدية
أحيطا علما ، إنه متقدم فى السن ، معطوب الشرايين ، فليساعده الليلة فقط ،
وغدا تنجلى الأمور ..

- هل تقبل أن أسجن ؟

- لا ..

يشير إلى الخارج

- على الجامعة أن تساعدك ..

يطلب حقيبتة ، يقول الموظف أنها فى الامانات ، لكن تسليمها إليه صعب .
- الهوية .. ما يثبت أنك أنت ..

تلك لحظات فارقة ، أيقن من استعادتها مرارا فيما بعد ، هل سيقدر له

حكيها لاصحابه فى موطنه ؟

يخرج إلى ليل أليل بمفرده ، خلوا من كل عون ، مفتقدا الوجهة والقصد ،

ما يدهشه صفاء مفاجئ يحل به ، لا يذكر من القائل : عند اكتمال الشوط يستعصى الدمع ، والا .. هل رأى أحد محتضرا يبكى ؟

مع تبادل الخطى يرحل من صورة إلى أخرى .. من فكرة إلى فكرة ، يستعيد تجواله في مدينته القصية ، الآن توشك سبله أن تنقطع عن مصادرها عصابة تنبت عن ينابيعها ، يتشظى وقته الأفل ، أيامه الاسرية التى لم تدم طويلا ، خلوة ليلية ، جلسة حميمية ، اكتمال ألفة ومودة يستعيد ما أتم كينونته يوما ، يرى مالم يبصره في حينه ، تغد عليه دهشة بكر لا يعرفها إلا أطفال مازالوا بعد في مفتتح المواصلة ، كل ما ينطبع في افئدتهم مثير للعجب كأنه يكتشف البديهيات من جديد ، مع كل شهيق يفض بريدا من الوجد والشجى .

يقوى حضور البعد على القرب ، يطغى مالا وجود على ما يمكنه لمسه ، يمشى متثدًا ، مثقلا بهبوب الحنين وعرا إلى مدينته ، إلى حضورها الآن أول الليل ، نواصيها ، مبانيها ، شوارعها ، مقاهيها ، أصيلها ، أزمنتها الخريفية انبثاق مآذنها ، تفتح ازاهير أشجارها ، توزع عمره عليها ، ضوء نجومها ، تردد أحلامه فيها ، انبثاق أيامه في دروبها وعند منعطفاتها ، حوارها ، ميادينها ، أفقها البادى من أعلى ، شب فيها وغض ، وحماه السعى فيها من نوبات القتامة فمن يصله بها الآن .. من ؟ ..

١٩٩٠ - ١٩٨٩

صدر لجمال الفيضاني
من دار الشروق

- الزينى بركات .
- رسالة في الصبابة والوجد .
- كتاب التجليات - الأسفار الثلاثة في مجلد واحد .
- منتهى الطلب إلى تراث العرب - دراسات -

رقم الإيداع: ٧٦٦٦ / ١٩٩١
I.S.B.N 977- 09 - 0077-0

مطابع الشروق

المنامة، ١٦ شارع حراد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت، ص ب ٨٠٩٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

تم الاعادة الشرف بوارثه

مكتبة عمكر

ask2pdf.blogspot.com